Bu eserin;

kataloglanması, dijital ortama aktarılması ve

elektronik ortamda kullanıma sunulması

İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)'nın desteğiyle

İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı

Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü (Atatürk Kitaplığı)

tarafından gerçekleştirilmiştir.


| | | |
|---|---|---|
| Proje No | : | İSTKA/2012/BIL/233 |
| Destek Programı | : | Bilgi Odaklı Ekonomik Kalkınma Mali Destek Programı |
| Projeyi Destekleyen | : | İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA) |
| Proje Adı | : | Osmanlı Dönemi Nadir Eserlerin Kataloglanması, Dijital Ortama Aktarılması ve Elektronik Ortamda Kullanıma Sunulması |
| Proje Sahibi Kuruluş | : | İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı |
| Proje Yüklenicisi | : | Yordam BT Ltd. Şti. |
| Proje Uygulama Yeri | : | Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü - Atatürk Kitaplığı İSTANBUL – Beyoğlu |





# تاريخ

# دولة المماليك في مصر

# تاريخ

# دولة المماليك في مصر

١٢٦٠ — ١٥١٧ م





تأليف

السير وليم موير

K.C.S.I., LL.D., D.C.L., PH.D. (Bologna).

مؤلف كتاب « حياة سيدنا محمد » و « سيدنا محمد والاسلام »
و « الخلافة » وغيرها



ترجمهُ الى العربية

محمود عابدين و سليم حسن

مدرس التاريخ بدار العلوم — الأمين المساعد بالمتحف المصرى

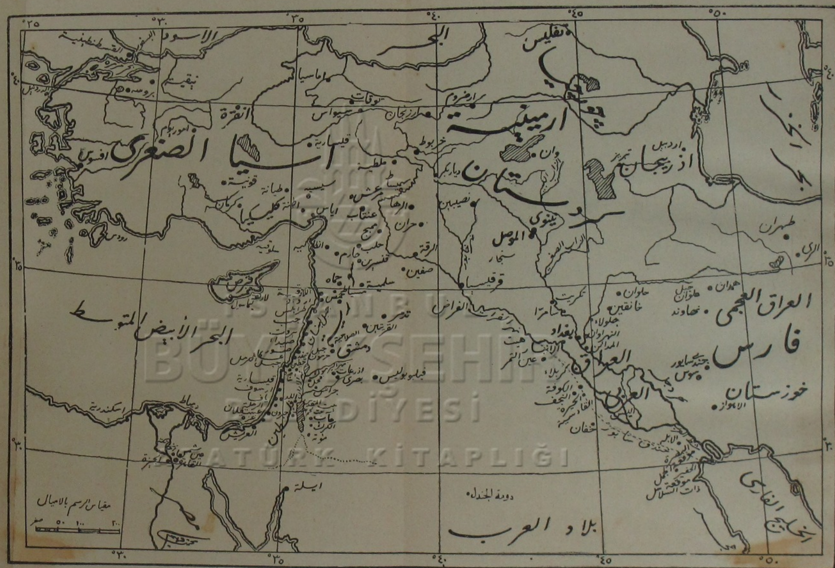




( الطبعة الاولى )

١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر



البحر الاسود
القسطنطينية
بروسه
نيقيه
انقرة
اماسيا
توقات
سيواس
ارزنجان
ارضروم
تفليس
آسيا الصغرى
افسوس
قونية
ملطية
قيسارية
رودس
ارمينيه
كردستان
ديار بكر
خربوط
وان
نصيبين
نينوى
الموصل
سنجار
اذربيجان
اردبيل
تبريز
طهران
الري
مرعش
عنتاب
الرها
حران
منبج
حلب
قنسرين
الرقة
صفين
حماه
سلمية
حمص
تدمر
قرقيسيا
الفراض
دمشق
فيلوبوليس
بصرى
قيسارية
قبرص
البحر الابيض المتوسط
اسكندرية
دمياط
العريش
ايلة
تكريت
سامرا
بغداد
خانقين
حلوان
جلولاء
همدان
نهاوند
العراق العجمي
فارس
العراق
عين التمر
كربلاء
الكوفة
النجف
الحيرة
القادسية
خفان
سوس
خوزستان
الاهواز
الابلة
ذات السلاسل
دومة الجندل
بلاد العرب
الخليج الفارسي
مقياس الرسم بالاميال
٢٠٠
١٠٠
٥٠
صفر
٢٥
٣٠
٣٥
٤٠
٤٥
٥٠



ايوان الناصر محمد بن قلاوون ( كما كان عام ١٧٩٨ م )



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ،

فهذا كتاب فى تاريخ عصر من عصور مصر الشيقة تهم قراءته كل شرقى وخاصة من كان له ولع بتاريخ هذا البلد ؛ وهو لا يخلو فى كل أطواره من لذة أو فائدة . دفعنا الى ترجمة هذا الكتاب عن الانجليزية « أولا » ما نراه الآن فى قومنا من الروح الوطنية العالية ، والميل الشديد الى تحصيل العلم ، والرغبة العظيمة فى الوقوف على تاريخ بلادنا ، ذلك الذى نحن أولى الناس بتفهمه وتتبع الخطوات التى سار فيها ، لأن من أقوى دعائم الرقى الفكرى والتقدم السياسى فى أى أمة معرفة تاريخها . و « ثانيًا » شعورنا بأن هذا الكتاب يسد فراغًا عظيمًا فى عالم التأليف عندنا إذ لا يوجد كتاب خاص بهذا العصر وضع باللغة العربية على النمط الحديث . و « ثالثًا » لأنه أخصر مؤلف مفيد فى موضوعه على ما فى الأصل الانجليزى من هفوات قليلة تداركناها

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الفاضل السير وليم موير المستشرق . وقد أخرجه لقراء الانجليزية ليسد به فى لغته بعض الفراغ الذى نتمنى أن نسده نحن أيضًا فى العربية . وقد استعان مؤلفه بخير ما كتب فى هذا الموضوع باللغة العربية والألمانية والفرنسية والتركية كما تجد ذلك فى المقدمة التى صدره بها

وقد توخينا فيه سهولة العبارة مع سلامة التركيب ولم نحد قيد أنملة عن ايراد المعنى الذى قصده المؤلف، ولم نتقهقر أمام ما كنا نجده أحيانًا فى أسلوبه من غموض بل بذلنا كل ما نملك من مجهود فى بيانه . ولم يفتنا، مع هذا، أن نرجع الى المصادر العربية التى أشار اليها المؤلف فى مقدمة الكتاب خوفًا من الأغراق ، واستيثاقًا من



المسميات والأعلام – حتى لا ينبو عنهُ الذوق العربى وحتى لا نرمى بما يرمى به بعض المترجمين غير المدققين من الاهمال . على أننا لا ندعى العصمة لأن الخطأ قد ينال المرء وهو أحذر ما يكون . وقد أضفنا الى الكتاب بعض الحواشى التى لم نر بدًا من إيرادها لزيادة توضيح الموضوع

وقد حليناه بالصور التى اختارها له مؤلفه ، وصدرناه بخريطة واضحة رسمها حضرة الأستاذ محمد فهيم مدير حسابات المعارف ، فله منا مزيد الشكر جزاء صنيعه واننا نقدم شكرنا لحضرتى الأستاذين الفاضلين الشيخ عبد الرحيم محمود الوقفى والشيخ على السباعى على قراءتهما الكتاب قبل طبعه والله نسأل ان يجعله كتابًا مفيدًا لأهل العلم ومحبى الاطلاع ، آمين ؟

محمود عابدين     سليم حسن

# مقدمة المؤلف

يشمل هذا الكتاب نظرة عامة فى تاريخ أسرة المماليك الذين ابتدأ حكمهم من بيبرس عام ١٢٦٠ م . وانتهى على يد السلطان سليم العثمانى عام ١٥١٧ م ، كما يتم تاريخ الخلافة العباسية الى الوقت الذى استولى فيه سلاطين العثمانيين على لقب الخلافة

وانى يسرنى بداءة الأمر أن اعترف بالشكر الجميل للمرحوم الدكتور ويل فانى مدين له بمواد هذا الكتاب إذ اقتبستها من كتابيه الأخيرين من مؤلفه العظيم « تاريخ الخلفاء » فقد وفق هذا الكاتب العالم ، بما أوتى من مهارة وما بذل من مجهود ، أن يجعله كتاباً جامعاً شاملاً ؛ وهو لم يكتف بالاشارة الى المصادر التى استقى منها واعتمد عليها بل كان يقتبس ما هو هام بعبارة المؤلف وكلماته نفسها

ومعظم هذه المصادر حصل عليها الدكتور ويل من المخطوطات اليدوية العربية النادرة الوجود بعد العناء والبحث الطويل فى دور كتب جوتا ومونيخ وبرلين وليدن وباريس . وفيما عدا حوادث الخمسين عاماً الأخيرة من تاريخ هذه الأسرة (التى اعتمدنا فيها تاريخ ابن إياس وكتاب الأتراك ) فان هذا التاريخ قد اعتمد فى تحقيقه على ما خطه الكتاب المعاصرون الذين من أشهرهم :

| | | |
|---|---|---|
| ابو الفداء | ولد عام ١٢٧٣ | وتوفى عام ١٣٣١ م . |
| النويرى | « ١٢٨٠ | « ١٣٣٢ م . |
| ابن بطوطه | « ١٣٠٢ | « ١٣٧٧ م . |
| المقريزى | « ١٣٥٨ او ١٣٦٤ « | « ١٤٤١ م . |
| ابو المحاسن | « ١٤٠٩ | « ١٤٧٠ م . |
| ابن إياس | « ١٤٤٨ | « ١٥٢٤ م . |

ونحو اثنى عشر غير هؤلاء . ولكن أوثق هذه المصادر المذكورة الثلاثة الأخيرون .



وقد ترجم م . كاترمير[1] جزءاً من كتاب المقريزى المؤرخ الكبير ، الخاص بعصره وبالأزمنة السابقة له الى الفرنسية ؛ والكتاب على العموم نفيس جداً لأن كثيراً من فقراته الهامة قد ذكرت باللغة الأصلية العربية كأنها حواشٍ أو ملاحظات

والمقريزى ( سمى بهذا الاسم نسبة الى الجهة التى نشأت فيها اسرته فى بعلبك ) كان من اهل مصر ، وكان يشغل مركزاً فى شرطة القاهرة ، وكان مراقباً على الهبات فى دمشق . وكتاباته الكثيرة لها مكانتها العظيمة من الاحترام ، وتمتاز سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجهد وتدقيق تاريخى . اما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عدل فذكرها غير متحيز

اما ابو المحاسن فقد عاش بعد المقريزى نحو ثلاثين سنة ؛ وهو ابن الأمير تغرى بردى الذى كان مملوكا يونانياً للسلطان برقوق . وقد لعب ابوه هذا دوراً هاماً فى الحوادث التى وقعت للسلطان فرج . وقد عفا عنه مرة برجاء ام هذا السلطان وهى من سبى اليونان ايضاً . وابو المحاسن باعتباره مؤلفاً مكثراً قوى الذكاء ، يوثق به كثيراً . وله ميزة خاصة هى استمراره بعد المقريزى فى تكميل تاريخه . وقد كان محبباً الى بيت الملك ، وقد يدع هذا سبيلا للشك فى حكمه ، ولكن يقطع طريق هذا الشك كونه عالماً مؤرخاً معاصراً

اما ابن إياس فهو الكاتب العمدة الوحيد الذى نجعل اعتمادنا عليه فى تاريخ الجزء الأخير من اسرة المماليك ، وبما انهُ عاش بعد سقوطها فكتابه يمدنا بمعلومات قيمة عن عصر تعوزنا فيه الكتب الأخرى[2]

وهذا رأى الدكتور ويل فى التاريخ الذى كتبه ، وقد ذكره فى مقدمة الجزء الخامس ، قال : « هذا الجزء مثل سابقه قد خصص جله لتاريخ مصر وسوريه ، ولكن القارئ سيجد ايضاً شيئاً كثيراً خاصاً بالولايات الآسيوية المجاورة مثل اسرات

(١) وجزء من هذا نشرته ادارة الترجمة الشرقية فى جزأين . باريس ١٨٣٧ و ١٨٤٠

(٢) نشر كتاب ابن اياس فى ثلاثة أجزاء فى القاهرة . وقد حصلت على نسخة منه بفضل ارتين باشا ، ولكن ذلك كان بعد اتمام هذا الكتاب ولذا لم أستفد منه شيئا يذكر

تيمور وعثمان والتركمان وبنى ذى الغادر وكرمان وشريف مكة ، وكذلك فيه بحث دقيق طريف فى علاقات سلاطين المماليك برودس وقبرس والبرتقال والبندقية والبابوية وبعض ممالك أوربا الأخرى . وانى على يقين تام من أن هناك أشياء كثيرة لا زالت تستدعى التفصيل والشرح الطويل بدرجة أكبر مما فى المصادر التى بين يدى ، وكان فى مقدورى أن أملأ الفراغ بالحدس والتخمين وأضعه فى قالب تاريخى ولكنى لم أرد أن أضع كتاباً بهذا الشكل ؛ بل أردت أن أشرح بسهولة حوادث ووقائع كثير منها مجهول الى الآن ، وكان لا بد لى من جمعها من المخطوطات المبعثرة ثم أعرضها للتحليل والنقد . وان القارئ الكريم سيتجاوز عن هفواتى لما لقيت فى هذا العمل من مشقة إذ ليس له أن ينتظر من المستشرق ، الذى كان عليه أن يستخلص مثل هذه المواد الجديدة من منابعها ، مؤلفاً تاماً شاملا كالذى ينتظره من المؤرخ الذى وجدها كاملة تحت يده »

فاذا كان ما تقدم هو اعتراف المؤلف بالتواضع ، عند نظاره الى مؤلفه الذى اعتمدت أنا على ما فيه من مادة فى اخراج كتابى هذا ، فلى الحق أن أطلب الى قرائى نظارة العطف والصفح . وقيمة هذا الكتاب تنحصر فى أنه وضع ليسد ثلمة فى لغتنا[1] ، ثلمة فى تاريخ عصر حوادثه شيقة لتمام ارتباطها بختام الحروب الصليبية ولاشتماله على تاريخ أسرة من السلاطين الأرقاء النشأة الفريدين فى تاريخ العالم

ولما كانت أسرة المماليك تسير فى خطوات صلاح الدين وخلفائه – اذ أنها نشأت فى الحقيقة من سلطنة الأيوبيين – كانت لها علاقة مباشرة بالأيام الأخيرة للحروب الصليبية ، ولبيان هذه العلاقة تجاسرت فوضعت تمهيداً لهذا التاريخ جزءاً من محاضرة تشتمل على سرد حوادث تاريخية للمشاحات الطويلة مشاحات « جنود

(١) هكذا يقول المؤلف عن لغته الانجليزية الغنية بمؤلفاتها فى كل علم وخاصة فى التاريخ فماذا عسانا نقول نحن وليس فى كتبنا التاريخية ما يملأ مثل هذا الفراغ أو يبحث فى عصر كالذى ترجمناه بحثاً مستفيضاً خاصاً ؟ اننا نأمل أن يقدر القراء الافاضل قيمة هذا السفر الذى نقلناه الى العربية خدمة للعلم .



الصليب » ونتيجتها الختامية . ولعل القارئ يجد هذا مفيداً فى الابتداء إذ أنه يفسر أصل ومنشأ القواد الذين كان عليهم أن يقضوا القضاء الأخير على المجهودات التى كانت فى النزع الأخير لجيوش المسيحية السيئة القيادة مع حسن استعدادها

وتجد فى دائرة المعارف البرطانية مقالا قيماً عن مصر وهو مقال جدير بالاعتبار وله قيمة خاصة من جهة ارتباطه بأواخر عهد أسرة المماليك ومصيرها . وكذلك نشر البعث الأثرى الفرنسى جملة نشرات شيقة جداً زينها بالصور عن العصر الذى نتكلم فيه وقد استعرت بعضاً منها . وهناك أيضاً بحث ممتع فى رسالة وضعها م . ماكس هرتز عن متحف القاهرة محلاة بالصور متعلقة بما احتوى من الآثار

وفى الختام لا يسعنى إلا أسداء شكرى الى صاحب السعادة يعقوب أرتين باشا على مانشره عن القاهرة وأسرة المماليك ، وعلى الصور الشمسية لبعض الأبنية القديمة التى أوردنا نماذج لها فى هذا الكتاب ، وأضاعف شكرى له على مذكراته البديعة فى عادات المماليك والتى تجدها فى الملحق الثانى فى ختام الجزء الثانى من هذا الكتاب

جامعة ادنبرغ عام ١٨٩٥ — و . م

# تمهيد

## ﴿ مختصر تاريخي للحروب الصليبية ﴾

( مقتبس من محاضرة ألقيت على طلبة جامعة ادنبرغ عام ١٨٩٤ م . )

تجد الفقرة التالية فى مقدمة كتاب نهوض وانحطاط وسقوط الخلافة :

قد يجوز لي أن آسف فى هذا المقام ، اذ لا يوجد كتاب جامع شامل ثقة فى لغتنا ، فى الحروب الصليبية وفى أسرة المماليك ، واسقاط العثمانيين لها . وهذه فصول ليست شيقة فى موضوعها فحسب ، بل شيقة أيضًا لارتباطها بشئون الكنائس الشرقية وبانماء العلائق السياسية بين أوروبا وآسيا ومصر

أني أريد أن أوجه نظرك الى هذا الموضوع مبينًا النقص الحالي فى أدبياتنا ، مشيراً الى المصادر التى يمكن الاعتماد عليها فيه ، حاثًا على البحث فى الموضوع : فى لغتنا تاريخ «جبون» لهذا العصر ؛ وهو مع انه جلى ومفيد ، ومعما فيه من محاسن كثيرة لا يزال يعد ننفًا غير تامة . وهو فى ذلك مثل سائر المؤلفات الانجليزية ؛ بل هو فى الحقيقة مثل معظم المؤلفات الأوربية قد كتب من وجهة نظر غربية . وخير كتاب متقن شامل فى هذا الموضوع هو كتاب ولكن الذى جاء فى ثمانية مجلدات . وليس فى وسع أى طالب أن يدعى العلم الكامل بهذا التاريخ من وجهة النظر الشرقية أو الغربية من غير أن يدرس هذا المؤلف دراسة تامة [1] . وأهم من هذا

(١) Geschichte der Kreuzzüge nach Morgenländischen und abendländischen Berichten, 1807—1832.

اني أمتدح قراءة هذه الاجزاء الثمانية مع أنها طويلة مملة ، وأحث على قراءتها كل انسان يبغى الحصول على المعلومات التامة فى هذا الموضوع .



من الوجهة الشرقية « تاريخ الخلفاء [1] » تأليف ويل الذى يعد الى هذا العصر ( الخلافة العباسية انحطت وامحت من الوجود تقريبًا ) تاريخًا حقيقيًا للأمبراطورية الشرقية : السلاجقة والمغول والمماليك . والجزء الأخير من مجلد ويل الثالث وأول المجلد الرابع ضروريان لمعرفة الحروب الصليبية المتتابعة وعلاقاتها بانتهاء أسرة السلاجقة وبظهور أسرة أرتك وسقوط الخلافة الفاطمية ونهوض أسرة المماليك

لم يتعمق كاتب من الكتاب تعمق ويل فى مؤلفاته الشرقية التى كثيراً ما تخالف ما كتبه مؤلفو الغرب فى هذا الموضوع ؛ أو بعبارة أخرى التى تناولت الحروب الصليبية المتتابعة بحثًا وتدقيقًا من وجهة آسيية ومصرية . ولهذا أوصى كل طالب يريد الاضطلاع من هذا الموضوع أن يتقن معرفة كل ما كتبه ولكن وويل فيه

واني أرى أن سرد كل الحوادث وشرحها فى محاضرة كمحاضرتنا التى كل الغرض منها توجيه النظر الى تاريخ الحروب الصليبية ونتائجها ، مما لا داعى اليه . وعلى هذا سأقتصر على ايراد لمحة تاريخية مختصرة ....

تتضح لنا أهمية دراسة الموضوع ( أولا ) عند ما نتذكر أن بيت المقدس كان فى قبضة ملك مسيحى نحو قرن من الزمان ، وأن سورية حكمها حكام مسيحيون نحو قرنين أى من عام ١٠٩٧ الى عام ١٢٩١ م . وذلك حينما سقطت عكاء وأخرج الصليبيون من البلاد و ( ثانيًا ) عند ما نتذكر أن الجماهير الكثيرة التى نزحت مدة قرنين من الزمان من ديارها الى فلسطين قد بلغ عددها جميعًا ما لا يقل عن بضعة ملايين . ويجب ألا ننسى التأثير العكسى ( رد الفعل ) الذى حدث لأوربا اذ له أهمية تاريخية عظيمة .

نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة فى حماية الحجاج الذاهبين الى البلاد

(١) Geschichte der Chalifen, von Dr. Gustav Weil.
السلسلة الاولى . ثلاثة أجزاء ، ١٢٤٦ ١٧٥١ من ظهور الاسلام الى آخر الخلافة العباسية والسلسلة الثانية تشمل أسرة المماليك الى غزو العثمانيين لهم — المجلدان الرابع والخامس ، ١٨٦٠ — ١٨٦٢ .

المقدسة وقد زاد عدد هؤلاء الحجاج زيادة ظاهرة خلال القرنين العاشر والحادى
عشر وذلك لسببين : انتظار ظهور المسيح على رأس الألف من التاريخ الميلادى ،
واعتناق البلغاريين للدين المسيحى وهو ما مكن الحجاج أن يسيروا آمنين فى بلادهم
فى ذهابهم الى القسطنطينية ، ثم الى سواحل فلسطين فيتقون بذلك مخاطر السفر
فى البحر . ونحن نعلم أن احدى هذه الحملات خرجت فى منتصف القرن الرابع
وعددها سبعة آلاف فلم يرجع منهم غير الربع ؛ وأن ما أتاه الحاكم ببيت المقدس
من المظالم ، وما جاء به السلاجقة الذين استولوا بعده على بيت المقدس عام ١٠٧٠ م .
قد جرح قلوب أهل العالم المسيحي وملأها حفيظة ؛ وكان بطرس الناسك بأخباره
المفصلة المروّعة ، يثير ما كمن فى صدور الناس جميعاً حتى خشاشهم من رغبته فى
الانتقام . وعمل البابا أوربان فى مجمعى بلاشنزا وكليرمنت على اهتياج عواطف ألوف
من رجال الدين وعامة الناس واثارة نخوتهم وحماسهم . وقد وعد هذا البابا بالخلاص
وتكفير الذنوب والمساعدة الربانية كلّ من اشترك فى هذا العمل ، وبشر شهداء
الصليب بأن لهم الجنة ؛ فكانت نتيجة هذه العوامل عظيمة جداً ؛ وكان نداؤهم
الحماسى « الله يريده » يرن صداه فى كل الأرجاء فهرع الناس رجالاً ونساء وأطفالاً
من كل حدب وصوب ليتسموا بسِمة الصليب باعتبارهم حجاجاً ؛ وقام الاستعداد
على قدم وساق لكل الفرق من مختلف البلدان ، على أن يكون موعدهم القسطنطينية
فى قابل .

١٠٩٥ م .

وخرجت فى الحال الطبقة الدنيا فى جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وغيره
من القواد ومدفوعين بالتعصب الشديد ؛ ولكن لم يلبثوا أن ظهروا عبيداً للشهوات
والميول الدنيئة . ساروا جماعات جماعات مخترقين هنكاريا (المجر) فجرّ عليهم سلوكهم
الشائن سخط أهل البلاد فثاروا عليهم وأبادوا العدد الأكبر منهم ؛ وهذا أمر لم يكن
منتظراً . كانت أولى الجماعات بقيادة ولتر ، والثانية بأمرة بطرس . ومالوا جميعاً كل
الميل للنهب والسلب ، ولم يصل الى القسطنطينية منهم غير النزر اليسير . ومن هناك

١٠٩٦ م .



عبروا الى بيتينيا واستولوا على نيقية ؛ وعند ذلك ظهر الحسد والمنافسة بين الأجناس
المختلفة منهم فمزقهم الأتراك شر ممزق وجعلوا من عظامهم هرماً . وهذا كان نتيجة
لازمة لسوء استعمال غيرتهم . وقد نجى القيصر عدة آلاف ؛ ولكن الفتيان والفتيات ،
الذين كانوا فاتحة محزنة ، أخذوا الى ( البلاط ) التركى . وبعد ذلك قام جيش
عدده خمسة عشر ألفاً ، وآخر عدده عشرون ألفاً ، وساروا فى طريق جرمانيا .
وهناك جردوا سيوفهم وأتوا من الفظائع مع اليهود ما لم يسمع به فاستاء الناس منهم
واقتفوا أثرهم الى المجر يذبحون ويقتلون ؛ غير أن بقية منهم هربت الى القسطنطينية
والباقون ، وهم عدد داع الى السخرية ، عادوا أدراجهم الى أوطانهم ؛ ولهذا قال جبون
« قد فقد هؤلاء الصليبيون ثلثمائة ألف قبل أن يخلصوا مدينة واحدة من يد
( الكفار ) ، وقبل أن يتم اخوانهم الصليبيون الذين هم أرزن وأنبل ، استعدادهم »

## ﴿ الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م . ﴾

كانت تلك المأساة سبباً فى استعجال قيام القوات الجديدة المنظمة وعددها
ستون ألفاً غير النساء والقساوسة وذيول المعسكرات . وكان قواد هذه الحملة امراء
عظاماً يحيط بهم اتباعهم وجماعات من الفرسان ، فأن « الحروب الصليبية فى ذلك
الوقت كانت نتيجة وسبباً لهذا النظام العجيب نظام الفروسية » . سار هؤلاء
جماعات ثلاثاً كما فعل التعسون الذين من قبلهم ، وفى نفس الطريق التى سلكوها ،
فوصلوا بعد لأى وتكبد خسائر عظيمة الى البسفور فقابلهم القيصر اِلكْسِيُوس
بعداء ؛ وقد وقع بين هذا الجيش وبين الأغريق كثير من المناوشات قبل أن
يعبروا الى آسيا الصغرى .

وكان طريق اليونان هو الطريق المعروف فى ذلك العهد الى آسيا الصغرى
حتى أن كل الحملات التى تتابعت عدة سنوات ، منظمة وغير منظمة ، كانت تسير فيه
متجهة نحو سورية ؛ ولكن اتخذ الصليبيون فيما بعد طريقاً سهلاً هو طريق البحر

فلا عجب أن نرى الآن ألكسيوس قد روع كثيراً من دوام مرور الجموع المسلحة
بلاده . والواقع أنه كثيراً ماطلب من الدول الأوربية العظيمة المساعدة على الترك

١٠٩٧ م

ولكن الحال المنغصة التى جاءت بها تلك الجموع التى يخطئها العد أدخلت على قلبه
الخوف ؛ هذا الى أن الحسد الذى جعل رجال البلاط البيزنطى يعوق تقدم الصليبيين
أثار حقدهم فأدى أخيراً الى ضياع المعقل الشرقى للدين

وحوالى ختام عام ١٠٩٧ م . نقص عدد القوة الفاتحة الغازية وهى فى طريقها
الى آسيا الصغرى بسبب القتال والفرار الى أن صار ثلثمائة ألف مقاتل فنزلت على
أنطاكية ثم استولت عليها عنوة بعد حصار دام تسعة أشهر . وكذلك استولت على

١٠٩٨ م

أذاسا وما حولها . وبعيد ذلك كانوا عرضة لخطر عظيم جداً من السلاجقة ولكنهم
تمكنوا من ردهم نهائياً . ثم قام بعد زمن قليل عشرون ألف جندى يتبعهم مثلهم من
الحجاج وساروا محاذين لساحل الأرض المقدسة من غير أن يلقوا مقاومة . وقد
وصلوا فى منتصف الصيف الى بيت المقدس الذى كان تحت يد الفاطميين فحاصروه
سبعة أسابيع ثم استولوا عليه عنوة فسالت الدماء أنهاراً داخل المدينة المقدسة ، ولجأ

١٥ يوليه
١٠٩٠ م

اليهود الى معبدهم فأحرق عليهم فماتوا وسط اللهب ، وفى خلال ثلاثة الأيام التالية
قتل سبعون ألف مسلم لم تراع فيهم حرمة للشيوخ أو النساء . وبعد أن أشبع جنود
الصليب شهواتهم الوحشية أوفوا بنذورهم وقبلوا الحجر الذى كان قد غطى المسيح
الذى قال « إن مملكتى ليست من هذا العالم وإلا لما قاتل أتباعى » . وقد كانت
الميزة العجيبة لهذه الحرب المقدسة ، الوحشية والقساوة اللتان سارتا جنباً لجنب مع
التقوى المشوبة بالتعصب . وسنرى بعد أن الحسد والخصام والخيانة والطمع والخلاعة
والدعارة كثيراً ما كانت تفشو كلها بين رجال الدين وغيرهم طوال هذه الحروب
الصليبية . وكانت بالفعل عاملا من العوامل الهامة التى قضت نهائياً على الدعوة
قبل الأوان .

وقد انتخب جودفرى وقتئذ ملكا ؛ وبهذا نرى أن أميراً مسيحياً ، مع أنه ضعيف



وفقير ، ولم يكن إلا واحداً من البارونات المستقلين الذين ملكوا المدن والمعاقل
فى الأرض ، جلس على عرش المدينة المقدسة مدة ٨٨ سنة حتى سقطت على أيدى
جيوش صلاح الدين .

وقد غزا الصليبيون فى بادئ الأمر الجزء الأكبر من سورية ولكنهم لم يفلحوا
مطلقاً فى الاستيلاء على دمشق ؛ وكان خلفاء بغداد إذ ذاك يعتمدون اعتماداً مزرياً
على السلاطين الشرقيين فلم يهتموا أبداً بالحرب الصليبية ؛ وكان السلاجقة مشغولين
بتنازعهم وتحاسدهم فلم يوجهوا جيشاً الى الأراضى المقدسة ، ولكن حكاماً من نسلهم
وأمراء من العرب النازلين فى الأرض المجاورة قاتلوا الصليبيين من حين الى آخر
قتالا عنيفاً كان النصر فيه سجالا . وفى وقت ما لاح أن تنكرد ، وبلدوين كانا
سيقضيان على كل ما أمامهما ؛ ولكنهما على عادتهما ، انقسم بعضهما على بعض . وقد
انقسم الصليبيون الى حلفين يناصر كلاهما جنود مسلمون قاتلوا قتالاً شديداً أصاب
شره الفريقين . وقد أصبح تنكرد . سيداً فى سورية حتى أن رضوان وغيره من أمراء

١١١٢ م

السلاجقة أرادوا أن يدفعوا اليه أموالا كثيرة إغراء له على مهادنتهم ؛ غير أن هذا
النجاح ما عتم أن أزعج أهل الشرق . ومع أن خليفة بغداد لم يعر استصراخهم
إياه أذناً مصغية . فان المسلمين جمعوا جيشاً عظيماً ووفقوا الى طرد الصليبيين الذين
كان يقودهم بلدوين بشجاعة ، وفر هو امامهم . ولكن هذا الجيش الظافر دب
الانقسام بين رجاله فانفصمت عرا اتحاده فاستطاع الصليبيون ، مع ما هم عليه من

١١١٨ م

الضعف ، وفقدانهم معاقل كثيرة ، أن يقاوموا . وحوالى هذا الوقت أيضاً قام بلدوين
الأول بغارة مظفرة على مصر وكان على وشك أن يستولى على القاهرة لولا أن
عاجله الموت .

وفى خلال هذه العشرين السنة الأولى من الحروب الصليبية كان يتدفق بانتظام
على الأرض المقدسة سيل من الفرسان وجنود الصليب . وكثيراً ما كانوا يفدون
جموعاً عديدة . ونخص بالذكر من بين هؤلاء ريموند الذى زحف بجيش عدده ثلثمائة

١١٠٣ م

ألف جندى وحاول أن يدور من شمال آسية الصغرى لمهاجمة بغداد ولكنه شتت تشتيتاً مروعاً فى أرمينيا حتى لم يفلت من جيشه إلا عدد قليل لجأ الى شواطئ البحر الأسود . وكذلك حق الفتك على جيشين عظيمين أحدهما بلغ عدده مائة ألف جندى فمزقا شر ممزق فى محاولتهم العبور من البسفور فالمرور من آسية الصغرى الى سورية ؛ ومن أخطأه الموت من هذين الجيشين ، ذكراناً أو أناثاً ، شيباً أو شباناً ، بيعوا بيع الرقيق . كذلكم كانت الغيرة الوحشية العمياء التى بها أجج البلاط البابوى النيران فى العالم المسيحى بدعوى أنها وعود سماوية .

والآن نأتى على ذكر عصر استفاد فيه أمراء الحدود من الخلاف الذى وقع فى بيت السلاجقة وبدءوا ينزلون أولى الهزائم الحاسمة والضربات التى انتهت بأبادة الصليبيين : فان هؤلاء الأمراء أثاروا من حولهم من السكان المسلمين فكانت نتيجة عملهم سيئة على الأفرنجة الذين هزموا مراراً وتكراراً . قامت قبيلة أرتك وعلى رأسها الغازى فهزموا روجرز حاكم انطاكية وقد ساعدهم السكان حتى المسيحيون فاستولوا على المدينة حيناما ، وبعد ذلك استعد الفريقان لمعركة «دانيت» الدموية. (١١١٩ م)
وفيها هزم المسلمون الصليبيين هزيمة منكرة فقتلوا منهم عدداً عظيماً من الفرسان والحاكم روجرز نفسه الذى تروى عنه فى اعترافه الأخير قبل وقوع القتال عبارة (١١٢٣ م) مؤثرة جداً . وفى مصيبة أخرى محزنة أسر جوسلين . أما الملك بلدوين فقد سيق مصفداً الى حران ولم ينل حريته إلا بمعاهدة لم يستطع الوفاء بشروطها . وفى خلال هذه المصائب كلها لم ينجح الصليبيون إلا فى الاستيلاء على صور ؛ (١١٢٤ م) وفيما عدا ذلك لم يستطيعوا الانتقام اللهم إلا بتخريب الأرض بقسوة

وفى ذلك الوقت ظهر على المسرح عدو الصليبيين المخيف زنكى : كان زنكى أتابكاً أى خازناً عاماً فى بلاط السلاجقة. وكان أيضاً مشغولاً كثيراً بشئون الخلافة العباسية فى بغداد ؛ فلما ارتقى رئيساً فى الموصل اشترك فى غزاة على سورية فهزم (١١٢٦ - ١١٢٨) الافرنجة أينما نازلوه واستولى على كثير من معاقلهم ؛ وبينما هو متابع انتصاراته استدعى



الى بغداد فبقى فيها بضع سنين غارقاً فى مشاغل الخلافة المتداعية للسقوط. ولما استولى (١١٣٤ — ١١٣٥) السلاجقة نهائياً على المدينة فرّ هارباً مع الخليفة الى الموصل . وكانت أواسط آسية فى ذلك الحين مسرح اضطرابات وثورات بين الغزنويين والغورانيين والأغوز والخوارزميين وغيرهم من قبائل التركمان الذين قضوا على أسرة السلاجقة ؛ فلما نفض (١١٣٦) زنكى عن نفسه غبار السيادة بسم الحظ له وأصبح حاكماً على الأراضى الواقعة غربى الفرات؛ وعند ذلك نزل على سورية كأنهُ الريح القاصف واجتاح الأقاليم المسيحية وأعمل السيف فى الجيوش الصليبية فأخرجها مدحورة بعد أن قُتل منها عدد عظيم وأُسر الكثيرون من فرسانها؛ وقد اقتفى أثر الملك **فولكو** حتى قبض عليه ، ثم عفا عنهُ الفاتح

وحوالى ذلك الوقت كان القيصر قد تملكتهُ الغيرة من الصليبيين لادعائهم مُلك ولاية انطاكية ، وأراد هو أن ينال لقب الحاكم عليها ، ذلك اللقب الذى اعتُرف (١١٣٧) لهُ به عند أول فتحها ، فزحف بجنوده فى آسية الصغرى وحاصر انطاكية . ثم انهُ اتحد هو وريموند ووجها جيشهما البالغ عددهما مائتى ألف لمهاجمة حلب . فهال ذلك زنكى ، وقام يستصرخ الممالك التى حوله عليهما ، فجاءه المدد من جهات مختلفة ، من ذلك عشرون ألفاً من الجياد من بغداد ، وهى كل المساعدة التى أمدت (١١٣٨) بها الخلافة العباسية المسلمين مدة الحروب الصليبية . فلما أنس زنكى من نفسه القوة هاجم العدوين المتحدين فدحرهما وردهما يتعثران فى أذيال الخيبة الى انطاكية . ثم انهُ سيرجنوده على دمشق ولكن حاكمها ، بمساعدة الفرنجة له ، ( وهذا غريب ) استطاع المقاومة . وبعد أن انتصر زنكى عدة انتصارات فى كل البلدان المجاورة استولى عنوة على أذاسا التى كان قد تركها جوسلين عزلاء فنهب جنوده ما فيها (١١٤٣ — ١١٤٤) وخربوا ما شاءوا ، غير أن زنكى عطف على سكانها المسيحيين **وأسقفهم** . وبعد ذلك بقليل قتل زنكياً مماليكهُ ، ففرح بذلك الصليبيون أيما فرح ؛ ولكنهُ كان فرحاً قصير الأمد ، ذلك ان جوسلين أسرع فى العودة بفرسانه واسترد المدينة بمساعدة

الأغريق الذين نسوا بسرعة عدل زنكى وعفوه . ولكن ظهر لهم من هو أعظم من زنكى ، ذلك هو ابنه نور الدين اذ جاءهم من الأمام وهاجمهم فى حين أن حامية حصن المدينة أوقعت بهم من الخلف ، ودارت رحا حرب استمرت طول الليل ، وذاق الصليبيون فيها النكال وكادوا يفنون على بكرة ابيهم ، الا چوسلين و بعض الفرسان الذين أفسحوا لأنفسهم طريقاً بين الأعداء هار بين الى ساموساتا . أما سكان اذاسا المسيحيون فقد كان نحس الطالع ينتظرهم ، لأن نور الدين ساءه منهم نكرهم للجميل فلم يرحمهم بل قتل منهم على ما يقال ثلاثين ألفاً ، وباع خمسة عشر ألفاً بيع الرقيق

١١٤٤

## « الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧م »

هبت أور با بأجمعها عند سماعها بتلك الكوارث المروعة وأهاب ألبابا ثانية بالناس للجهاد فى سبيل الصليب ؛ وقام برنارد كما قام بطرس الناسك من قبل وجعل أور با تثور من جديد بالدعوة . وما هذا فى الواقع إلا تكرار لما حدث من خمسين عاماً خلت . قاد لويس وكنراد الجيوش المتكاثفة ، التى تجمعت ، وساروا بقضهم وقضيضهم فى موكب فاخر ومعهم عقيلات النساء فارتكبوا الفظائع مع اليهود فى جرمانيا كما ارتكبها معهم من سبقوا . ولما وصلوا الى أسية الصغرى كبدهم الأتراك خسائر عظيمة من جراء خيانة القيصر لهم ، ولم يكد يصل الى الأرض المقدسة إلا نحو عشرهم . ومع هذا كان الفرنجة لا يزالون يتقوون بما يأتيهم من المدد حتى حاولوا الاستيلاء على دمشق [١] عنوة . ولكن بارونات المشرق قد رشاهم

---

(١) كان صلاح الدين حاضراً هذه المعركة مع أبيه . وانه لمن العجب أن نسمع أن حماس الناس قد تحرك واشتد برفع مصحف عثمان ذلك المصحف الذى فقد أخيراً فى حريق الجامع الاعظم ...
...... لست أرى وجهاً يدعو المؤلف الى العجب من هذا والحرب دينية ، وتأثير الدين لا ينكره أحد فى هذه الظروف . على أنه يذكر فى حوادث عام ١١٧٦ فى الحروب الصليبية الثالثة شيئاً مثل هذا فعله الصليبيون ولم يدهش له . وعلى كل حال فالمقام لا يستدعى هذا التعليق (المعرب)



( نذكر هذا بأسف ) الحاكم فلم يعملوا مع اخوانهم باخلاص وأمانة فتراجعت القوة خاسرة والقادمون الجدد من الصليبيين سئموا خيانة ودعارة من حولهم فحنوا الى العودة ثانية الى أوطانهم حنين الآسف المتألم . واذا استثنينا نجاحهم فى الاستيلاء على عسقلان كانت هذه الحملة إحدى الحملات التعسة . هوجم بيت المقدس مرتين ، والأراضى التى حولهُ اجتاحها نور الدين ولم يبق غير بعض المعاقل القليلة فى الشمال أو الجنوب للصليبيين الذين جرت عليهم منافساتهم بعضهم لبعض ، وكذلك حياتُهم الرخيصة ، الهزيمة التى حالفتهم ، وقد أساءوا بما صنعوا الى سمعة المسيحية . وفى إحدى المعارك ذُبح ريموند صاحب انطاكية هو وكل أتباعه وسُحب چوسلين الثانى فى السلاسل أسيراً وبقى حتى أدركه الموت

١١٤٩ — ١١٥٢

وبعد أن استولى نور الدين على دمشق تزايدت قوته يوماً بعد يوم ، وفى هذا الوقت عقد مهادنة مع الملك بلدوين فلم يرع هذا حرمتها ، وانقض على معسكر اسلامى لم يكن يتوقع هذه الخيانة ؛ غير أن الفرنجة ما لبثوا أن دفعوا ثمن هذه الخيانة غالياً ، ونجا الملك بحياته بكل صعوبة من يدى نور الدين ، ولكن قبض على كتيبة من فرسانه فشهر بهم فى شوارع دمشق ، ثم قتلوا انتقاماً . ولما كان النجاح قريباً من الصليبيين كما حصل فى محاصرتهم لقيسارية ( الشمالية ) ، أضاع عليهم فرصة نيله حسد البارونات بعضهم لبعض .

١١٥٦

## « الحرب الصليبية الثالثة ١١٥٨ م »

ولكن الروح الصليبية التى انحطت أيقظها من رقادها دَيتْريتْش الفلمنكى بمدد جديد . . وساعد على ذلك مرض نور الدين نفسه الذى كاد يؤسر فى إحدى المعارك غير أن الحظ عاوده لأن رينولد ، فى احدى غزواته فى أرمينية ، وقع فى يد الأعداء وسيق مكبلاً الى حلب . ثم تلا ذلك سكون استمر سنة أو سنتين . وقد استفاد نور الدين من هذه الفترة بتقوية مملكته التى كانت تتزايد بسرعة وتماسك أجزاؤها .

١١٦٩ في هذا الوقت تظهر مصر على المسرح لارتباط نتيجة هذه الحرب الصليبية بها : ففي شيخوخة الدولة الفاطمية تطلع اليها كل من نور الدين والملك أملريك ، فما كان من وزير الخليفة الا أن استعان بأحدهما على الآخر ، فغزا كل منهما الديار المصرية الواحد بعد الآخر . وفى نهاية الأمر أمضيت معاهدة ودية مع الاثنين ، ولكن أملريك كان أول من نقض ميثاقه الذى عاهد المصريين عليه وأطلق يد النهب والتخريب فى المملكة وانتزع من البلاط الهدايا انتزاعاً ، فاستغاث الخليفة التعس بنور الدين وأرسل اليه خصلة من شعر زوجه إشارة الى حرج موقفه . ففرح نور الدين وأرسل قائده شيركوه للنجدة فتسلل أمامه أملريك مخذولاً ؛ وبذا أصبح شيركوه ١١٧٠ صاحب الكلمة . وبعد ذلك بقليل خلفه فى مركزه ابن أخيه صلاح الدين . وفى قابل مات الخليفة فانتهت بموته الدولة الفاطمية[1] وأصبح صلاح الدين حاكم مصر ، وهو من دم كردى . ومع أنه كان فى بادئ أمره جندياً صغيراً ، لم يلبث أن أظهر نفسه ونبه فى مدافعة الفرنجة عن دمياط بمقدرة فائقة ؛ ثم سرعان ما ظهر بمظهر الحاكم القدير فى السياسة والحرب؛ فحسد نورُ الدين نائبه على ظهوره بمظهر المستقل فى مصر، ودعاه الى الخضوع مراراً فتحرج مركز صلاح الدين باطراد ؛ إلا أنه لحسن ١١٧٤ الحظ نجا من الخطر إذ مات فى تلك الآونة نور الدين ذلك الأمير العظيم المخلص الصادق وبذلك بقي صلاح الدين سالماً آمناً فى مصر حيث امتاز حكمه بفتح المدارس وإقامة المستوصفات وغيرها من الاصلاحات

١١٧٦ بسم الحظ لصلاح الدين بوقوع الشقاق بين أفراد أسرة نور الدين فاستطاع أن يمد نفوذه فى سورية ، وما زال يزيد فيه حتى بلغ أرض الجزيرة ( ميزوبتاميا ) والموصل . وقد استدعى الى سورية لقيام الفرنجة بغزوها من جديد إذ كانوا قد وصلوا اليها جماعات من طريق البر والبحر واستطاعوا فى بادئ الأمر أن يتغلبوا على كل ما أمامهم بفضل سر ( بقية من الصليب المقدس ) كانوا يحملونها معهم ؛

(١) بعد أن عمرت ٢٧٢ سنة



ولكنهم ، كما هى عادتهم ، أضاعوا مجهوداتهم فى المشاحنات ، وفى القيام بغزوات لا فائدة فيها . ولما هوجموا لدى بانياس هزموا هزيمة منكرة . وقتل هنفروى وعدد ١١٨٠ كبير من الفرسان ، وقد دمرت عليهم القلعة التى بنوها على الأردن ليهددوا بها دمشق . وفى إحدى المواطن نجا الملك بحياته بصعوبة بالغة. وهوى الفرنجة بسرعة. وأصبحوا لا حول لهم ولا طول. وكان أوصياء العرش فى ذلك الوقت ( كما يقول جبون) على التتابع ما بين معتوه وطفل وامرأة وجبان وخائن. أما البارونات والفرسان مهما كانت طبقتهم فلم يكن همهم غير التنازع على السيادة ؛ والواقع أنهُ قضى عليهم الشره والغيرة والخصام والمبالغة فى الترف – وهؤلاء الحماة الدنسون هم حماة الأرض المقدسة ! أما البولانيون أيضاً ( وهم ذرارى النصارى من أمهات وطنيات شرقيات) فانهم كانوا قد شبوا حينذاك ونشأوا خاملى الذكر متمردين فزادوا فى خطر الفرنجة والعجب ان المملكة ظلت متماسكة طول هذه المدة مع أن هذا لم يكن فى الواقع ليحدث لو لم يستمر توافد عدد من الفرسان والحجاج على تلك البلاد من عام لآخر ليدفعوا عنها . ومع ذلك نرى الحالة تصل إلى خاتمة محزنة

١١٨٢ ولما قنع صلاح الدين بانتصاراته تهادن ورجع إلى مصر؛ ولكنهُ لم يكد يستقر بها حتى استدعى الى الحجاز للانتقام من رينولد لاغارته على ضواحى الأرض المقدسة ، بعد أن جهز أسطولاً فى أيلة ، وخرب سواحل مكة والمدينة ، فذهبت إليه قوة ١١٨٣ دحرته ، فرد على أعقابه بخسائر عظيمة ، ووقع فى الأسر عدد كبير من أتباعه ذبح بعضهم أمام محراب منى . وغضب صلاح الدين لامتهان دينه فانتقم بالأغارة على ١١٨٦ الولايات الصليبية . ثم لما وجد نفسهُ آمناً فى كل الشرق جمع الجموع من كل البلدان وهمَّ بالقضاء على حكم الصليبيين القضاء الأخير . وكان غضبه عظيماً جداً على رينولد بصفة خاصة ، لا لمهاجمته بلاد العرب فحسب بل لتكرر قبضه على قوافل المسلمين الذاهبة الى مكة لأداء فريضة الحج ، مخالفاً نصيحة ريموند الذى تصالح أخيراً مع صلاح الدين . وقد سار الملك ويت الى طبرية حيث كان صلاح الدين نازلاً بعد

١١٨٧ استيلائه عليها ، وحيث كان يغزو ما حولها ؛ فتراءت الجيوش لدى حطّين حيث
هزم الصليبيون هزيمة منكرة من جرّاء الدخان والحرارة الشديدة المتصاعدة من
الحشائش التى أحرقها المسلمون فعميت أبصارهم عن مشاهدة المسلمين . وقبض على
الملك وعلى عظيم الهيكليين ، وكل من بقى صاروا أُسارى . وقام صلاح الدين نفسه
بذبح رينولد براً بقسمه الذى أقسم به ؛ وبيع الأسرى بيع الرقيق . أما فرسان
الطائفتين فقد قطعوا إرباً إرباً على مشهد من صلاح الدين ، إنتقاماً منهم على
إغارتهم على البلاد المقدسة ومهاجمتهم حجاج المسلمين . وأُخذ الملك وحده باحترام
إلى دمشق ، واطلق سراحه بعد أن وعد بتسليم عسقلان

استولى صلاح الدين وقتئذ على الأرض ، واسترد معظم المعاقل التى كانت باقية
فى حوزة الصليبيين ، ولم يرد أن يحاصر المدينة المقدسة ؛ وقبل أن ينزل عن شئ
إذا سلمت اليه من غير حرب . فرفض طلبه ، فأحاط ببيت المقدس فى آخر الأمر ؛
١٢ اكتوبر ١١٨٧ وبعد حصار دام ثمانية أيام ضعفت عن المقاومة ، وسلمت المفاتيح إلى صلاح الدين
وعند ذلك صاح السكان التعسون (١) صياح الألم والضجر وولول النساء اللابسات
الخيش فان الأمكنة المقدسة قد دنست ، وحولت الكنائس الى مساجد ، وكسرت
الصلبان . وحطمت النواقيس ؛ غير أنه سمح للناس بالهجرة نظير دفع فدية قليلة .
وقد امتدح بحق سلوك صلاح الدين وسلوك أخيه العادل فى تلك الآونة لرأفتهما
ورعايتهما لفقراء المسيحيين ولأعداد معدات الرحيل لهم

١١٨٨ وقد عرف صلاح الدين كيف يستفيد من انتصاره ذلك . فلم يترك شيئاً هاماً
من سورية فى يد الصليبيين سوى أنطاكية وصور وطرابلس . وقد حوصر بوهُمند
فى أنطاكية ؛ ولكنه عند ما أطلق سراح كل الأسارى المسلمين الذين كانوا تحت
يده ، ووعد أن يتراجع إذا لم يأته المدد فى الحال ، منحه صلاح الدين مهادنة لمدة
سبعة أشهر . على أن حملة صليبية أخرى كانت قريبة لأن ضياع بيت المقدس ،

(١) هم السكان المسيحيون



وانتهاك حرمته بعد أن بقى عاصمة مسيحية نحو قرن ، وذبح الفرسان ، وضياع سورية
كل هذا وقع كالصاعقة على أوربا . فقام البابا يصدر نشراته ودعوته من جديد ،
مبشراً بمساعدة الله ونصره ( متناسياً فى ذلك الماضى ) ، وفرض على الناس أحمالاً
ثقالاً منها ( عُشر صلاح الدين ) الذى لا تزال بقاياه دخلاً مقبولاً إلى خزانة روما.
وكان لدعوة البابا صدى فى كل أنحاء أوربا ؛ ومع أن روح التذمر كانت بادية فى
أول الأمر ، ولا سيما لعدم اخلاص البولانيين ، فان الجماهير تجمعت أخيراً وخرجت
كمن سبقهم للحرب الصليبية

## ﴿ الحرب الصليبية الرابعة ١١٨٩ م ﴾

خرج الناس لهذه الحرب ورائدهم القسوة والتخريب . ومعظم هذه الحملة سلك
طريق البحر ، والباقون طريق البر ؛ فاقتتلوا مع الاغريق كما اقتتل الذين من قبلهم
من مائة عام خلت ، وقاسوا الأخطار والحرمان مثل ما قاسوا ، ولم يصل منهم الى
الأرض المقدسة إلا قليل كان مدداً للفرنجة ، ثم هاجموا جميعاً عكاء ، فأوقع بهم
صلاح الدين خسارة كبيرة ولكن لما رأى كثرة عددهم تخاذل عنهم وانسحب من
الميدان متقهقراً . أما الفرنجة فحاصروا المدينـة بحماسة وتحمل الجنود بشجاعة ألم
الجوع والمشقة وهم محتفظون بمراكزهم حول المدينة. ولكن رجع الفرنجة الى ما اعتادوه
من خلاف ؛ مثال ذلك أن قلب الأسد والملك ويت اصطفا مع جنودهما حاملين
أسلحتهم فى وجه كنراد وفيلب ملك فرنسا . وحدثت نفس تلك القصة المخزية فى
جميع الجيش الذى هو خليط من متعصبين وآثمين وأتقياء ومن أهل الرذيلة
والشعب . وبعد سنتين اضطرت الحاجةُ الحامية الاسلامية إلى أن تسلم بشروط ١١٩١
ملائمة ، احترمها صلاح الدين وعمل بموجبها فأطلق سراح الأسارى المسيحيين ؛ فى
حين أن رتشارد القاسى عرض الحامية كلها ، وعددها ثلاثة أو أربعة آلاف ، على
الموت الا من استطاع منهم أن يدفع فداء كبيراً . وبعد حروب جديدة انتقم فيها

صلاح الدين من كل صليبى وقع فى قبضة يده ، وبعد ضياع عسقلان (التى استولى عليها صلاح الدين ومحا أثرها من الوجود على كره منه لدرء الخطر عن مصر) ، تم الاتفاق بين المتحاربين على مهادنة تدوم ثلاث سنين ؛ ولكن بعد ذلك بقليل مات صلاح الدين . وإنه لذلكم الأمير النبيل . . . والحق أن حياته الفاضلة لا توازن بحياة نور الدين لأنه كان وديعاً ، عظيم الاحتمال والصفح ، وإن كانت تحرك نفسه الآمال الكبار والروحُ الاسلامية « العاتية »

١١٩٣

١١٩٣ — ١١٩٦

كانت هذه المهادنة من حسن حظ المسلمين الذين خضد من شوكتهم كثيراً موتُ صلاح الدين ، والنزاعُ الذى مزق شمل أسرته الكبيرة ، كما هى العادة ، الى أن فاز أخوه العادل فى آخر الأمر بالسيادة . أما الصليبيون فلم يستفيدوا مطلقاً من مثل هذه الفرصة ؛ ويمكننا أن نقول إن الحرب الصليبية منذ هذا العهد كانت معلومة العاقبة ؛ فأرض الصليبيين أقفرت ولم يكن ثباتهم إلا بما فى أيديهم من المعاقل القليلة وبمساعدة شراذم صليبية كانت تهاجر إليهم على الدوام

## ﴿ الحرب الصليبية الخامسة ١١٩٧ م ﴾

وأما الحملة الخامسة المكونة من جموع جرمانيـة بقيادة هنرى السادس فقابلها الأيطاليون والفرنسيون والانجليز بفتور . وقد شل مجهوداتهم الخلاف والحقد الردىء ، ولم يربحوا شيئاً غير الاستيلاء على بيروت (١) . وكان كل من يأتى اليهم من الصليبيين لا يجد مشجعاً فيعود أدراجه مسرعاً إلى أوربا . وفى أثناء ذلك كان العادل يمد نفوذه الذى لا ينازعه فيه أحد فيما بين جورجيا وعدن ، فكانت مجهودات الفرنجة الضئيلة المنقسمة المتقطعة غير منتجة معه

---

(١) بقيت سفينتان منتظرتين مدة طويلة خارج الميناء لمساعدة سفن الصليبيين ونقل ركابها الى بيروت حيث بلغ عددهم نحو أربعة عشر ألفاً وقعوا فى الأسر عند الاستيلاء على المدينة ويقدره بعضهم بأكثر من هذا



## ﴿ الحرب الصليبية السادسة ١٢٠٠ م ﴾

تحولت الحملة الصليبية السادسة ، وهى قوة كبيرة ، عن الأرض المقدسة ، عند وصولها إلى البندقية ، وذلك للعداوة الكامنة للكنيسة الاغريقية . فحوصرت القسطنطينية وأخذت بالذبح والمصائب وبقيت تحت نفوذ الكنيسة الرومانية نحو نصف قرن حتى رجعت إلى الاغريق . وهذه الحرب الصليبية ، من أولها إلى آخرها ، مع معاضدة البلاط البابوى لها ، كانت شراً إذ أدت إلى انهيار ركن الجامعة الشرقية المسيحية نهائياً . ونقرأ حوالى ذلك الوقت أيضاً عن حج الأطفال الذى أنزل المصائب بأرواح وطهارة ألوف من البنات والأولاد . وقد قبض على نحو ثلاثين ألفاً من هؤلاء ، وهم فى طريقهم البحرى الى مصر ، وبيعوا ؛ وهذا بيان محزن للتعصب الشنيع ، الذى نرى فيـه الروح الصليبية شملت كل أوربا ، وبيان لنتائجه المحزنة .

١٢١٢ م

## ﴿ الحرب الصليبية السابعة ١٢١٧ ﴾

ولم ينقض وقت قصير حتى حدثت إغارة جديدة على سورية إذ خرج جيش عظيم على رأسه أربعة ملوك اجتمعوا فى عكاء ، وبعد أن خربوا الأرض المقدسة تقدموا نحو مصر وحاصروا دمياط ؛ وفى شهور قلائل اقتحموا الحواجز ودخلوا المدينة فلما بلغ البابا نجاحهم ، أرسل الكردينال بيلاغيوس نائباً عنه ، فأخذ إدارة الأعمال فى يده ؛ وبعد القتال الشديد ، واهراق الدماء مدة سنتين ، سقطت المدينة نهائياً فالقلعة فى أيديهم . وعند ذلك مجد البابا اسم بيلاغيوس فى كل أوربا كأنه يوشع الثانى . تصرمت سنة أخرى فضاعت على الصليبيين فرصة أكثر من هذا بسبب ما شجر بينهم من النزاع والحسد اللذين كانا من عادتهم ؛ وقد صرف بيلاغيوس وقتاً كبيراً اقتصده من صيامه وصلاته فى الخلاف الشديد الذى كان بينه وبين القواد الآخرين . ولما استولى الخوف والوجل على سلطان مصر عرض عليهم مراراً أن

١٢١٨ م

١٢٢٠ م

يسلمهم بيت المقدس إذا هم جلَوْا عن بلاده، فرفض الكردينال هذا مخالفاً نصيحة الملك چون ؛ فتخلى الملك عنه مغضباً ومعه ألوف كثيرة . أما بيلاغيوس فقد زحف أخيراً من دمياط الى القاهرة ؛ ولكن المصريين هاجموا جنوده من الأمام والخلف فقطعوا عليهم خطى التقدم والتقهقر ، ومع أن حالهم ساءت جد السُّوء فأنه لم يُقض عليهم تماماً إذ رأف بهم سلطان مصر ، وسمح لهم بالعودة آمنين إلى سورية دون أن يضايقهم أحد . وهكذا انتهى مشروع البلاط البابوى العظيم . وضاعت كل فرصة للنجاح بطمع بيلاغيوس وحماقته ؛ فى حين أن تسامح السلطان الذى منح هدنة ثمانية أعوام قوبل بالمدح والثناء من الناس جميعاً

١٢٢١

١٢٢٢ و بعد موت العادل كمداً على ضياع دمياط دب بين ابنائه دبيب الشجار والخلاف

١٢٢٧ ولكن لم يستفد الصليبيون من هذه الفرصة حتى تغلب الكامل فى آخر الأمر وأصبح صاحب السيادة العليا . وقد نشأت العلائق الحسنة بينه و بين فردريك الثانى الذى قام بحملته الصليبية فى ذلك الوقت واعيد إليه بيت المقدس وما حوله على شريطة منح المسلمين الحرية والمساواة فى الحقوق ، وأن تبقى المدينة غير محصنة . ثم توج فردريك ملكا للمدينة المقدسة وتمتع بهذا اللقب خمسة عشر عاماً حتى جاء المغول واكتسحوا كل شئ أمامهم . ولما كان فردريك غير حائز لرضاء البابا صارت الأمكنة المقدسة حيناً ما موضع اللعنة البابوية . فكانت نتيجة هذا أن قابل الفرسان فردريك مقابلة سيئة ؛ ويقال إنهم ائتمروا بقتله . أما الرؤساء انطاكية وطرابلس و بيروت فلاستقلال بعضهم عن بعض ، لم يفكروا إلا قليلاً فى العمل معاً . وقد كانت مشاحناتهم التعسة وحياتهم المستهترة سبباً فى أضعاف قوة الصليبيين فلم يحاولوا أكثر من القيام بشن الغارات والنهب . وفى هذا كانت تنالهم الخسارة غالباً [1] . وفى أثناء ذلك كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة على قدم وساق فى

١٢٢٩

(١) فى صد غارة مغولية على بيت المقدس قطع البولانيون ألفى مسلم ارباً ارباً بدون رحمة . وكان هؤلاء يخافهم سكان سورية أكثر من خيفتهم الجيوش المغولية



أوربا . غير أن البابا وجه هذه الجيوش الجديدة ، فى العشر أو الخمس عشرة سنة التالية ، إلى محاربة طوائف الألبيجنسز [1] ووثنيى الشمال ، وإلى غير ذلك من الأغراض التى ارتآها

١٢٣٩ وحوالى ذلك الوقت انحاز الفرنجة إلى جانب إسماعيل الذى خرج على ابن أخيه السلطان أيوب وهو انحياز كرهه حتى أتباع اسماعيل الذين أدى فرارهم من ميدان عسقلان إلى سقوط المسيحية الشائن . ومع كل هذا فقد صالحهم السلطان ولكن الفرسان المحبين للحرب استمروا فى غاراتهم العدائية على الكرك وفى النزاع فيما بينهم . وإنا ليدركنا الخجل عند ما نقرأ أنهم قتلوا الفى أسير فى عكاء . وأسوأ من من هذا أن جئ بطائفة من الأسرى بعد أن أعطوا عهداً بان يتنصروا ، فقتلوا أيضاً . ثم اقتربت بعد هذا ساعة خطيرة جداً إذ ثارت الجيوش الخوارزمية التى وصلت فى ذلك الوقت الى سورية وانقضت عليها كالسيل الجارف وخربت بيت المقدس بوحشية مروعة ، وقتلوا سبعة آلاف مسيحى ، وسَبَوْا الفتيات . هؤلاء البرابرة تحالفوا مع سلطان مصر فجعلهم تحت آمرة بيبرس قائده المملوك ، فانقض بهم على جيش متحد من الفرنجة والمسلمين ودحرهم قريباً من جوبا ( يافا ) حيث لقى المسيحيون ، بعد أن تركهم ثانياً رفاقهم المسلمون ، هزيمة منكرة

١٢٤٠

١٢٤٣

١٢٤٧ والآن نصل إلى ما نسميه الحملة الصليبية الأخيرة على الأرض المقدسة ، أى أول حملة للويس . سار لويس إلى مصر وهاجم دمياط ، ونجح فى ذلك كما نجح أولاً ، ولكنه لقى نفس الخاتمة المحزنة التى لقيها بيلاغيوس منذ ثلاثين عاماً . هُزِم الجيش فى تقدمه نحو القاهرة ودمر الأسطول ، وأُسر لويس . غير أن توران شاه عامله معاملة حسنة . فكان جزاءه على هذه المعاملة أن ذبحه بيبرس ؛ وبذبحه آلت السلطنة اليه ، فكان أول أسرة المماليك . رجع لويس فى حالة سيئة هو و باروناته إلى سورية ، ثم رجع إلى وطنه فرنسا بعد أن لاقى من المصائب ما لاقى . و بعد

(١) هى طوائف مسيحية اجتمعت فى مدينة ألبى فى جنوبى فرنسا على أن تعبد الله على طريقة اعتقدت صحتها وتخالف فى كثير من أحوالها طريقة كنيسة روما

١٢٧٠

ذلك بزمن طويل أخذ لويس يعد العدة لحرب صليبية ثانية . وبما أنه قصد بها تونس فلا نجد ما يجدر ذكره بجانبها أكثر من القول بأنه وقع فيها ، كما وقع فى غيرها الخلاف . ولذلك كانت نتيجتها سيئة

١٢٦٣ م وما يليها

وباقى موضوعنا قصة اندحار محزنة عجّل بها الخلاف القتال والحرب الداخلية بين فرسان الهيكليين والهوسبتاليين (١) . وقد قال بيبرس « إنهم أعداء لأنفسهم، ونزاعهم وحمقهم هما سبب فشلهم » .

١٢٦٢ — ٦٩

دمر بيبرس فى غزواته الأربع الشهيرة معاقلهم الهامة الباقية عدا طرابلس وعكاء وأرسل النساء والأطفال من كل الاصقاع عبيداً الى صور . ووقعت فى انطاكية قصة محزنة عند سقوطها ، فان جميع الصليبيين من جنود وقسيسين ورهبان وسكان قتلوا أو أخذوا سبياً

وفى عام ١٢٨٩ م . دمرت طرابلس فى مذبحة هائلة ، وسيق الوف من النساء والأطفال سبياً . ومع هذا فالفرسان والبارونات تلقوا هجات على أمكنتهم الباقية على الساحل بشن غارات كثيرة وبخرق حرمة الهدنة حتى لم يبق فى أيديهم فى آخر الأمر غير عكاء وحدها فكانت المركز الذى احتمى فيه كل الصليبيين؛ ثم حوصرت عندئذ . ولقد كانت هذه المدينة فى العظم كما وصفها وِلكن وصفاً كاشفاً، مدينة كبيرة ، فخمة ، مترفة ، هرع اليها الفرنجة من كل صوب وحدب ، إذ كانت آخر مأوى لهم . ومع أنهم كلهم صليبيون ، لم يزالوا ، كما يحدثنا المؤرخ ، فريسة للانقسام والتحاسد ، والشره والخلاعة ، حتى فى النزع الأخير . ولما كان زعيم الهيكليين يحرص على انقاذ هذه المدينة العظيمة ذهب إلى السلطان وحصل منه على شروط مسالمة، ولكن صنيعه لم يرق القواد، فخلعوه وعدُّوه خائناً وردوه الى قصر السلطان ثم قاموا يصدون هجمة عليهم ، على أنهم خسروا فيها ألفى نفس . وقد صممت هذه الفئة الصليبية ، بعد أن تسرب إليها اليأس ، على أن تستميت فى الدفاع ، وكان ذلك منظراً مؤثراً عند اعترافهم الأخير . ومن العجيب أن المدينة سقطت في نفس اليوم الذى استولى عليها المسلمون فيه منذ مائه من السنين بل وفى الساعة نفسها

١٢٩١

(١) ولكن ص ٧٩٣ الجزء الثامن



وقد هرب قليل ممن كانوا بها فى السفن والتجأ الف منهم مؤقتاً الى مكان حصين ولكنهم لقوا أخيراً حتفهم جميعاً إلا واحداً – قصة محزنة

وهكذا انتهت هذه الحروب الصليبية العظيمة « وقد أمر السلطان بهدم كنائس وحصون المدن اللاتينية » وكان الحجاج المتدينون العزّل لا يزالون يلتجئون إلى الضريح المقدس إما بسبب الجشع أو الخوف . ( وختم جبون هذه القصة المحزنة بقوله ) : ساد سكون محزن غريب مظلم على طول ذلك الشاطئ الذى ظل زماناً طويلاً تتردد فيه أصداء النزاع العالمى « الحروب الصليبية »

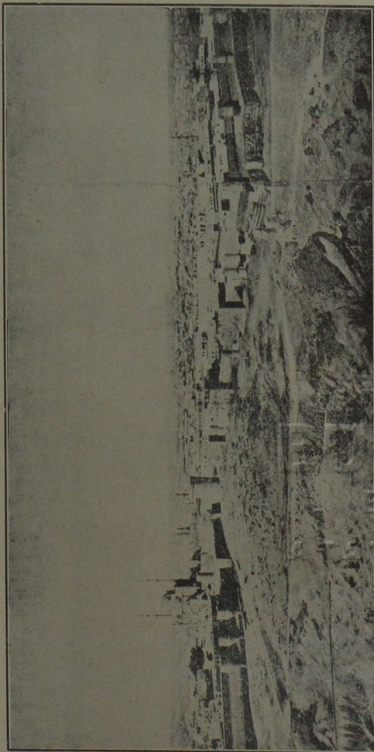
ما تقدم هو ملخص مختصر للحروب الصليبية . وقد كانت الفرصة مؤاتية لى مراراً أن اذكر الحسد والشقاق اللذين أديا إلى النكبة والهزيمة ، ولكن هناك سبباً أعظم من الحسد والشقاق وأبعد منهما أثراً فى جعل النجاح مستحيلاً وهو عدم وجود حاكم مسيطر معترف بهِ ؛ ولم تكن هناك من البداءة إلى النهاية سلطة تمنع سوء النظام وتجبر على الطاعة وتسيطر على وحدة العمل . أتى الصليبيون من ممالك أوربا المختلفة ولهذا كانت مصالحهم متشعبة . وهكذا كانت حال هيئات الفرسان المختلفين ؛ وكثيراً ما رأيناهم يقاتل بعضهم بعضاً، ولم يكن « لملك » بيت المقدس نفوذ يذكر على ما وراء حدوده . وكانت انطاكية وطرابلس وأذاسا وغيرها من المعاقل مستقلا بعضها عن بعض ، بل متعادية أحياناً . وقد كان القيصر يحسدهم جميعاً . ولقد كان النجاح ميسوراً لهم لو تولى قيادتهم جميعاً أمير معترف به . ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم فكان الفشل المحتوم نصيبهم

والحروب الصليبية من أولها إلى آخرها فصل فريد في تاريخ الدنيا، وهو فصل كما قلت عنه « إن الحاجة ماسة إلى وجود كتاب متقن فيه بلغتنا وخاصة من الوجهة الشرقية للحروب الصليبية » فان كتاباً كهذا يهيئ الفرصة ايضاً لفحص نتيجة الحروب العظيمة الطويلة وتأثيرها فى حياة أوربا الاجتماعية وكذلك فى كنائس الشرق وجماعاته المسيحية فان الأخيرة قد أصابها الاضطهاد والخسارة والدهور ، ونال الأولى قليل من الخير وكثير من الشر

والحروب الصليبية هى التى أيقظت العالم الغربى من سباته العميق سبات الغفلة . وهى التي كان لها فضل السبق فى جمع الممالك الأوربية المختلفة على عمل مشترك كان الغرض منه عظيما ولكن أسيء تنفيذه فبعث فى نفوسهم حياة سياسية جديدة ثم ميلا نحو الشرق كان من آثاره زيادة فى المعلومات التاريخية والجغرافية عن البلدان والناس ؛ ووسعت الأفكار من جهة اللغة ، وعادات وطبائع العالم الأسيوى. يضاف إلى ذلك أن الحروب الصليبية ، مع أنها كشفت الستار عن معايب الدين الاسلامى[1] . قد جاءتنا بأمثلة حية عن كرم المسلمين وفضيلتهم حتى فى ميدان القتال . وهى التى أعلت من شأن التجارة والملاحة فزادت فى موارد اوربا وثروتها. وهى التى ساعدت على إحياء الفنون الجميلة والسير فى علوم الفلك والرياضة والطب والصيدلة والتاريخ الطبيعى – وفوق كل هذا قد ضربت النظام الاقطاعي ضربة قضت عليه، ذلك أن جماهير الموالى الذين اجتمعوا تحت لواء الصليب اطَّرحوا جانباً اغلال العبودية واتخذوا موقف المستقلين ، فى حين أن هذا النظام وهت أركانه بخروج الفرسان والبارونات الى الشرق وكثرة بيعهم ممتلكاتهم

ولكنها من جهة أخرى زادت الاضطهاد الدينى الذى كان وقتئذ ؛ وساعدت على القسوة و إراقة الدماء فى صفوف الجيوش المسيحية التى كانت لا تقل فى بعض الأوقات عما يحدث فى جيوش أعدائهم ؛ فى حين نجد كذلك التناقض الغريب الذى جمع بين التعصب الشنيع وأحط رذائل الانسانية . والحق أنه من الصعب غالباً أن تتبين دين المسيح أهو الدين الذى كان البابوات ومجامعهم الدينية يحاولون رده الى الأرض التى نشأ فيها أم الطرق التى حاولوا بها تثبيته هناك طوال هذين القرنين ؟ وبينما كان المتوقع أن تضعُف أكاذيب رجال الكنيسة الرومانية بالوعود الربانية إن لم تقض نهائيًا على الايمان بالكنيسة الغربية ، نجد ، وهذا الغريب ، العاطفة الصليبية أتت بنتيجة مخالفة لذلك تماماً إذ جاءت بفظائع محاكم التفتيش وملأت خزائن البابا بالأموال وثبتت أركان السيادة البابوية

(١) هذا رأى المؤلف المسيحي



منظر القلعة من الجنوب الشرقي – مسجد الناصر بن قلاوون

# أسرة المماليك

## ١٢٦٠ — ١٥١٧

## الفصل الأول

### مصر والمماليك

٦٤٠ م بعيد وفاة النبي ( صلى الله عليهِ وسلم ) فتح عمرو بن العاص البلاد المصرية وانتزعها من المقوقس حاكمها من قبل الرومان وذلك فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقد بقيت جزءاً من المملكة الاسلامية مدة قرنين من الزمان . وعند ختام القرن

٨٦٨ — ٩٠٥ التاسع الميلادى قام حاكمها احمد بن طولون وهو من سلالة المماليك التركية وخلع نير المملكة الاسلامية التى كانت إذ ذاك منهوكة القوي متداعية الأركان واعتلى عرش البلاد ؛ ولا تزال آثار حكمه الزاهر ظاهرة واضحة في جامعه الذى أسسه بالفسطاط[1] والذى لا يزال يسمى باسم مؤسسه العظيم . ولكن الطولونيين ما لبثوا أن رجعوا الى ولائهم للخليفة . ثم أن البلاد استقلت مرة أخرى تحت حاكم تركى

٩٢٣ — ٩٨٠ آخر وهو ( ابن طغج ) أول أسرة الأخشيديين وسموا بذلك نسبة الى أسرة ملوك فرغانة ( وكان هذا لقباً لملوكهم ). وفى نهاية هذه الأسرة قام خلفاء الفاطميين بعد أن قهروا الأغالبة على أمرهم فى طرابلس والقيروان وولوا وجوههم شطر المشرق ففتحوا مصر وجنوبى سورية واتخذوا القاهرة حاضرة لملكهم فبقيت من ذلك العهد مقراً للحكومة المصرية ، ولا تزال آثار حكمهم للبلاد خالدة فى الجامع الأزهر . وقد

(١) هذا المسجد شمالى الفسطاط الحاضرة القديمة وموقعة الآن جنوبى القاهرة على جبل يشكر . وقد جاء فى دائرة المعارف البرطانية « أنه اكبر مسجد فى القاهرة وأنه جدير بالذكر فى تاريخ فن البناء لما يحويه من نماذج الاقبية القديمة »



بقى صولجان الملك فى أيديهم قرنين من الزمان كانوا فى نهايتهما قد لحقهم الضعف واعتورهم الخوف شأن الخلفاء العباسيين فى أخريات أيامهم فغلب عليهم وزراؤهم الذين علت كلمتهم وهيب سلطانهم فصارت ادارة البلاد فى أيديهم[1] . تلك كانت حال البلاد فى الوقت الذى سنكتب تاريخه . ولكن قبل الخوض فيه يجدر بنا أن نلمع بالمجاز الى أصل المماليك الذين سنحدث عنهم ، حتى يكون القارئ على بينة من جنسهم :

اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهى جلب الألوف من العبيد ذوى الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول واستخدموهم حرساً لهم ومادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذٍ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصبحوا ذوى الأمر والنهى فى بيت الملك يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة . وسلك سبيلهم فى ذلك خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب مَن قبلهم . وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء فى البلاد فاحتاجوا إلى الاعتزاز بأمثال هؤلاء . ان القبائل المقهورة فى أواسط آسية كانت لا ترى غضاضة فى بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة فى الغرب . وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن ثروة مصر الكبيرة التى يمكن الحصول عليها بأقل جهد ؛ لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحروب وأسراها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة

(١) كان الخلفاء الفاطميون من نسل طوائف الاسماعيلية الشيعيين وقد نشأت من بربر شمالى أفريقية واجتمعت على رجل اسمه المهدى كان قد فر من بلاد العرب فى أوائل القرن العاشر وصار خليفة عليهم فى طرابلس . وبعد ستين عاماً من ذلك التاريخ غزا الخلفاء الفاطميون ( سموا كذلك لانهم من سلالة فاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ) الديار المصرية وجنوبى سورية

ولما كانت هذه الفئة تنشؤ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة ، وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف . وأخذ عددهم يتضاعف بشراء مماليك جُدد كانوا ينالون ما نال أمراؤهم من الحرية والثراء . وقد كانت السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس انكباباً على شراء الأرقاء ؛ ولذلك استخدموا موارد الحكومة فى إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك . فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف . وبينما كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة التعس غارقاً فى حمأة الجهالة كان المماليك المقربون لدى الأمراء ، ولا سيما غاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب ؛ وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب أو تابع تدريجاً حتى يصل الى مرتبة سيده ؛ فمملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً

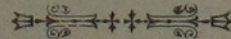
وقد كان المماليك فى بادئ أمرهم متصفين بالوقاحة وشراسة الأخلاق فأخذوا على مر الأيام يشعرون بما لديهم من القوة وشدة البأس فازداد هياجهم واشتد ثورانهم وساموا الناس الخسف بما كان يتكرر منهم من صنوف التخريب والتعذيب ولما كانوا منقسمين إلى أحزاب وشيع كل منها منتم الى اسم سلطان أو قائد كانت حالتهم الطبيعية عبارة عن حروب داخلية وأحقاد متأججة . على أن هؤلاء المماليك حينما كانوا ينغمسون فى شهواتهم وملاذهم لا يلبثون غالباً أن يثوروا على سيدهم ؛ بيد أن بعض السلاطين الأشداء كان فى مقدورهم أن يكبحوا جماحهم ويجعلوهم طوع إرادتهم ؛ لذلك كانت السكينة تعاود البلاد من آونة إلى أخرى فينشر لواؤها حيناً يكون فيه الاضطراب والهياج كامنين فلا يأمن الناس ظهورهما فى أي لحظة .

وقد أسكن أمراء الأيوبيين مماليكهم من الترك والمغول بجزيرة فى النيل (جزيرة الروضة ) ليكونوا بعيدين عن المدينة ولذلك سموا بالمماليك البحرية . وأول أسرة من المماليك ( ١٢٦٠ – ١٣٨٢ م ) كانت من هذه الطائفة . أما المماليك الآخرون فانهم جلبوا إلى البلاد بعد ذلك وسموا البرجية نسبة إلى الأبراج التى كانوا يقطنونها فى



القلعة أو فى أرجاء المدينة . ومعظمهم ينتسب إلى الجنس الچركسي ؛ ومن هؤلاء كانت أسرة المماليك الثانية ( ١٣٨٢ – ١٥١٧ م ) .

على أن معظم المماليك كانوا مخلصين لأمرائهم متعلقين بأهدابهم . وقد أثرى الأمراء باستخدام هؤلاء فى امتصاص دم الأهلين و بالانتفاع من وظيفتهم و بالاستيلاء على اقطاعات من الحكومة . والواقع أنه كان للمماليك فى مجموعهم مكانة سامية ومركز قوى لا سيما فى مدتهم الأخيرة إذ كانوا يرغمون السلطان على الخضوع لإرادتهم . هؤلاء هم القوم الذين قبضوا على مصر بيد من حديد مدة قرنين ونصف قرن من الزمان وهم الذين سنشرع الآن فى قص تاريخهم



# الفصل الثانى

## الدولة الأيوبية وسلطنة أيبك وقطز

( ١١٧١ — ١٢٦٠ م )

١١٦٩

حوالى منتصف القرن الثانى عشر حين كانت الدولة الفاطمية خائرة القوى والنزاع فيها قائماً على قدم وساق ، والفوضى ضاربة اطنابها ، أخذ كل من نور الدين والملك أملريك يرنو الى مصر ويطمع فى أن يستحوذ عليها ، فأثار ذلك ذعر الخليفة وطلب من نور الدين أولاً أن يأخذ بناصره ثم مالبث أن لجأ الى أملريك وطلب منه ما طلب من نور الدين ؛ وفى كلتا الحالتين دخل كل منهما مصر وغرضه الظاهر حمايتها ونيته امتلاكها ؛ وانتهى الأمر بعقد مهادنة ودية بين الطرفين ؛ غير أن أملريك نقض عهده وأغار على البلاد وفرض عليها غرامة فادحة فلم يسع الخليفة إزاء ذلك الخطر إلا أن يستنصر نور الدين وبعث إليه بخصلة من شعر زوجه إشارة إلى الخطر المحدق به فسر نور الدين لتلك الفرصة وأرسل قائده شيركوه للنجدة فهزم أملريك وشتت شمله ، فنال شيركوه بذلك النصر الذى نجى به الخليفة ، العطف الكبير وعين وزيراً فقبض على أزمة الأمور فى البلاد غير أنه لم يعمر طويلاً بل عاجلته المنية فخلفه فى منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين .

١١٧٠

وفى السنة التالية مات الخليفة الفاطمى أيضاً ؛ وكان صلاح الدين قد أعد العدة الفعالة لاخماد كل معارضة توجه اليه فاستولى على زمام الأمور وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد . وبهذا انتهت الدولة الفاطمية التي حكمت البلاد المصرية قرنين[١]

وكان صلاح الدين بن أيوب أحد رؤساء القبائل الكردية . وقد أطلق على دولته

(١) قد تجاسرت فأتيت هنا بكثير من المحاضرة المتقدمة



« الأيوبية » . وكانت القاهرة حاضرة البلاد فحصنها بأحجار الهرم الأصغر . وقد هجر قصور الفاطميين الفخمة وبنى قلعة الجبل على أقرب اكمة من سلسلة تلال المقطم واتخذها مقراً . وبعد أن حكم البلاد المصرية والسورية نيفاً وعشرين سنة حكماً ناجحاً مات وترك أسرة كثيرة العدد فوقع النزاع بين أفرادها وانتهى الأمر بغلبة أخيه العادل وأصبح صاحب الكلمة النافذة وحكم حكماً زاهراً فى مصر وفى الشرق من بلاد جورجيا إلى عدن . وفى آخر أيامه استولى الصليبيون على دمياط فاشتد به الحزن والكمد حتى مات فخلفه حفيده الملك ( الصالح نجم الدين أيوب ) .

١١٩٣ — ١٢١٨

وفى هذه الآونة انقضت القبائل الخوارزمية على سورية وسلبوا بيت المقدس بكل وحشية . وقد عقد السلطان مع هؤلاء البربر معاهدة ، وسير قائده الظاهر بيبرس لينضم اليهم على عمه اسماعيل حاكم سورية وكان صديقاً للصليبيين . فتقابلت جموع الفرنجة والمسلمين مع جيوش بيبرس والخوارزمية عند يافا فهزمهما بيبرس هزيمة منكرة وبذا أصبحت سورية فى قبضة مصر ثانية .

١٢٤٠ — ١٢٤٦

أراد السلطان بعد ذلك أن يقوى نفوذه فى داخل البلاد وفى ممتلكاته فاشترى عدداً عظيماً من المماليك التركية ( وكان هو أول من أسكنهم جزيرة الروضة فى النيل ) . وكان ابنه « توران » آخر سلاطين هذه الدولة وهو الذى فى عهده غزا لويس ملك فرنسا البلاد المصرية غير أنه هزم وسجن أثناء مروره الى القاهرة ، ومع هذا فان توران شاه أطلق سراحه . وقد أثار هذا العمل الإنسانى حقد المماليك البحرية عليه ؛ وكذلك أهاج غضبهم تمكنه من ردع العصاة منهم ، فدبروا مؤامرة ضده وذبحوه وقبضوا على زمام الأمور فى البلاد .

١٢٥٠

انتخب رؤساء المماليك من بينهم الأمير ( أيبك ) ليدير أمور البلاد فاكتفى فى بادىء الأمر بأن يحكم باسم زوج سيده ( الصالح أيوب ) وكانت فى الحقيقة قد اشتركت فى المؤامرة على قتل ابن زوجها . ولكن الخليفة العباسى لم يوافق على أن تتولى امرأة الحكم ولو صورياً فتزوجها أيبك . ثم أنه ارضاء للأيوبيين فى بلاد

سورية ، والكرك أجلس طفلاً من نسل الأيوبيين على عرش مصر سلطاناً . ورغم
١٢٥١
هذه الترضية فان ناصرا الأيوبى حاكم دمشق زحف بجيوشه على مصر ولكن
مماليكه من الترك خذلوه فرده أيبك على أعقابه مخذولا ورجع هو الى العاصمة ودخلها
مظفراً . و بعد قليل اتضح له أنهُ من المستحيل أن يكسر من حدة المماليك الثائرين
الذين سخروا من كل نظام واحتقروا كل سلطة وقاوموها ، وكان على رأسهم قائد
لهم يدعى ( أقطاي ) فدس أيبك عليه من قتله فثار لذلك كل أمراء المماليك
١٢٥٤
البحرية ولكن أيبك رد كيدهم فى نحورهم وغلبهم على أمرهم وذبح منهم عدداً كثيراً
وسجن آخرين وفرَّ من بقى منهم الى ناصر ثم الى الكرك ؛ وكان بين هؤلاء بيبرس
وقلاوون وسنعرف عنهما الكثير فيما بعد . بعد ذلك أصبح أيبك سلطاناً على البلاد
لا ينازعه فيها منازع واعترف به كل من حوله من الدول . عند ذلك فكر أيبك
فى التزوج ثانية من أميرة من الموصل فأغضب ذلك السلطانة وكانت محنقة من قبل
١٢٥٧
فدست عليه من قتله ؛ ولكنها لم تنج من زوابع العاصفة التى أعقبت قتله فان بعض
جوارى احدى زوجاته قمن اليها فقتلنها . و بعد موت أيبك نصب أمراء المماليك ابنه
الأصغر سلطاناً على البلاد ، وقد عرضت الوصاية عليه على قطز[١] أحد مشهورى
المماليك الخورازمية فقبلها بعد أباء شديد . وكان لدى أمير الكرك الايوبى عدد عظيم
من المماليك البحرية ، فسعى بمعونتهم للاستيلاء على مصر . وقد حاول ذلك مرتين
ولكنه رد فى كلتيهما خائباً مخذولا بفضل شجاعة قطز واقدامه . فاضطر أمير الكرك
١٢٥٩
الى طرد المماليك البحرية من بلاده فرجعوا الى ولائهم لمصر وكان رجوعهم اليها
طالع سعد لها اذ جاءوها فى وقت عصيب ، وذلك أن هولاكو وأتباعه من قبائل
المغول ، بعد أن اجتاحوا بغداد وذبحوا آخر الخلفاء العباسيين ، أندفعوا بجيوشهم
المتوحشة الى الغرب ؛ ثم أرسل الى ناصر الأيوبى حاكم سورية رسالة ادعى فيها أنه
« سوط عذاب أرسله الله الى أمم الأرض العاتية لينفذ قضاءه فيها » فأجابه الناصر
الأيوبى بألفاظ غليظة تلائم لهجته . ولما لم يجد من قطز معضداً كان من المحتم عليه
١٢٦٠
الفرار من دمشق ؛ ولكن طاغية المغول استولى عليها وأتى فيها من صنوف التدمير

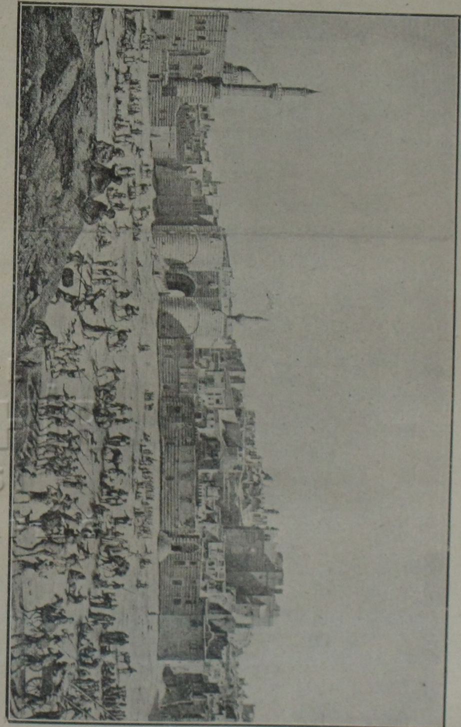
(١) وهو ينتسب الى بيت الملك فى خوارزم . ولما هزموا كان قطز من السبايا الذين حملوا الى مصر وهناك بيع بيع الرقيق



والتخريب ما اقتضته وحشيته ثم استدعى الى أواسط آسيا لموت زعيمهم العظيم
فيهم ( منجو ) فترك الجيش بعد أن عين ( كَتْبُغَا ) قائداً له فأرسل الى مصر
رسالة لا تقل فى شدتها وخشونتها عن رسالته الى الناصر الأيوبى صاحب الشام
وكان قطز وقتئذ قد خلع السلطان الصغير وقبض على صولجان الملك فى البلاد
فلما أتاه البعث يحمل الرسالة عقد مجلساً من الكبراء ؛ و بعد المفاوضة قتل الرسل ؛ ثم
أنه حذر مما عساه أن يحدث فى المستقبل فأثار نخوة الأمراء واستنهض هممهم بخطبة
حماسية نبههم فيها الى الخطر المحدق بمصر و بأسرهم ودينهم . و بعد ذلك جمع جيشاً
قوي البأس شديد البطش وسار به نحو عكاء حيث وجد المصريون الصليبيين
وقد واثقوا المغول على أن يلزموا الحيدة ؛ فالتقى جمع مصر بجمع المغول عند عين
جالوت ، و بعد موقعة ناضل الفريقان فيها نضالا عنيفاً دارت الدائرة على المغول
وذبح قائدهم كتبغا . ويرجع الفضل فى ذلك الى شجاعة بيبرس و بأس قطز . ولما
وصلت أخبار هذه الهزيمة الى دمشق قام أهالى المدينة على من فيها من المغول
الطغاة ، وكذلك اليهود والنصارى الذين انشقوا على المسلمين فى خلال الفترة التى
استولى فيها المغول على المدينة وأعملوا فيهم السيف فذبحوا وقتلوا عدداً عظيماً

ولم تكف الجيوش المصرية عن القتال بعد تلك الموقعة بل أتبعوا انتصارهم
بطردهم المغول من سورية واقتفاء أثرهم الى مدينة أذاسا ( الرُّها )

ولما أصبح قطز صاحب السيادة فى سورية أعاد اليها ولاتها السابقين بعد أن
أخذ عليهم المواثيق بالولاء . وكان قطز قد وعد بيبرس ، جزاء خدمته الجليلة ، ولاية
حلب ، ولكنه خاف أطماعه فولى عليها غيره . لذلك حنق عليه بيبرس ، وخاف إن
رجع الى القاهرة أن يدهمه خطر ، فدبر حيلة بينه و بين نفر من أصحابه لاغتيال حياة
قطز وذلك أنه أثناء عودتهم الى الديار المصرية كان قطز يخرج أحياناً للصيد
والقنص فانتهز بيبرس فرصة انفراده وطلب منه امرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه
فتقدم ليقبل يده فقبض عليها وانهال اصدقاؤه يضربون قطز بالسيوف من خلفه
٢ اكتوبر ١٢٦٠
حتى مات . وفى الحال أعلن بيبرس ولايته على البلاد ودخل القاهرة بين هتاف
الأهلين ، وأقيمت له الزينة والولائم كما أقيمت لسلفه المقتول من قبل



القلعة (كما كانت عام ١٧٩٨) باب الرميلة



# الجزء الأول

## دولة المماليك البحرية

### أو الأسرة التركية

١٢٦٠ – ١٣٨٢ م

---

# الفصل الثالث

## بيبرس

١٢٦٠ – ١٢٧٧ م

كان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري[1] أول سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبوءوا عرش مصر مدة قرن من الزمان ، عبداً مملوكا اشتراه السلطان الصالح أيوب وقد أظهر نفسه فى ميعة شبابه في الحروب التى شنتها مصر على اسماعيل والصليبيين؛ وبعد ذلك رقى فى مدارج المناصب السامية وكان الظاهر بيبرس أحد الذين ائتمروا باغتيال حياة السلطان توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية؛ وفى مدة سلطنة أيبك انضم الى جماعة أقطاي الخارجين عليه ؛ وبعد قتل أقطاي فرَّ من البلاد هو والهاربون من المماليك البحرية . أما فى عهد قطز فانه صار كما رأينا قائداً للجيوش مرة ثانية وعلى اثر قتل قطز بويع له بالسلطنة بالاجماع

بعد أن استقبل الأهلون بيبرس استقبال الظافر المنتصر فى حاضرة البلاد أخذ هو يستهوى القلوب ويكفر عن السيئات التى ارتكبها فيما سلف هو واخوانه من الأسرة البحرية، ولا غرو فانه باتباعه طريق الحكمة فى ادارة شؤون البلاد أفلح فى اكتساب محبة الأهلين واستمالتهم اليه وبسط نفوذه فى داخل بلاده وخارجها فخفف

(١) لفظة فارسية معناها حامل البندقية

الضرائب التى كانت سبباً فى تنغيص حكم سلفه الى الأمة، ونال الثقة التامة بما كان يسنه من القوانين العادلة و بالاعتدال فى ترقية مماليكه، وهدأ خاطر السوريين باعترافه بحكامهم المحليين وحسن معاملته لهم ولم يخرج عن طاعته إلا ولاية دمشق؛ ومع ذلك فان الأمراء لم يلبثوا أن دخلوا فى طاعته وحُمل حاكم البلاد الخارج أسيراً الى القاهرة وقد شجع بيبرس القيام بالأعمال العامة فشيد المساجد وزخرفها وأسس المعاهد الدينية وكرى الترع وأصلح الثغور والمعاقل وزاد فى استتباب الأمن فى مملكته بترتيب خيل البريد فكانت تصل الأخبار بسرعة بين دمشق وحاضرة البلاد [١]

١٢٦١

وقد فكر بيبرس فى السنة التالية من توليه عرش مصر فى ارجاع الخلافة العباسية الى مكانتها، وكان هولاكو قد اجتاحها جملة من بغداد وقضى على كل الأسرة العباسية. وكان غرض بيبرس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحقاد نظرائه سابقاً من المماليك وكذلك خوفاً من قيام الشيعة لارجاع الدولة الفاطمية. فظن أنه لو نصب خليفة من السنيين فانه يقضى على مثل هذه الدسيسة، و يجعل حكمه فى مصر شرعياً لذلك لما سمع أن أحد العباسيين أخطأته مذبحة المغول، جد فى استحضاره من سورية الى مصر فى موكب حافل. ولما اقترب العباسى من البلاد خرج السلطان وحاشيته فى موكب لمقابلته. وقد تبع السلطان فى موكبه اليهود والنصارى رافعين على أيديهم التوراة والانجيل. بويع للعباسى بالخلافة وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الطاعة. أما الخليفة «المستنصر بالله» فانه قلد بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة بعد قراءة ما تيسر من القرآن والخطبة والصلاة على النبى «صلى الله عليه وسلم» والدعاء له ولآل عباس دعا الخليفة للسلطان بدوام العز والبقاء. و بعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة حية على النيل واجتمعت بالبستان الكبير خارج القاهرة حيث خلع الخليفة على السلطان الخلع «وهى جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلد سيفاً عربياً» ثم أهداه تقليد المملكة بعد أن قرأه عليه وفيه

(١) كانت تصل الرسائل فى مدة ستين ساعة



يحض الخليفة السلطان باسهاب على واجبه نحو الحرب ذوداً عن الدين وما أثقل به عاتقه من المسؤلية. و بعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحاً وحبوراً ثم سار الموكب فى طريقه المفروشة بالبسط الى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متون الجياد وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظراً لا يحيط به الوصف. بعد ذلك خرج السلطان بجيش قوي البأس ليُجلس الخليفة العباسى على عرشه فى بغداد كما كان من قبل. غير أنه لما وصل الى دمشق فى طريقه قيل له ان تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطراً على استقلال مصر فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك. وفى أثناء سيره انقض عليه الحاكم المغولى فتخلى عنه أتباعه ومات فى طريقه

ولما وصلت أخبار هذه الفاجعة الى مصر، ولّى السلطان بيبرس أحد سلائل العباسيين الخلافة (١٢٦٣ م). ومع أن هذا الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته فان بيبرس أخذ لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التى كان يتمتع بها سالفه، فجعله شخصاً عادياً مراقباً سجيناً فى القلعة. وقد بقى الخلفاء طوال حكم دولة المماليك وليس لهم من الخلافة إلا اسمها وان كان ذلك لا ينطبق على حكم كل سلاطينهم. والواقع أن الخليفة كان يؤتى به فى المواقف الرسمية الهامة ليتمم الحاشية، وكذلك كان يؤتى به عند تولية سلطان جديد بصفته الرئيس الدينى للمسلمين ليعترف بلقب السلطان. وهذا كل ما كان له من الأمر.

على أن بيبرس رغم عدله فى إدارة شؤون البلاد كان لا يتأخر، عند إثارة نار حقده، عن الغدر والخيانة والاستهانة بالأرواح والأنفس. وتلك طبيعة خاصة بجنسه فكان سريع التصديق لما يلقى اليه من الوشاية، وكان لا يكتفى بتغيير وزرائه وحكامه من وقت لآخر مخافة أن يشتد بأسهم عليه فحسب، بل كان يودعهم أعماق السجن وربما كانوا لا يخرجون منه أبداً. وكان أشد أخلاقه إيلاماً غدره فانه لم

يتأخر أو يتردد فى استخدامه لقضاء مآربه ، وشواهد ذلك عدة . وأعظمها فظاعة وخسة تلك الأحبولة التى أوقع بها مغيثًا الأيوبى صاحب الكرك، فانه بعد أن سعى مراراً فى إيقاعه، أرسل اليه رسالة أغلظ فيها الأيمان والمواثيق أنه يرعى ذمته ولايمسه بأذى[١] . ومع ذلك كان مغيث لا يزال يشك فى مواثيق بيبرس غير أنه لم يجد بداً من الاجابة ؛ واضطر إلى الذهاب إلى معسكر السلطان فى سورية فقابله بيبرس بكل تجلة واحترام ورافقه على ظهور الخيل إلى سرادقه وهناك قبض عليه على حين غفلة منه وأرسل مصفداً إلى القاهرة حيث قتل جوعًا . أما الوالى الذى خلفه مغيث وراءه على الكرك فانه أبى تسليم القلعة إلى ذلك السلطان الخائن ، ولذلك كان الاستيلاء عليها عنوة محتمًا . على أن أسرة مغيث عوملت باللين والرفق . و إن كان ابنه لما بلغ أشده واستوى زج فى أعماق السجن لمجرد الظنة. ولاحاجة بنا بعد ذلك إلى سرد حوادث غدره غير أن المكر السيئ الذى أبداه فى المثل الآتى يبرر لنا ذكره : ذلك أنه أراد أن يتخلص من بطريق النصارى ببغداد بسبب ما راعه من مصادقته للمغول فاصطنع بيبرس له رسالة يشكره فيها على ما يقفه عليه من الأخبار السرية ، ثم دبر أن يُكشف أمر حامل الرسالة ، فلما جيء بالكتاب بين يدى حاكم بغداد المغولى أمر بجز رأس البطريق لخيانته .

١٢٦٢ — ١٢٦٣

وكان الظاهر بيبرس على خوف ووجل شديد من المغول الذين كانت لهم دولة تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندى رئيسها أبغا ؛ فدعاه ذلك إلى مصافاة برخ صاحب قبجاق عدو أبغا و إلى مصادقة القيصر الذى كان قد أخذ يفيق من أضرار الحرب الصليبية السادسة ومن المصائب العظيمة التى أنزلتها البابوية بالقسطنطينية

(١) وقد رأى النويرى المؤرخ هذه الرسالة ونقلها عن الاصل ووصفها فى كتابه كلمة كلمة وترجمها الاستاذ ويل فوقعت فى صحيفتين . وحلف بيبرس أنه إذا نقض مواثيقه فانه يترك مماليكه وجواريه ويخرج الى البيت الحرام عارى القدم مذنباً ثلاثين مرة . أما مغيث فقد اتهمه بيبرس بارسال ابنه الى هولاكو ليتوسل اليه أن يبقى على الكرك . ومع التسليم بهذا فانه لا يبرر حنثه فى يمينه



وقد استحكمت بين الدولتين عرا المصافاة والمصادقة ، حتى أن القيصر بنى مسجداً للمسلمين فى حاضرة ملكه وحصل من السلطان بيبرس على بطريق من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب فى دولته . ولم تقف مساعى بيبرس عند هذا الحد، بل أرسل الرسل الى اسبانيا ونابلى والى سلاجقة آسيا الصغرى، وفى الواقع إلى أى ناحية كان يرى أنه يجد فيها سنداً ينصره على أعدائه المغول الأشداء . ومهما كان من الأمر فانه لم يكن هنالك سبب يدعو الى القلق فى تلك الآونة إذ كان لدى المغول فى بلادهم ما يشغلهم عنه ؛ وقد بقى الحال كذلك الى أواخر حكمه

١٢٦٢

١٢٦٣
حملة أولى

والآن نرجع الى الحرب الصليبية العظيمة ، والى الغزوات الأربع الشهيرة التى بها قرب بيبرس أجل القضاء على سلطان الصليبيين ؛ وذلك أنه لما رأى الكرك قد غلبت على أمرها وأن برخ واقف بالمرصاد للمغول آنس ان" فى استطاعته إذ ذاك أن يزحف بكل جنوده على الصليبيين الذين كانوا — فضلاً عن أسباب العداء المستحكمة بينهم — على تصادق وتواد مع المغول . وكان قد سبق لبيبرس أن طلب مبادلة الأسرى ولكن الفرنجة أبوا ذلك فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم فى الدين ثم أخذ يسخر كل من لديه من الأسرى المسيحيين فى حصون دمشق . على أن السبب المباشر فى إغارته الأولى عليهم نقضهم العهود إذ أبوا تسليم بعض المعاقل . فقام بيبرس ، إظهاراً لسخطه ، وأوقع التخريب فى أرجاء كل البلاد المسيحية وهدم كنيسة الناصرة .

فبراير
١٢٦٥
حملة ثانية

وابتدأت الغزوة الثانية فى أوائل السنة التالية بحصار قيسارية التى سقطت بعد هجوم خمسة أيام وهدمت أسوارها رغم تحصينات لويس العظيمة لها . ولم يكن بيبرس يشجع الجنود أثناء ذلك ببسالته المعهودة لخوض غمار الحرب فحسب بل كان يشاركهم فى هدم الأسوار بنفسه . ثم انقض على قلعة ارسوف البحرية الواقعة جنوبى قيسارية ، وقد دافع عنها الفرسان الهوسبتاليون دفاع الأبطال مدة أربعين يومًا . وبينما كان السلطان يهاجم المدينة من البحر كان الحماس الدينى بالغًا أشده

ابريل

فى الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفى النهاية اضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية فأمنهم على حياتهم . ولكنه بعد أن أكرههم على العمل فى تخريب حصنهم بأيديهم، أخذهم غنائم حرب ليزين بهم موكبه وهو راجع إلى القاهرة ، وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة . وقبل أن يترك بيبرس ساحة القتال أجزل العطاء لكبار الأمراء وكان عددهم يختلف بين الخمسين والستين فأقطعهم القطائع من أرض فلسطين الخصبة التربة التى انتزعها من الصليبيين . وقد وزع نسخاً من الصحيفة التى سجل فيها العطايا التى منحها لأتباعه . وهذه الصحيفة تحتوى على وصف حكم هذا السلطان وعظمته بألفاظ تنم عن الفخر والأبهة ، وأنه بلا مراء هو الذى وطد دعائم الدين الحق بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين . وسجل فى الصحيفة كذلك خدمات أمرائه المطيعين « الذين يتلألأون كالنجوم فى القبة الزرقاء » وأنهم قد نالوا ما يستحقون من المكافأة[١]

١٢٦٥

١٢٦٦ حملة ثالثة

فى ربيع عام ١٢٦٦ م . هاجم بوهمند السادس ملك انطاكية مدينة حمص فأرسل اليها بيبرس قوة لنجدتها ، وبعد ذلك سار بكل ما لديه من الجنود لغزوته الثالثة فزار فى طريقه بيت المقدس ؛ ولما وصل الى حبرون اغدق على حراس قبر ابراهيم من فيض عطائه ، ولكنه فى الوقت عينه حرم عليهم السماح للحجاج بزيارة هذا الضريح . وبعد ذلك عبر نهر الأردن على قنطرة كان قد بناها حديثاً[٢] على مسافة

(١) وقد كتب بيبرس هذه العبارة بأسلوبه المبالغ فيه واقتبسها المقريزى وفيها اسماء الذين منحوا هبات وأسماء الضياع التى منحت لهم وهى تشغل عدة صحائف من كتاب المقريزى طبع كاترمير جزء ٢ من ص ١١ الى ص ١٥

(٢) ولا تزال هذه القنطرة باقية الى يومنا هذا . وقد كتب على العقد الاوسط منها اسم المهندس الذى بناها بأمر بيبرس . وهى مؤرخة ٦٧١ هـ ( ١٢٧٣ م ) . راجع الصورة والمقال الذى كتبه كليرمونت جانو فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٨٨ ص ٣٠٥ (Pont de Lydda) وهذه الكتابة بخط عربى واضح فى أربعة أسطر يكتنفها أسدان . وكذلك راجع المقريزى طبعة كاترمير جزء ٢ ص٢٦ و (Palestine Exploration Fund.) يوليه عام١٨٩٥ ص ٢٥٣ وفيها مقال عنوانه « سد الاردن فى عام ١٢٦٧ » . وقد نقل الكولونل واتسن عن النويرى عام ١٣٣٢ كيفية قطع الاردن لمدة ما كما حدث به فى أيام يوشع . ومؤدى العبارة كما يلى :



قريبة من شمالى البحر الميت ، ومن ثم تقدم نحو عين جالوت وبحيرة طبرية . وفى ذلك الوقت كانت النجدة التى سيرت لتخليص حمص قد قامت بمهمتها وعاثت فى أرض الصليبيين فساداً من شماليها الى جنوبها وتجمعت أمام صفد وهى قلعة على جبل خلف بحيرة طبريه . وقد شدد بيبرس عليها الحصار بما كان مطبوعاً عليه من الغيرة والانهماك ؛ اذ كان يشتغل بنفسه فى ضرب المدينة ويبذل جهده فى العناية بالمرضى والجرحى ؛ وحمى وطيس الحرب وجرت فيها الدماء واستعان المصريون « بالنار الأغريقيه » فى الاستيلاء على القلعة . وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على هذه الحال أعطاهم أماناً على أن تخرج الحامية من القلعة فارغة الأيدى . غير أن السلطان قتل أهلها جميعاً على أكمة قريبة من القلعة وهم نحو الفين من الصليبيين وغيرهم . وقد عزى ارتكاب هذا الجرم الفظيع إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم . وينسبه فريق إلى أن بعض المسلمين وُجدوا مسجونين فى القلعة ؛ على أن هذه الأسباب لا تمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التى لصقت بانسانيته بل إيمانه[١] بعد ذلك أعيد بناء صفد ونقش على جدرانها قصة تدل على الفخر والصلف منها أنه « اسكندر زمانه وعماد الدين الذى حول الكنائس

فى شهر فبراير عام ١٢٦٦ أمر السلطان بيبرس ببناء قنطرة ذات خمسة أقبية على نهر الاردن قريباً من دومة وقد حدث عند ذلك شىء عجيب لم يحصل ان حدث من قبل أو سمع بمثله وذلك انه بعد ان تم البناء انهار أحد الارصفة فغضب السلطان لذلك وأرسل البنائين لاصلاحه ولكن اندفاع الماء كان قوياً فتعطل العمل ومن العجيب أنه حدث بعد مدة فى ليل ٨ دسمبر سنة ١٢٦٧ أن وقف جريان الماء وجف المجرى فاشعلوا النيران والمشاعل وانتهزوا الفرصة بسرعة وأتموا الجزء المتصدع ولولا ذلك لما أمكنهم أن يتموه . وقد ارسل اناس على ظهر الجياد كي يستطلعوا سبب توقيف الماء فوجدوا أن تلا قد سقط فى النهر وسد على الماء طريقه . وفى الساعة الرابعة من اليوم التالى تدفق الماء بشدة على القنطرة كأنه السيل الجارف غير أن الاصلاح كان قد تم ولم ينل التيار شيئاً غير أنه حمل السقالات . وقد ختم النويرى هذه القصة بما معناه « حقاً ان هذا الشىء عجاب وأن القنطرة لا تزال قائمة الى اليوم »

(١) لقد لخص ويل الاسباب التى دعت الى تلك القسوة التى لا يكاد يصدقها العقل . وقد كتبها بدون محاباة فوقعت فى نحو صحيفتين من كتابه جزء ٤ ص ٥٤ . وقد عفى عن إثنين من رجال الحامية بتوسط أحد الامراء . ويقول المقريزى أن أحدهما أسلم وان الآخر استخدم لتلمس أخبار الجيش الصليبى

إلى مساجد ، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين ، وقراءة الانجيل إلى ترتيل القرآن » وهلم جرا . وفى آخر القصة « نصر الله المؤمنين إلى يوم القيامة »

١٢٦٣ و ١٢٦٤

وفى هذا الوقت ابتدأت تظهر العلائق لأول مرة بين المماليك وأرمينية . ففى عام ١٢٦٢ م . قام هيثوم ملك أرمينيـة يشد أزره سلاجقة آسيا الصغرى وكان كل من الفريقين تحت نفوذ التتار وغزوا سواحل سورية وهددوا مدينة عينتاب فسير عليهم بيبرس جيشاً ، وعندئذ طلب الأرمن المساعدة من تتار آسيا الصغري ومن الصليبيين الذين فى أنطاكية . ولما وصل اليهم المدد قاموا بهجمة جديدة على الحدود وحاصروا بلدة حارم ؛ غير أن تساقط الثلج وزمهرير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية . أما بيبرس فقد قام ينتقم لنفسه فلم يكتف بتخريب المدن الواقعة على الحدود ونهبها ، بل عاث فساداً فى ولاية انطاكية الصليبية وعكاء وقيسارية .

١٢٦٦

وبعد عامين من الاستيلاء على صفد ، أرسل حملة فى فصل الخريف اخترقت مضايق كليكيا ونفذت إلى أرمينية حيث التقت مع الملك هيثوم ، ولم يكن المغول قد مدوه فى تلك الازمة فهزم ، وذبح أحد أولاده وسحب الثانى فى السلاسل الى القاهرة ، واجتيحت كل البـلاد من اطنة الى جبال طرسوس . أما عاصمة ملكهم سيس فكان كل ما فيها غنيمة الحرب . وقد كان فرسان الهيكليين يدافعون عن أحد المعاقل الآمنة فاستولى المصريون عليه عنوة بعد حصار ، وذبحوا رجاله وأسروا نساءه وأطفاله . على ان بيبرس نفسه ضرب أهل « قارا » ضربة شديدة . ( وقارا هذه قرية مسيحية على ربوة شمالى دمشق ) . وسبب ذلك أنهم كانوا يسرقون عابرى السبيل من المسلمين ويبيعونهم بيع الرقيق فحرقت صوامعهم وبيع الأهالى ومزقت أوصال رهبانهم . وحولت كنيستهم الى مسجد وأخذ صبيانهم مماليك فتربوا فى مصر وكان منهم أجناد وأمراء . وفى اثناء عودة الظاهر الى الديار المصرية كبا به جواده ( فكسر فخذه ) فحمل فى محفة الى مصر . وفى خلال السنة التالية استسلم الملك هيثوم لمطالب السلطان فأفرج هذا عن ابنه ورجع السلم بينهما



الى نصابه وحينئذ اضطر الى نقض عهده مع المغول والى النزول عن كثير من معاقل الحدود التى كان قد أخذها منهم . ولو تحاشى الأرمن والصليبيون الخضوع لنفوذ المغول لكان خيراً لهم فان هذا الخضوع كان لا بد أن يثير حقد المصريين عليهم وتكون عاقبته سقوطهم . وفى عام ١٢٦٧ قامت الجنود السورية من جديد بتخريب كل ما فى طريقها حتى وصلت الى أبواب عكاء غير أنهُ لم يكن لذلك من نتيجة ظاهرة

١٢٦٨ حملة رابعة

وفى السنة التالية كانت حملة رابعة شهيرة. ففى باكورة ربيع ذلك العام زحف بيبرس على طرابلس وانطاكية بعد استيلائه على « شقيف »، وانقضاضه على « يافا » بدون انذار وقد لاقى شدة فى الاستيلاء عليها فعقد العزم على أن ينتقم من بوهمُند صاحبهما لمساعدته المغول فى هجومهم على سورية فخرب كل ما حوالى طرابلس من الأراضى وسلب كل المدن والقرى، وذبح كل من وقع فى الاسر من الفرنجة . ثم تقدم الجيش الى انطاكية فأسر حاكم المدينة فى احدى هجماته على العدو . وكان بيبرس وقتئذ يرغب فى الصلح فحاول ان يوسط ذلك الحاكم ( الأسير ) فى أن يلقوا أسلحتهم ويسلموا المدينة . ولما خاب مسعاه من تلك الناحية غزا المدينة وهاجم أسوارها ثم

١٩ مايو

أوصد أبوابها فى وجه السكان وذبح من ذبح ؛ ومن بقى أخذه أسيراً وكان عددهم نيفاً ومائة الف نسمة يدخل في ذلك الرهبان والقسيسون . وفى اليوم التالى سلم رجال الحامية هاربين وكان عددهم نحو ثمانية آلاف عـدا النساء والأطفال ؛ وقد وزعوا جميعاً مع من بقى من سكان المدينة سبايا حرب على رجال الجيش . اما المعقل فأشعلت فيه النار ومنه امتد اللهيب الى أنحاء المدينة فتركها أثراً بعد عين . و بعد ذلك أرسل بيبرس رسالة تهكم الى بومند يشاطره فيها الحزن والأسى على مصير حاضرة ملكه المضيع . وعبارة الرسالة تنم عن الصلف والتقريع والسخرية

١٢٦٩ – ١٢٧١

وفى خلال السنتين أو ثلاث السنوات التى تلت المعركة لم تفتر همة بيبرس الحربية عن دوام مناوأة الصليبيين فكان يستولى على معاقلهم معقلا فمعقلا رغم

ما كان يصل اليهم من المدد من أوربا . وقد أملى بنفسه رسالة الى بومند تيهاً وعجباً بنفسه وخاصة بعد استيلائه على ( أكار ) الواقعة بين طرابلس وحمص، قال فيها ( ان رايتنا الصفراء قد هزمت رايتكم الحمراء وان « الله اكبر » قد اسكتت نواقيس كنائسكم[1] )

وفى وسط هذه المعمعة جهز بيبرس أسطولا لغزو جزيرة قبرس التى كانت ساعدت عكاء مساعدة جدية . غير ان عاصفة هبت عليه، فحطمته قريباً من الجزيرة . هذه كانت خاتمة الأعمال التى حدثت ضد الفرنجة فى حكم هذا السلطان ؛ غير ان عدم انقطاع المدد الجديد من أوربا والخوف مما عساه يحدث فى الشرق جعل بيبرس يعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينه وبين مدينتى صور وعكاء . وبعد ذلك بقليل هلك بومند فدخلت طرابلس أيضاً فى مهادنة مع بيبرس؛ على أنه لم يبق للصليبيين من البقاع بعد هذه المدن الثلاث الا شىء قليل

١٢٧٥

وكانت طائفة الاسماعيلية من الشيعة تقطن سورية إذ ذاك وكانت خاضعة للصليبيين مقابل أن يحموها؛ وقد كانوا من أشد أعداء بيبرس ومن أكبر خصومه فكانت هجماته على حصونهم تترى . ولما عقدت الهدنة بين الصليبيين والسلطان أصبح الاسماعيليون رعاياه، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم فمنحهم السلطان مقابل ذلك بعض الأراضى فى مصر، فقضى بذلك على قوتهم واختفوا شيئاً فشيئاً، وان كنا لانزال نسمع ذكرهم فى القرن الرابع عشر . والواقع أنه لا يزال بعضهم إلى يومنا هذا[2] . ومن العجيب فى أخلاق بيبرس أنه كان لا يترفع عن استخدام خناجرهم فى قضاء أغراضه

---

(١) ومما يجب ملاحظته أن بلدة تسمى قصير كانت تابعة لامير يدعي وهلم لم يصلها شرر هذه العاصفة لانها قدمت الى المغير وثيقة قديمة فيها ان سيدنا عمر رضى الله عنه قد أوصى بأن تبقى هذه المدينة للمسيحيين فاحترم بيبرس هذه الوصية ولكنه احتال بعد قليل فى سلبها وحمل وهلم الى دمشق

(٢) ذكر برخارد عدة مئات من الأسر الاسماعيلية فى مصيات



١٢٧٣ — ١٢٧٥

بعد أن أمن بيبرس كل المخاوف التى كان يتوقعها من جانب الفرنجة أصبح فى وسعه أن يوجه كل قوته الحربية الى المغول الذين أخذوا يزحفون على الغرب؛ فسار بنفسه على رأس حملة قوية وانقض عليهم بقلب ثبت عند نهر الفرات عام ١٢٧٣م. وشتت شملهم وأجلاهم عن البلاد تماما . ثم قضى السنتين التاليتين فى القيام بحملات عدة على حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفى إحدى غزواته المروّعة التى قام بها على الأرمن لنقضهم العهود كانت مدينتا « سيس » « والمصيصة » مسرحاً للسلب والنيران؛ وعاثت جنود الظاهر فساداً فى كل البلاد من طرسوس الى أطنه؛ وكانت غنائمهم عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية

وقد قام بيبرس فى نهاية حكمه بأعمال حربية على بلاد النوبة ليثأر منهم لغزواتهم التى كانت تترى على صعيد مصر فكللت أعماله أيضاً بالنجاح العظيم ولا سيما لما كان قائماً من المشاحات بين أعضاء الأسرة المالكة وقتئذ؛ وأصبحت هذه البلاد منذ ذلك العهد خاضعة تمام الخضوع لحكم المصريين بعد أن هزموا هزيمة منكرة فى ملحمة دارت رحاها جنوبى دنقلة . ولما رفضوا اعتناق الاسلام اضطروا الى دفع ضريبة الرؤوس التى كانت تفرض على أهل الذمة . وأن يقدموا عدداً من الفيلة والزرافى وتحف النوبة مضافاً الى ذلك نصف محصول الأراضى الزراعية وقد رجع الجيش المصرى مثقلا بالغنائم والسبايا . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هذه أول مرة خضعت فيها بلاد النوبة حقيقة للنفوذ الاسلامى منذ ظهوره رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليهم من حين الى حين

١٢٧٦ — ١٢٧٧

على أن الغزوة الأخيرة تعتبر من بعض الوجوه أعظم غزواته، وسببها أنه قبل مماته بعام واحد سير جيشاً عظيماً لمؤازرة السلاجقة فى قيسارية ضد أحد نواب المغول الذى غلبهم على حكومة البلاد . وفى الربيع التالى بعد أن أقام بيبرس استعراضاً عظيماً سار فى جيش عرمرم زاحفاً على كليكيا فهزم المغول هزيمة منكرة عند « أبلستين » . ولما دنا فى زحفه من قيسارية خرج الأهالى يتقدمهم القضاة والأشراف

ابريل

وقابلوه فى موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ويعلو هتاف الفرح ودخلوا به كذلك إلى مدينتهم . وبعد أن قضى فى المدينة بضعة أيام رأى أن مركزه فيها مهدد فرحل بطريق النهر الأزرق الى حارم وقضى بها مدة . وكان « أبغا » وقتئذ قد سار على جناحي نعامة من الشرق ليثأر لجيشه المهزوم ويرجع نفوذ المغول وحكمهم . فلما وصل الى قيسارية ، وكان بيبرس قد برحها ، انتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب فقتل خلقاً كثيراً من المدينة وما حواليها[١] — هذه هى فظائع المغول فى أرمينية وتلك كانت خيانة بيبرس الذى غادر المدينة التى احتفت به نهب القضاء والقدر . وسره أن العدوّ الذى كان يخافه على سورية قد ولى بوجهه عنها الى آسيا الصغرى

يونيه

رجع بعد ذلك بيبرس وهو خالى البال الى أنطاكية حيث قضى فى الخمائل التى حول المدينة شهراً ، ثم قفل راجعاً الى دمشق واستراح هناك وأقام وليمة لامرائه من «لبن القمر» وهو طعام تتارى وكان شديد الشغف به فأكثر منهُ فحم وقضى نحبه بعد أسبوعين ، وفى رواية أخرى أن القدح الذى شرب منهُ كان قد دس فيه السم لأمير من الأيوبيين فشرب منهُ الظاهر ساهياً ناسياً

١٩ منه

١ يوليه ١٢٧٧

وهكذا مات الظاهر بيبرس وهو فى أوج عظمته . وأصله مملوك قبجاقى أحضره أحد النخاسين ومملوكاً آخر ، وكان قد بيع قديماً فى دمشق بثمانمائة قطعة من الفضة ثم رد الى صاحبهِ لعيب فى إحدى عينيه الزرقاوين . وكان أسمر اللون طويل القامة جهورى الصوت شجاعاً نشيطاً خفيف الركاب يحب السفر والحركة . ومن عادته أن يشرف على كل شيء بنفسهِ سواء أكان بالقاهرة أم بالاسكندرية أم بأي مكان آخر راكباً جواداً أو هجيناً . والخلاصة انه كان مولعاً بالسفر حتى قيل فيهِ :

يوماً بمصر ويوماً بالشـآم وبا  لفرات يوماً ويوماً فى قرى حلب

(١) قد ذكر بعض المؤرخين أن عدد القتلى كان مائتى ألف وبعضهم أبلغه الى نحو خمسمائة ألفاً فلو سلمنا بهذه المبالغات لا يسعنا الا القول بأن المذبحة كانت شنيعة



وكان مغرماً بلعبة تتارية تشبه لعبة « التنس » عند الانكليز وتدعى « القبق » كان يخصص لها يومين من كل أسبوع . ولما أخذ فى بداءة أمره يرقى إلى مدارج القوة كان هو أو من تآمر معه اليد الفعالة فى قتل سلطانين من سلاطين مصر . وفى النهاية أصبح مملوك الأمس نبيلا وملكا عظيما اليوم ، يمتد سلطانه بلا منازع من الفرات الى النيل ومن تخوم آسيا الى سواكن على البحر الأحمر ؛ ولم تكن همته محصورة فى تضييقه على الصليبيين وسده السبل فى وجوههم وضغطه عليهم فيما بقى لهم من المعاقل القليلة العدد بل كان سلطانه نافذاً فى كل البقاع

وكان شديد العداوة للشيعة ومن أكبر المناصرين لأهل السنة . ومن جليل أعماله أنهُ أعاد الخلافة الى العباسيين كما ذكرنا وإن كان الخليفة ليس له من الأمر شيء إلا اسم الخلافة. وكان بيبرس يخضع لأحكام الشريعة ويقدس فرائضها وقد حج البيت الحرام وشيد كثيراً من المعاهد الدينية وتزوج أربعاً من عقائل التتار — عدا من كن فى بيته من الجوارى الحسان — فرزق منهن عدة أولاد ذكور وإناث . ومعرفة ذلك عنهُ مما يشرفه ولو أن العادة لدى المسلمين — وخاصة المماليك — أن يكتم أمر النساء فلا يعرف أحد شيئاً عن الحياة المنزلية فى بيت أمير أو سلطان . وكان بيبرس نموذجاً للمماليك فى فضائله ورذائله فلم يخل من تلك الرذيلة التى لا تكاد تسمع بها فى العالم الغربى. وعلى ما كان عليه من العسف فى ابتزاز الأموال والغدر والقتل مما شوه اسمه ، كان ملكا عاقلا قويّ الشكيمة[١] . على أن ما قام بهِ من جليل الأعمال وعظيمها ونشاطه الذى لا يتسرب اليه الفتور وأعماله العامة ومبراته الحسان وظهوره بين جمهور الناس على الدوام وتألفه كل من كان حواليه

(١) عند ذكر مجمل أخلاقه قال المقريزى « انه كان عسوفاً عجولا كثير المصادرات لاغنياء رعيته حتى أن الكثير منهم مات من شدة معاملاته » وقد ارتكب فظائع مع اليهود والنصارى لم يسمع بمثلها فقد أشعل الحطب فى تنور وأراد أن يلقى هؤلاء التعاعسين فيه فرجاه الاتابك فعفا عنهم واكتفى بضربهم بالسياط حتى مات الكثيرون منهم

كل ذلك حمل الناس على تناسى قساوته وغلظاته فلا يزال اسمه يتغنى بهِ الى يومنا هذا فى قهوات القاهرة، وهو يعد من أحسن واعظم السلاطين الذين تبوأوا عرش مصر

١٢٧٧

ومما لا شك فيه أنه كان يتطلع إلى حصر وراثة العرش فى أسرته ولذلك أعلن قبل وفاته ببضع سنين أن ابنه سعيداً أكبر أنجاله خلف له على عرش مصر. وقبل مماته بعام زوج ولي عهده هذا من إحدى بنات قلاوون فى احتفال فخم راجياً من ذلك الزواج ان يكون هذا الأمير عضداً لابنهِ فى إدارة شئون البلاد

وقد حنطت جثة بيبرس ودفنت بدمشق، على أن نعيه كتم عن الجمهور مدة شهر بأن حملت محفة خالية الى القاهرة وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ولذلك لم يعتلِ عرش[١] السلطنة ابنه سعيد إلاَّ في الثلاثين من شهر يوليه

(١) وبهذه المناسبة نقول إنه قبل ممات بيبرس بتسع سنوات غادر معسكره عند «أرسوف» وسافر مستخفياً الى القاهرة ليرى سير الاحوال فيها وقد بقي كذلك طوال قامته بالقاهرة مختفياً فى القلعة وقد ظن الجيش طول مدة غيابه أنه مريض فى المعسكر



# الفصل الرابع

## السلطان السعيد - السلطان قلاوون

١٢٧٧ — ١٢٩٠ م

كان السلطان السعيد شاباً غراً طائشاً لم يعد التاسع عشر ربيعاً عند اعتلائه العرش؛ ورث عن أبيه القسوة والغدر بيد أنهُ لم يكن على شيء مما كان لوالده من القدرة والعزم، وكان منقاداً لنفوذ والدته. فلم يمض على قبضهِ على صولجان الملك بضعة أسابيع حتى سم وزير والده (أتابك)، وزج بغيره من ضباطه فى غيابات السجون. ثم أخذ ينقاد لآراء صغار مماليكه، فتباعد عنهُ جماعة الأمراء وأخذوا يحذرون نكاياته؛ فلما أحس السلطان منهم ذلك أراد أن يشغلهم بما يلهيهم فأعد حملة على بلاد الأرمن وتخلف هو ووالدته بدمشق. وفى خلال تلك المدة إئتمر بهِ جماعة من الأمراء وعلى رأسهم قلاوون، وقد بلغهم أنهُ يريد بهم سوءاً فقفلوا راجعين إلى القاهرة فدخلوها وأوصدوا أبوابها فى وجهِه، ولكنهُ على الرغم من ذلك دخل المدينة وتسلل خفية إلى القلعة؛ و بعد أن حوصر فيها مدة أسبوع اضطر إلى النزول عن الملك والانزواء فى الكرك. فكانت مدة حكمه الخالية من الحوادث العظيمة تزيد على سنتين قليلاً

نوفمبر ١٢٧٩

بعد ذلك استدعى قلاوون أكبر الأمراء وحمو السلطان السعيد ليتولى مقاليد الأمور، فقام بها فى أول الأمر باعتبار أنهُ (أتابك) أو وصي على ابن آخر صغير لبيبرس اسمهُ سيف الدين شلامش، على أنهُ لم يلبث أن خلعه من الملك وتبوأ هو عرش مصر

١٢٨٠

وفى خلال العام التالى خرج سنقر حاكم دمشق على السلطان قلاوون ، ونادى بنفسهِ سلطانًا على البلاد السورية ، فأحزن ذلك قلاوون لأنهُ كان يخشى تفاقم شرّ أتباع أسرة بيبرس ، وكذلك كان يخاف زحف المغول على البلاد ثم البدو الذين كانوا يودون أن تستقل سورية عن مصر كما كانت . فحاربه السلطان وهزمه واضطر سنقر إلى الفرار بعد مواقع عدة ، واستولى السلطان على دمشق ثانية وعاد الأمن إلى نصابه . أما الخارجون من أمراء مصر والشام فقد أحسن السلطان معاملتهم وأعادهم الى مراكزهم ( وكان من بين هؤلاء سنقر بعد أن أعطى عهد الولاء ) . ولا شك أن هذه طريقة مثلى نال بها السلطان محبة الأمراء ومناصرتهم له [١]

ولم يكد الأمر يستقر فى نصابهِ حتى أخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عامًا . فأتوا فى ولاية حلب من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الأهالى الى الفرار نحو الجنوب . وأما أهالى دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب فهاجر منهم خلق كثير الى مصر ليحتموا فيها

١٢٨٠

أما قلاوون فانه سار بجيوشهِ عدة مرات لطرد تلك القبائل المتوحشة ، فكانوا يتراجعون أمامه ولكنه لم يقض عليهم فى موقعة فاصلة . وقد انتهز فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يرقبون فرصة إغارة المغول ، وأخذوا يسلبون المسلمين المجاورين لهم ، فهاجمهم السلطان عقابًا لهم ، ولكنهم طلبوا الأمان ، فهادنهم مدة عشرة أعوام ؛ وكذلك أبرم السلطان مهادنة مع بومند ملك طرابلس ، إذ كان لا يزال يخشى إغارة المغول

وفى خلال تلك الفترة ظهرت مؤامرة لاغتيال السلطان . ومن العجيب أن كشف أمرها أصدقاء قلاوون فى عكاء حيث أسر المتآمرون الى الفرنجة بأمر مكيدتهم

(١) كان من بين أهالى دمشق الذين عفا عنهم السلطان « المؤرخ العظيم ابن خلكان » وكان شيخ قضاة المدينة ، وقد أفتى من قبل بصحة سلطنة سنقر



قائلين لهم أنهُ من العبث أن تتعاهدوا مع السلطان الذى سيقتل فى القريب العاجل . وذلك مما يدل على كثرة الاختلاط بين الأمراء والفرنجة مما لم يكد يخطر بالبال . وقد اعترف المتآمرون بفعلتهم والتمسوا الرحمة ، ولكنهم قتلوا جميعًا . وقد امتدت الشبهة الى نفر من المماليك فزجوا فى أعماق السجون وفرّ عدة مئات من أتباع أسرة بيبرس الى المغول . والحزب المنتمى لبيت الظاهر بيبرس الذى أصبح يطلق عليهِ حزب الظاهرية صارت له مكانة ثابتة فى سياسة حكومة البلاد كما سنتبينهُ بعد

١٢٨١

ثم زار السلطان دمشق ليحتفل بمأتم السلطان السعيد الذى قضى نحبه فى الكرك ، وحملت جثتـه والدته لتدفن بجانب رفاة والده بيبرس . وفى خلال إقامته بدمشق اجتاحت قبائل المغول شمالى بلاد سورية ثانية بقيادة «أبغا» وأخيه منكوتمر فبذل قلاوون كل ما يستطيع من قوة وجمع جيشًا من المصريين والسوريين والبدو والتركمان يبلغ عدده خمسين الف مقاتل ، ثم زحف نحو حمص ، فقابله منكوتمر فى

اكتوبر

جيش كجيشهِ ثلثهُ من أهالى جورجيا والأرمن والاغريق ، ودارت بين الفريقين رحا معركة عنيفة كانت الغلبة فيها فى بادىء الأمر للمغول . ولما يئس السلطان من النصر اعتصم هو وألف فارس بربوة مجاورة . غير أن المغول أضاعوا ظفرهم فى هذا اليوم بتعجلهم إلى حمص لجمع الأسلاب ، فانقضت عليهم عساكر السلطان وسقط منكوتمر عن ظهر جواده وجرح . أما جيشهُ فولى الأدبار وفرق شذر مذر ؛ ومات منكوتمر بعد ذلك بقليل كمداً من خيبتهِ ، وقيل من تأثير جروحهِ . وهلك أبغا فى السنة التالية أيضًا

ولا شك أن ظفر المصريين هذا يعد حادثًا عظيمًا فى تاريخ الشرق ومصيره لأنهُ لو قلب لهم الدهر ظهر المجن كما كاد يحدث ، لوقعت مصر فى يد المغول بل ربما كانت ميول أبغا المسيحية أثرت فى مصير سورية إذ بينما كان بعض حكام الشرق يعتنقون الدين الأسلامي كان أبغا لا يتزحزح عن إيثاره الدين المسيحي . والواقع أنهُ

ما فتىء يرسل البعوث الى البابا وملوك أوربا طول مدة حكمهِ (كما حدث عام ١٢٦٧ و ١٢٧٦) ليستنهضهم على إرسال حملة صليبية جديدة وشن الغارة على مصر ولما خلفه أخوه على عرش الملك اعتنق الاسلام وتسمى بأحمد ودارت بينهُ و بين السلطان قلاوون الرسائل التى لم تكن ودية أحياناً. بيد أن ابن أخيه «أرغون» أسره وقتله: وكان الأخير ينزع الى الدين النصرانى كما كان أبوه أبغا من قبل. وقد حذا حذوه غير أنهُ لم يكتف بارسال الوفود الى الممالك المسيحية (١٢٩١) بل عرض أن يضع بين يدى البابا كل أرزاق دولته لاكتساح المصريين من سورية. وقد بلغ بهِ الامر فى ترغيب البابا واستنهاض المسيحيين أن أعلن عزمه على التنصر على اثر سقوط بيت المقدس فى يد المسيحيين ثانية[1]. ولكن كل هذه المفاوضات لم تسفر عن نتيجة مطلقاً. لذلك وضعت الحرب أوزارها بين قلاوون والمغول ولم يحاولوا أن يثأروا لأنفسهم من هزيمة حمص بل سرعان ما رجعت العلائق بين الدولتين الى ما كانت عليهِ من قبل حينما اعتنقت أسرة المغول الحاكمة الدين الاسلامى

١٢٨١ وحافظ قلاوون على العلائق الودية، التى أحكم أواصرها بيبرس، بينه و بين أمير قبجاق الذى أعلن اعتناقه للاسلام. وطلب إلى السلطان أن يمنحهُ لقباً وشارة من شارات الشرف. وكذلك وفدت عليهِ الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة والأفاويه وأنواع الببغاء. وقد تبودلت الرسائل بينهُ و بين ملك جزيرة سيلان (سرنديب)، وكان قلاوون يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق. وعقدت اواصر الود والمصادقة بين السلطان والقسطنطينية وكثير من حكومات اوربا. ثم عقد فى اخريات ايامه معاهدة تجارية مع جنوة، وكذلك ابرم شبه معاهدة دفاعية بينه و بين قشتالة وصقلية

(١) كان أرغون يعطف على اليهود والنصارى على السواء وقد عين أحد اليهود فى مركز سام فى بغداد وكذلك نقرأ أن المبشرين المسيحيين قوبلوا مقابلة حسنة فى بلاد الفرس، على أن مراسلات أمراء المغول مع البابوات وحكومات أوربا لها مكانة خاصة ولا يزال محفوظاً الى الآن رسالتان بخط ارغون وأويلجيتو باللغة المغولية الى فيليب الجميل (انظر ويل جزء رابع ص١٥٢) وكانت لابغا زوج مسيحية وهى بنت غير شرعية للقيصر



١٢٨٥ ولم يفتر عزمهُ بعد أن زالت مخاوفهُ من ناحية المغول فى محاربة المسيحية فى الشرق كلما وجد الى ذلك سبيلا. وكانت معاملته للأرمن غاية فى الصرامة والأرهاب. ولم يحصل مليكهم على هدنة من السلطان إلاَّ بعد أن فرض عليهم جزية فادحة وسلموا جميع أسرى المسلمين (و بقى أساراهم مماليك). ولم تفلت من قلاوون فرصة للاشتباك مع الصليبيين فى حروب شعواء على ما بقى فى أيديهم من أرض سورية. والواقع أنهُ كان لا يتأخر عن مهادنتهم كلما سمحت الأحوال غير أنهُ لم يكن من الصعب عليهِ أن يجد فى الوقت المناسب سبباً وجيهاً أو عذراً للانقضاض عليهم. فاستولى على مدينة اللاذقية مع أنها كانت بموجب معاهدة طرابلس من أملاك الصليبيين. وهاجم طرابلس نفسها لسبب لا يستدعى ذلك[1]. وكانت مدينة ١٢٨٩ عظيمة منيعة آهلة بالسكان. ومع ما قامت بهِ قبرس من مساعدتها سقطت بعد حصار شهر وقتل أكثر رجالها وسبيت نساؤهم وذراريهم. ولم يمض وقت طويل حتى ضج بعض تجار المسلمين من سلب المسيحيين ونهبهم لهم بالقرب من عكاء. فاتخذ المسلمون ذلك ذريعة لإسعار نار الحرب على هذه المدينة التى هى آخر مأوى للصليبيين. على ان مهاجمة المدينة لم ترق أمراء المماليك الذين كانوا يخشون منعة حصونها، ولكن السلطان حصل على فتوى من القضاة تنص على أن ما لحق التجار من الاهانات مبرر كاف لاعلان الجهاد على النصارى، فأعلنهُ وزحف بقوة عظيمة لحصار القلعة ولكن المنية عاجلتهُ فى طريقهِ، فترك ذلك العمل لخلفهِ ١٢٩٠

وقد قام كذلك فى أثناء حكمهِ بحملتين غير مجديتين على بلاد النوبة؛ وشن الغارة على البدو الذين كانوا دائماً يهددون السلام فى فلسطين وصعيد مصر. وقد قاتل أيضاً أهل اليمن فى مكة لمنازعتهم مصر السيادة على هذه المدينة المقدسة. ولكن

(١) ذلك أنه على أثر موت بوهمند ادعت أخته حق الملك. وكان برترام صاحب جبليت وعد بمساعدة السلطان فى معارضة هذا الطلب بشرط أن يكون تابعاً له. غير أن أخت بوهمند نزلت عن مطلبها فظن برترام أنه أصبح بذلك غير مقيد بعهده فاتخذ قلاوون ذلك ذريعة لاعلان الحرب التى كان يتمناها

كل هذه الأمور كانت عنده فى الدرجة الثانية بالنسبة لحروبه فى سورية .

وكان فى خدمته أكثر من اثنى عشر ألف مملوك من الجراكسة والمغول ؛ ومن بين هؤلاء عدد يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف كانوا نازلين بالقلعة ، ولذلك سموا البرجية كما أسلفنا . وأطلق عليهم هذا الاسم ليميزهم من المماليك البحرية . وكانوا على وفرة عددهم على حظ كبير من حسن النظام . ولم نسمع حتى الآن شيئاً يثبت افراطهم وعسفهم مما صحب ذكر اسمهم فيما بعد من الذعر والفزع

وقد حمد لهُ مؤرخو عصره لينه وحلمه وعدله . والحق أنهُ جدير بهذا الحمد اذا قرناه بغيره من سلاطين بنى جنسه ؛ غير أنهُ كما شاهدنا كان يقسو و يغدر عند ما تدعوه المصلحة ؛ كما كان يطرح ظهريًا أغلظ العهود والمواثيق لنيل مآربه . ومع هذا لم يك ظمآن الى سفك الدماء كبيبرس ، ولكنهُ كان أقل منهُ تسامحًا مع المسيحيين، وقد حرمهم كل نصيب فى الوظائف العامة. أما معاملته للصليبيين فكانت تشف عن الانتقام والقسوة . ولشدة غيرته وظلمه أحيانًا كان ما ينزلهُ من العقاب غاية فى القسوة والوحشية ، فمن ذلك أنهُ أوثق لصًا وهو ممدود على ظهر جمل – هذا النوع من العقاب سنسمع به كثيراً – وأمر أن يطاف به فى المدينة حتى يقضى عليه . وانهُ دفن نصرانيًا حيًا لتزوجه من مسلمة . أما تلك الزوج التاعسة فقد جدع أنفها . وعلى الرغم من كل هذه المعايب كان ملكاً عاقلاً، جواداً، محبًا للخير . على ان اكبر عمل خلد ذكراه ، وجعل الناس ألسنة تلهج بالثناء عليه، والاعتراف بحسن صنيعه، هو ذلك البناء الضخم الذى شيده فى المدينة ، والذى يشمل بيمارستانًا ومدرسة تحتوى على قبة فيها قبره . وقد أعد فى البيمارستان غرفًا متسعة وفرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء على السواء وخاصة للنساء ، وعين فيه محاضرين . وأوجد به معملا كيماويًا جهزه بكل انواع المعدات الطبية ، ورتب فى القبة خمسين من القراء يتلون آيات الله ليلاً ونهاراً . وانشأ بها مكتبة للجمهور ملأها بالكتب القيمة فى كل فن . وعهد بها الى حفاظ . وعين بالمدرسة

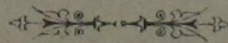


علماء يحاضرون فى المذاهب الأربعة . وكان بها كذلك مكتب للأطفال، ومدرسة للصبيان ، وملجأ للأيتام . وان هذا الوصف لما يذكر الأوربيين بالمعاهد العظيمة التى يقيمونها فى بلادهم اليوم

وفى هذا الوقت بدأ يدخل على فن العمارة شيء من المحسنات الأجنبية فأينعت ثماره فى حكم أخلافه . ولامشاحة فى أن تلك المبرات وغيرها من الأعمال العامة التى افادت البلاد كانت سببًا فى تخليد اسم قلاوون فى القاهرة الى يومنا هذا

١٠ نوفمبر ١٢٩٠

ومات قلاوون وهو فى السبعين من عمره . وكان من القابه « الألفى » نسبة الى ألف الدينار هذا الثمن الكبير الذى اشترى به حين كان شابًا جميلا[1] . وقد ترك وراءه من الذرية ثلاثة ذكور وابنتين . ولما مات اكبر أولاده جعل وراثة العرش لابنه الثانى خليل. وفى آخر ايامه تزوج من احدى بنات أمير من المغول هام على وجهه حتى حضر الى مصر كغيره ، فولدت لهُ ابنًا سمي الناصر، وسنسمع من أخباره كثيراً فيما يلى



(١) ويقال أنه اشترى مرتين كل مرة بألف دينار . ولقب الالفي هذا بين ألقابه الملكية مما يدل على أن المماليك بدلا من أن يخجلوا من أصلهم الحقير كانوا يفاخرون به

# الفصل الخامس

## السلطان خليل بن قلاوون

(١٢٩٠ — ١٢٩٣ م.)

١٢٩٠

جلس السلطان خليل على عرش أبيه فى طمأنينة وسلام ؛ وكان مع ما بهِ من الكبرياء والقسوة ينقصه ظرف أبيه وحكمته ، يثبت ذلك أنه لما ولي السلطنة ووجد أن العهد بتوليته لم يوقع عليهِ والده قلاوون ، إذ كان يؤثر ابنه الناصر عليه ، لولا أنه قاصر ، أمر بقتل وزيره وأضمر السوء لكل أتباع والده فأبعدهم عن مناصبهم ونصب مكانهم أحداثاً من اخوانه وسمّاره . وكان لا يعبأ بقتل النفس جرياً وراء وساوسه وأوهامه ، فتراه آونة يأمر بخنق أحد خصومه ؛ ثم لا يلبث أن يرضى عنهُ ويقربه ؛ ثم يعيد الكرة تارة أخرى ، فيقبض عليه ويذيقه العذاب ؛ بل ربما أورد ذلك التعس موارد الهلاك . ولعمرى إن صحيفة تاريخ هذا الشاب مفعمة بتلك الفظائع.

١٢٩١

ولم يقتد بوالده الا فى شىء واحد هو أصراره على اخراج الصليبيين كافة من سورية . وقد احتفل للعمل على تنفيذ هذا الاصرار باقامة الصلاة فى قبة والده ، وبتوزيع العطايا على القضاة والفقهاء . ثم استدعى كل ولاة سورية الى دمشق . وطلب اليهم أن يمدوه بكل وسائل النقل لحمل ما يلزم من الذخائر والجنود إلى أسوار عكاء . ولما تم له ذلك حاصر المدينة ونصب حولها اثنين وتسعين منجنيقاً ؛ فدافع جنودها دفاع الأبطال ، وشدت أزرهم النجدة التى أرسلتها اليهم جزيرة قبرس . ولكن نيران الأحقاد — وتلك آفة الصليبيين من أول أمرهم إلى نهايته — التى كانت متأججة بين أمراء الصليبيين امتد شررها واستعر أوارها ، حتى فى ساعتهم تلك

١٨ مايو

العصيبة . فأقلع من النجدة عدد عظيم بسفنهم تاركين المدينة ، فسقطت بعد حصار ثلاثة



وأربعين يوماً ؛ فأعقب سقوطها حال محزنة ، اذ وقع رجال حاميتها جميعاً بين القتل والأسر ، وأخذ الأطفال والنساء الى مصر أسارى . وقد بالغ السلطان فى الفتك بهم ؛ حتى الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق للنجاة أمر السلطان بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة [١] . ثم أحرقت المدينة ، ودمرت بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائة عام كاملة [٢] . وعلى أثر هذا الفتح ترك الصليبيون كل ما بقى فى أيديهم من الحصون . على أن ما لاقاه أهل بيروت من اهدار دمائهم وقتلهم صبراً لا يقل فظاعة عما وقع فى عكاء . ولما عاد السلطان خليل الى القاهرة زينت له المدينة أحسن زينة ، وأقيمت فيها الأفراح لاستقباله ، فدخلها مظفراً ، يسوق أمامه ، عنواناً على ظفره ، عدداً عظيماً من أسرى الفرنجة فى الأغلال والاصفاد

١٢٩١

وفى أثرهم الفاتحون يحملون الأعلام المسيحية منكسة ، ورءوس أعدائهم على أسنة رماحهم . وهكذا ختمت الحروب الصليبية العظيمة ، بعد أن مضى عليها قرنان من الزمان كانت تشتد فيها وطأتها وتخف ؛ وقد حافظت طول هذه المدة على كيانها بوسائل تتبرأ منها تلك التعاليم التى جاء بها رسول السلام . وقد ختم المؤرخ جبون تلك القصة المحزنة بقوله : « ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذى ظل أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم . »

١٢٩٢

ولما لم يبق فى سورية ما يشغل السلطان خليلا ، وجَّه جيوشه نحو المغول ، ولكنه قبل أن يشرع فى السير صلى بالناس فى قبة والده ليثير حميتهم الدينية للجهاد ، ثم زحف مع جنوده المصريين من حلب إلى قلعة الروم ففتحها ، وحكم السيف فى رقاب حاميتها من أرمن ومغول وسبى نساءهم ، وكتب الى جميع ولاته ، وهو ثمل بلذة النصر ، منشوراً بأنه غير اسم قلعة الروم باسم « قلعة المسلمين » ، وأخذ يعلى من شأن نفسه قائلا أنه قد قدر له أن يخضع الشرق لسلطانه ، من مشرق الشمس الى

---

(١) ويعزى ذلك الى أن المسلمين لما دخلوا الحصن أساءوا الى النساء والاطفال ، فأوصد خلفهم الصليبيون الابواب وذبحوا المسلمين المعتدين . ( انظر كتاب ولكن جزء ٨ صفحة ٧٦٥ وانظر كذلك كتاب ويل . ملاحظة ٤ ص ١٨١ — حكاية شنيعة )

(٢) اقرأ أبا الفداء ج ٤ صفحة ٢٥

مغربها . ولكنهُ تراجع الى البلاد السورية حينما ظهر له المغول ؛ وكان ظهورهم بعد سقوط المدينة

١٢٩٣

وبعد أن قام ببعض غزوات ليست هامة رجع هذا السلطان الفتى الى القاهرة وعبر النيل فى خرجة للصيد والقنص ، وبينما هو يلهو بالصيد ، انقض عليه عصبة من الأمراء الذين لم يبق فى قوس صبرهم منزع ، لغطرسته وقسوته ، واغتالوه . ولكن أتباع السلطان ، وعلى رأسهم كتبغا ، تعقبوا هؤلاء المغتالين ، فكان أول من ذاق الموت منهم رأس المؤامرة ، رغم ما قدم من رجاء بين أيديهم ورغم اعتذاره بأنهم لم يكن لهم بد من قتله بعد ما أتى بهِ من المظالم والآثام، واعتذاره بأن آثام السلطان ومظالمه لم تترك لهم سبيلاً آخر يسلكونهُ ففعلوا فعلتهم هذه — وقد صاح قائلاً : « يبرر عملنا دعارة السلطان وانغماسه فى الشهوات واللذات مع من حوله من الفتيان ، وعكوفه على معاقرة الخمر حتى فى شهر الصيام ؛ هذا الى وحشيته فى معاملة أصدقاء والده ، وزجه فريقاً منهم فى أعماق السجون ، ثم القضاء عليهم » — والواقع أن ما قاله حق ، ولكنه لم ينجه من مخالب الموت

وبقيت جثة السلطان ملقاة على الثرى سحابة يومين حتى واراها فى التراب قروي ، ثم نقلها أتباعه فيما بعد الى قبته بظاهر القاهرة ، حيث دفنت . وترك من البنات اثنتين ، ولم يعقب ذكراناً . وحكم البلاد نحو ثلاثة أعوام . ومؤرخو المسلمين بالطبع يمجدون اسم السلطان خليل لما قام بهِ من الحروب المظفرة لاعلاء كلمة الاسلام . ولكن لا يعزب عن بالنا ان الضربة القاتلة التى قضت على جنود الصليب ، كانت بيد رجل وضيع الخلق كثيراً وهو السلطان خليل ، وقد وصفهُ بهذا هؤلاء المؤرخون أنفسهم



# الفصل الثامن

## السلطان الناصر بن قلاوون — السلطان كتبغا — السلطان لاجين

( ١٢٩٣ — ١٢٩٩ م . )

١٢٩٣

يكاد ينحصر تاريخ البلاد فى الأعوام الخمسة التى أعقبت موت السلطان خليل فى حوادث مؤامرات وقتل يتلو بعضها بعضاً بسرعة . انتخب الناصر أصغر أولاد قلاوون سلطاناً لمصر باجماع الآراء بعد قتل أخيه ؛ وكان اذ ذاك فى التاسعة من عمره ؛ ثم خلعه كتبغا بعد عام من توليته ، وولى مكانه لاجين . ولما قتل لاجين ، كما سيأتى بعد ، أعيد الناصر ثانية إلى العرش

ديسمبر

على أن حكم الناصر للبلاد فى سلطنته الأولى لم يكن إلا اسماً فقط ؛ وذلك لأن كتبغا وصيه ، والشجاعى وزيره ، قبضا على زمام الأمور فى البلاد وأعملا السيف باسراف فى رقاب كل من وصلت اليهم ايديهما ممن ائتمروا بالسلطان الأشرف خليل فقطعت أيدى وأرجل ثمانية من هؤلاء ثم شدوا على ظهور الابل ، وطيف بهم حول المدينة حتى فاضت ارواحهم . وقد دفعهما الحقد على وزير[1] السلطان خليل الذى كان مقدماً لديه الى القبض عليه وتعذيبه حتى الموت ، ابتغاء الحصول على امواله الكثيرة

على أن الحال لم تدم طويلاً حتى شجر بينهما الخلاف واضطرمت نار الحقد ، وكان الشجاعى صاحب الكلمة النافذة على كل المماليك البرجية الذين فى القلعة فى حين أن كتبغا المغولى كان يشد أزره حزب من بنى جنسه أخذ عدده يزداد بسرعة ؛ وقد سعى الشجاعى فى نصب الشراك لكتبغا أثناء دخوله القلعة ، فأدى

(١) هو شمس الدين بن سعلوس . والذى قبض عليه وعذبه هو سنجر الشجاعى ؛ قال ابن اياس ( وجعل يعاقبه ويعصره بالمعاصر حتى مات ج ١ صفحة ١٣٠ )

ذلك إلى إضرام نار حرب داخلية بينهما كانت نتيجتها أن حاصر كتبغا القلعة وقتل الشجاعى . ولما صفا الجو لكتبغا طمح الى كرسى السلطنة ، فصادق لاجين وغيره ممن اشتركوا فى المؤامرة على السلطان السابق لينال بهم وطره ؛ فأثار ذلك غضب أتباع بيت قلاوون ، لدرجة جعلتهم ينحازون الى الحزب الثائر عليه . وأوقدوا نار الفتنة ، ونهبوا الأسواق ودور الحكومة ، وعاثوا فساداً فى المدينة يوماً وليلة . فكانت مسرحاً للهياج والدمار ؛ ثم قبضوا على بعض الزعماء من أتباع بيت قلاوون وقطعوا أوصالهم ،[١] وفر عدد كبير من رجالهم ؛ وقد اتخذ كتبغا هذا الاضطراب وسيلة يتذرع بها الى القول بأن بقاء مقاليد الأمور فى يد طفل ، أمر يهدد سلام البلاد ، فخلع السلطان الناصر وأرسل الى الكرك من أعمال الشام

ديسمبر
١٢٩٤

ولما اعتلى كتبغا أريكة عرش مصر على هذا الشكل ، أدى بهِ ضعفه وقصر نظره أن ملأ مراكز الحكومة بأتباعه وأذنابهِ ، ورقى كثيراً من مماليكه الى مرتبة الأمراء ، فصرف ذلك عنه قلوب الأمراء الأقدمين . وكان من سوء حظه كذلك أن رحب بطائفة العويراتية ، وهم قبيلة من همج التتار يبلغ عدد أسرها (١٨٠٠٠) طردوا من بلاد الفرس ، وأنزلهم هو وقتئذ فى بلاد سورية . ومع أنهم دخلوا تدريجاً فى الدين الاسلامى ، فان الناس أبغضوهم لطبائعهم الوثنية وخاصة أكلهم لحوم الخيل[٢] وقد أصاب كتبغا نفسهُ نصيب من المعرة بانتسابه لهذا الجنس . وفى مدته نزل بالبلاد قحط ، استمر زمناً طويلاً ، وأعقبهُ وباء فنتج عنهما بطبيعة الحال بؤس وشقاء وخسارة كانت التبعة فيها واقعة على السلطان[٣] . ولما أراد أن يسد النقص الذى حدث فى ايراد البلاد طاف بجيشهِ فى بلاد سورية وانتزع بالقوة

(١) ذكر المقريزى أن بعض هؤلاء التعسين قطعت أيديهم وأرجلهم وألسنتهم . وعلق بعضهم على أبواب المدينة ، وقد جرى ذلك على نحو ثلثمائة نسمة

(٢) انظر تاريخ أبى الفداء ص ٢٣ جزء ٤

(٣) بلغ ثمن البطيخة فى هذا القحط مائة درهم . ومات فى القاهرة من الوباء فى شهر واحد ( ١٧٥٠٠ ) نسمة . ويقول ابن اياس ان مجموع الوفيات بلغ ( ٧٠٢٠٠ ) نسمة . وكانت جثث الموتى المطروحة فى كل مكان تلقى فى النهر وتنهشها الكلاب التى كانت تذبح ويأكلها الفقراء الذين كانوا يتضورون جوعاً



من ولاياتها المختلفة ما امكنهُ أن تصل اليه يده من المال . غير أن سوء معاملتهِ للأمراء زاد فى انصرافهم عنهُ وسخطهم عليه ، ولذلك دهموه فى « حمص » عند خروجه للصيد ، فأفلت من أيديهم وهرب الى دمشق حيث وجد أن لاجين قد مكن لنفسهِ فى البلاد وأعلن سلطاناً عليها ، فأذعن له وأشهد على نفسهِ بالخلع ، ثم حلف يمين الطاعة له

ديسمبر
١٢٩٦

بويع للسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بملك مصر بأجماع الآراء ؛ وكان من مماليك السلطان « أيبك » ثم صار إلى السلطان قلاوون فأعتق رقبته ، وأخذ يدرج فى معارج الرق ، حتى أصبح أميراً ، ثم والياً على سورية . ولما عاد هذا السلطان إلى القاهرة قابله الناس بالحفاوة والبشر ؛ وقلده الخليفة سلطنة البلاد وسار فى ركابهِ اثناء طوافه بالمدينة المزينة . وسر الناس بهِ لأنهُ لما عاد الرخاء الى البلاد رفع عن عاتقهم كل الضرائب الفادحة التى سببها ذلك القحط[١] . غير أن هذا السلطان لم يلبث أن أصبح خاضعاً لنفوذ « منكوتمر » أحد مماليكه ، ذلك أنهُ عينهُ نائباً على البلاد ، ورفع مرتبته حتى صار هو الحاكم المتصرف فى شئونها ، فأخذ يعامل كل من حوله بمنتهى الشدة والقسوة مما آثار الفتن الشعواء فى البلاد

١٢٩٨

ولما رأى لاجين الخطر يتهدده من جانب حاشيته ، أراد أن يشغلهم عنهُ بالقيام بحملة الى بلاد أرمينية وكانت الأحوال ملائمة وقتئذ بما كان قائماً فى تلك البلاد من الخلاف على وراثة العرش ؛ يضاف إلى ذلك أن غازان حاكم الفرس وحليف أرمينية ، كان مغلول اليدين لاشتباكه فى حرب مع أعدائه فى الشرق . وقد أراد ملك أرمينية أن يرد هجوم المماليك على بلاده بشروط مخزية ؛ على أن ذلك لو تم لقضى على مأرب السلطان لاجين من اقصائهم عنهُ وشغلهم بغير اثارة الفتن والهياج ؛ لذلك سار الجيش فى طريقه على أرمينية ، وأطلق يد التخريب والنهب فى البلاد من « سيس » الى « أطنه » ؛ ثم رجع إلى سورية مثقلا بالغنائم . ثم أرسل السلطان هذا

(١) انحط سعر الاردب من القمح من ١٦٠ درهما الى ٢٠ درهماً

الجيش مرة ثانية ليستولى على معاقل معينة كان من بينها معقل « النجمة » الذى لم يسلم الاَّ بعد حصار دام أربعين يوماً

يناير ١٢٩٩

وفى أول العام التالى بعث السلطان لاجين «قبچاق» أحد كبار امرائه على رأس جيش الى حلب حين سمع بأشاعة زحف المغول على البلاد ؛ ولكنهُ فى الواقع أرسل أوامر سرية يحتم فيها أن يدس السم لقبچاق وأصحابهِ أو أن يقضى عليهم بأية وسيلة أخرى ؛ غير ان قبچاق أحس الخطر فهرب هو وأمراؤه ومماليكهم الى الفرس وكان عددهم خمسمائة ، فأكرم غازان ملك الفرس مقابلتهم ؛ ثم أنهم أخذوا يغرونهُ بالهجوم على سورية ، وستأتى آثار هذا الأغراء فى عهد السلطان التالى

على أن حكم لاجين أو بعبارة أصح حكم منكوتمر فى البلاد ما فتئ يثير نار حقد الأمراء وخاصة عند ما وقع التقسيم الجديد فى الأملاك العامة[1] الذى كان من شأنه نقص دخلهم السنوى

ولما بلغ السيل الزبى ، انتهز اثنان من الزعماء ، بعد أن ضاقا ذرعاً باحتمال هذه المظالم ، فرصة غياب الجيش ، وقتلا السلطان وهو يلعب الشطرنج ليلاً فى قصره . وفى الحال انقضا على منكوتمر فأوديا بحياتهِ ، ثم وضعا مقاليد الأمور فى أيديهما ، ولكن ذلك لم يدم غير ثلاثة أيام ، اذ رجع بعدها الجيش إلى القاهرة فقتل هذين الزعيمين ؛ واستقر الرأى بعد ذلك على استرجاع الناصر من الكرك . وفى خلال تلك المدة كان يدير الأمور فى البلاد مجلس مؤلف من ثمانية اشخاص

وكان لاجين جديراً بالثناء والمدح ؛ فأنهُ كان نموذجاً حسناً للمسلم الكامل ، فقد تحامى الخمر والميسر ، وكان يصوم الشهور الثلاثة ، وكانت زوجه ابنة السلطان الظاهر بيبرس . وكانت اكبر غلطة له ، أنهُ أفسح المجال لرقى مماليكه ، وتهاون فى سلطتهِ ، حتى أصبح آلة فى يد منكوتمر يحركها كيف يشاء . وفيما عدا ذلك كانت أخلاقه تفضل أخلاق كافة السلاطين العاديين[2]

---

(١) وكانت الأراضى مقسمة الى أربعة وعشرين قيراطاً ، عشرة منها للأمراء . وعشرة للجيش ، وأربعة للسلطان وحاشيته . غير ان القسم الأخير وزع فى التقسيم الجديد بطريقة اغضبت الأمراء ورجال الجيش ( اقرأ المقريزى جزء ٤ ص ٣٠ )

(٢) مما يدعو الى العجب أن مؤرخى زمانه من الغربيين يقررون أن لاجين من أصل ألمانى ، ثم اعتنق الاسلام ، وهذا خرافة ، اذ لدينا من المصادر الشرقية ما يثبت تاريخه من وقت ان اشترى مملوكا ، وهو على الراجح فى سن الثامنة . وقد قال بعض المؤرخين أنه من أصل اغريقى



# الفصل السابع

## عودة الناصر الى العرش للمرة الثانية

### السلطان بيبرس الجاشنكير

( ١٢٩٩ – ١٣١٠ م )

فبراير ١٢٩٩

عاد الناصر الى اعتلاء الأريكة المصرية للمرة الثانية بين هتاف الناس وأفراحهم ولما كان وقتئذ لم يجاوز الرابع عشر ربيعاً ، صار بالضرورة فى قبضة وزرائه ؛ فكان الأمير سلار المنصورى نائب سلطنته ، والأمير بيبرس الجاشنكير رئيس قصره ؛ وكان الأخير منهما ، بحكم مركزه ، صاحب النفوذ على المماليك البرجية ؛ فى حين ان الأول كان له السلطان على الأمراء المستقلين . وكانا يتنافسان فى ترقية أتباعهما واعلاء مكانتهم ، شأن المماليك . وقد كاد التنافس بينهما يبلغ مبلغاً عظيماً لولا أن شغلهما الخطر الداهم من ناحية المغول ، وتخريبهم للبلاد من جديد

الخريف

وذلك ان العداوة القديمة العهد بين مصر وأواسط آسيا قد أيقظتها مهاجمة السلطان لأرمينية ، واكرام مصر لمن فرَّ اليها من عصاة المغول ؛ يضاف الى هذا استصراخ «قبچاق» واخوانه الفارين معهُ ، للمغول . وصلت أخبار المغول الى مصر فى خريف عام ١٢٩٩ م . فزحف السلطان على رأس جيش جرار ، متباطئاً فى سيره ؛ وزاد الطين بلة أن أخره فى الطريق تدبير مؤامرة خطيرة من زعماء قبيلة العويراتية ، الذين انضم اليهم الأمراء الناقمون ، لاغتيال السلطان ووزرائه ، واعادة صاحبهم كتبغا الى عرش مصر ؛ فكانت هذه المؤامرة سبباً فى تأخر زحف الجيش أيضاً . وقد لقى المؤتمرون جزاء فعلتهم ، وسار الجيش فى طريقه . ولما علم المصريون

٢٣ ديسمبر

أن غازان عبر نهر الفرات على رأس جيش مغولى يبلغ عدده مائة ألف مقاتل ،

جدوا فى زحفهم . فالتقى الجمعان عند «سامية» شمالى حمص . وكان الجيش المصرى نحو ثلث جيش العدو فدحر ، وولت جنوده مذعورين . وقد اجتاح المغول ، بالرغم من خسارتهم نحو أربعة عشر ألفاً من مقاتلتهم ، كل شىء أمامهم . وفى ذلك الحين هجر دمشق كل من فيها من الجند والقادرين على الفرار ، وأصبح من بقى فيها فى ذعر وجزع شديدين . غير أن غازان ، لما قارب المدينة ، خرج اليه وفد من كبار رجالها ، فاستقبلهم استقبالا حسناً ، وطمأنهم ، وكف أيدى جنده عن ارتكاب الفظائع ، ثم أعلن للناس عهداً قرئ فى الجامع الأموى ، وهو يكفل حماية الأهالى جميعاً حتى اليهود والنصارى ، ويَعدُ بحكومة عادلة فى كل أنحاء مصر حينما تنضم الى مُلك المغول[1] . ولكن بالرغم من نجاة دمشق على هذا الوجه ، كان ما حواليها ، بل فى الواقع جميع بلاد سورية ، قد أصابها ما يحزن من سلب وتخريب . وقد نصب عليها نائبٌ مغولى ، وعين قبجاق نائباً على دمشق ، مكافأة له . أما قلعتها فلم تسلم بعد[2] . وكان الظاهر من سير الأمور وقتئذ أن البلاد السورية ، أصبحت فى قبضة المغول . غير أن غازان اكتفى اذ ذاك بالتهديد بسرعة العودة الى البلاد أن رجعت الى عصيانها . ثم عاد الى أوطانه بعد شهر

٣٠ ديسمبر

فبراير

وفى خلال ذلك كانت الجنود المصرية قد ألقت سلاحها ، وخلعت ما عليها من الملابس العسكرية ، وفرت من ساحة القتال ، وهى فى غاية الارتباك والفوضى ؛ وقد مرت بدمشق فى طريقها الى القاهرة . وقد وصل السلطان الصغير اليها وهو لا يكاد يكون معهُ جندى واحد . وفى الحال شرع يتخذ العدة لمحو هذا العار ، فجمعت الضرائب الفادحة لتجهيز ما يلزم[3] . ولم يمض شهران حتى كان الجيش

(١) ذكر هذا العهد كاملا النويرى ، وفيه كثير من الآيات القرآنية ، وقذف فى الحكومة المصرية . وفى تأمينه لليهود والنصارى اقتبس من كلام الأمام على ما معناه : اذا دفع أهل الكتاب ما يفرض عليهم من جزية كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا

(٢) كان المتبع وقتئذ ألا تكون القلاع فى سورية تحت حكام المدينة بل تحت قواد مستقلين

(٣) جمع مبلغ كبير جداً من الذهب وعرض فى السوق لتجهيز الجند . وقد نزلت قيمة الدينار من ٢٥ درهما الى ١٧ درهم ، وكثيراً ما كان السعر يقف عند ٢٠ درهما



مارس

فى طريقه لانقاذ سورية من يد العدو . بيد أن المغول كانوا قد جلوا عن البلاد ، فدخلت الجنود المصرية دمشق ثانية ، واستولت على كل أنحاء سورية ، من غير حرب ولا قتال ؛ وعفا السلطان عن قبجاق ومن معه من الفارين . أما دمشق فأخذت تعانى ألوان العذاب من سادتها المصريين اذا انتقموا ممن تخلف فيها من السكان وكانوا يُوادون المغول شر انتقام . وقد استمرت المدينة فى فزع ووجل ، لأن غازان توعدهم بالعود الى سورية فى فصل الخريف ، ولأن المصريين أثقلوا كاهل البلاد بفادح الضرائب

على أن غازان لم يبدأ بالزحف غرباً على البلاد السورية الا فى قلب الشتاء . وكان البرد قارساً ، فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية ؛ وكان الى هذه اللحظة يؤمل ، كما أمل أسلافه من قبله ، أن تساعده الدول المسيحية (مع أنه مسلم) فى انتزاع سورية من قبضة المماليك . وقد بقيت الوفود المغولية تُرسل الى بلاط انجلترة وفرنسا حتى عام ١٣٠٢ م ، ولا تزال الى الآن رسالة من رسائله فى انجلترة يشكو فيها مر الشكوى من تقاعس الغربيين عن مؤازرته[1] . ولما يئس أخيراً من مناصرة الغربيين له ، رأى أن يهادن مصر ، فأرسل وفداً يحمل رسالة عاب فيها السلطان لهجومه على أملاكه من غير سبب ثم توعده بالانتقام اذا لم يقبل الشروط التى عرضها عليه؛ فكان رد الناصر من جنس رسالته اذ عابه على ما ارتكبه أبوه وأجداده الوثنيون ، ووبخه لتحالفه مع دول أوربا التى حاربت الخليفة ودينه . وعلى الرغم مما فى الرسالة من التهديد والوعيد ، قد ختمت بعبارة تؤكد لغازان ، انه اذا خفف من غلوائه ونزل عن غطرسته فأنه يجد السلطان على تمام الأهبة لقبول مصادقته ومصافاته[2] . فلما وصلت هذه الرسالة التى لم تراع فى كتابتها الروية والعقل ، الى

مايو ١٣٠١

اكتوبر

(١) طالع M. Remusat in Mem de l'acad Vol. VII. Page 388 حيث تجد جواب الملك ادورد المؤرخ ١٢ من مارس عام ١٣٠٢ م . وكانت لا تزال فى تلك البلاد روح صليبية ؛ وكانت سيدات جنوة متأهبات للاشتراك فى المشروع

(٢) هذه الرسالة نموذج من التفاخر الشرقى وهى تشغل تسع صفحات من كتاب ويل . وهى مملة فى قراءتها . وفيها كثير من الآيات القرآنية الشريفة

غازان ، عقد العزم على اضرام نار الحرب ؛ ولكنه رأى فى الوقت نفسه أن يمد أجل السلام عاماً آخر

فبراير ١٣٠٢

وقد استفادت مصر من تلك الفترة التى ساد فيها السلام بينها و بين غازان ، اذ دبرت حملة على البدو الذين قاموا فى وجه الحكومة وأقاموا لأنفسهم حكومة مستقلة ، وأقلقوا الصعيد كله ، وآذوا سكانه . وقد تولى قيادة الجيش « سلار » و« بيبرس » بأنفسهما ، فقسم الجيش الى ثلاث فرق ، أخذت العدو من كل جانب ، وأعملت فيه السيف بلا رحمة ، فهلك كل مقاتلة الأعراب ، وسبيت نساؤهم

وفى مايو سيرت حملة أخرى لمعاقبة الأرمن على ما قاموا به من مساعدة المغول . زحفت هذه الحملة نحو « سيس » حاضرة ملكهم فخربت تلك البلاد التعسة ثانية . و بعد هذا الحادث بزمن يسير ، جهز السلطان أسطولا وسيره على الصليبيين الهيكليين الذين كانوا لا يزالون مستحوذين على جزيرة أرواد فغزا الشاطئ واستولى على الجزيرة وذبح سكانها المسيحيين . أما برج الحصن فلم يبق فيه على قيد الحياة غير ٢٨٠ مقاتلا أسروا جميعاً . وهكذا قضى القضاء الأخير على البقية التعسة الباقية من جنود الحرب الصليبية العظمى

وفى عام ١٣٠٣ م . زحف المغول بجموعهم على بلاد سورية فى حملتهم التى طالما هددوا بها وتوعدوا ؛ غير أن غازان رجع ادراجه قبل أن تطأ قدماه أديم سورية وترك القيادة لحميه « قطلوشاه » أما الجيش المصرى الذى يقوده الناصر الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً فانهُ زحف من دمشق وكان قد فرَّ منها فزعاً مذعوراً كل من قدر على الفرار[1] وفى مساء تلك الليلة التى زحفوا فيها التقت جموعهم بجموع

٢١ ابريل

المغول فى سهل « مرج الصفر » وكان عدد المغول ومن انضم اليهم من الأرمن وجنود جورجيا مائة ألف مقاتل

(١) كان الذعر من قرب هجوم المغول عظيما جداً حتى أن بعض الأهلين كانوا يقدمون من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ دينار ثمناً لاى مطية يمكنهم الهرب عليها وقد ترك بعض الناس أسرهم واعتصموا بالقلعة



وفى اليوم التالى دارت رحا الحرب وقد كان يظهر فى بادئ الأمر أن الهزيمة ستكون على المصريين لأن جناح جيشهم الأيمن كسر وولى جنوده لا يلوون على شىء ؛ أما سائر الجيش فثبت للعـدد واكتسح أمامهُ جموعه المحتشدة بعد أن أعمل فيهم السيف تقتيلاً وتذبيحاً . وفى اليوم التالى ركنوا الى الفرار بعد أن بلغ منهم الجهد واتجهوا نحو الصحراء[1] متكبدين خسائر فادحة ، و بعد هذا الظفر رجع الناصر الى دمشق وأقام بها ثملاً بلذة النصر وأرسل الى غازان رسالة تضارع رسالة الظاهر بيبرس الى « بومند » فى روعة ألفاظ الفخر والتهديد والتوعد باجتياح آسيا من أقصاها الى أقصاها . ولما اعتزم العود الى القاهرة كان الفرح شاملا وأقيمت لهُ الزينات على حسب عادات الشرق ففرشت الطرق بالبسط حتى ان حافر جواد السلطان لم يمس أديم الأرض وقد دخل العاصمة فى محفل لم ير مثله من قبل[2]

١٣٠٣

أما فى بلاد الفرس فكانت الحال على عكس ذلك فقد دام العويل والحزن فى ( تبريز ) عدة أسابيع ولما أمض غازان الحزن اعتزل العالم ولزم عقر بيته مدة ثم عاد فجيش جيشاً جديداً آملا أن تمد اليهِ أوربا يد المساعدة فى الهجوم على سورية ثانية ولكن المنية عاجلتهُ قبل أن يخرج مشروعه الى حيز العمل . وقد كان حاكماً حميد السيرة عادلاً يفضل كل القانات ( الخانات ) . وفى مدتهِ بلغت قوة المغول فى الفرس أوج عظمتها غير ان ما حل بداخلية البلاد و بمدينة هيرات من الاضطراب أنقذ الغرب من الهجمات التى كانت توجه اليه من هذه الناحية

١٣٠٤ — ١٣٠٥

وفى خلال السنتين التاليتين عاد المصريون فهاجموا الأرمن التعسين فى عقر دارهم عقاباً لهم على مساعدتهم المغول فى الحرب الأخيرة فنهبت بلادهم كالمعتاد واستولى الجند على حصن « تل حمدون » وخربوه وأعملوا السيف فى كل من كان فيهِ

(١) كان من بين أبطال هذه الموقعـة اثنان من الثقات وهما اللذان نعتمد فى هذا التاريخ عليهما : أبو الفداء والنويرى

(٢) تلا هذه الافراح زلزال؛ ويقول المقريزى أن الموسيق والافراح فى طول البلاد وعرضها كانت على درجة عظيمة من الاسراف والرياء حتى أن الرجال كانوا يودون لو أصابهم زلزال يقضى على حياتهم

من زعماء الأرمن الذين كانوا يحمون ذماره ولم ينج منهم الاّ واحداً اعتنق الاسلام ثم عاد السلام الى نصابه بعد أن دفع أمير «سيس» كل ما كان متأخراً على البلاد من الجزية. وكذلك سير السلطان حملة على الدروز فى معقلهم الجبلى فى كسراوان [١]

وفى غضون تلك المدة أصدر السلطان قوانين صارمة ضد اليهود والمسيحيين ويُعزَى صدورها الى سبب لم يكن فى الحسبان ذلك لأن حكومة أرّجون أرسلت وفداً الى سلطان مصر تطلب اليهِ أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة و بفك أسير مسيحى فأجاب السلطان الملتمس، ولكن حينما كان الوفد عائداً الى الاسكندرية ليبحر منها، رأى السلطان أن يأخذ فدية هذا الأسير وأرسل يسترجعهُ؛ فلم يكتف الأسبان بالرفض بل أخذوا معهم الرسل الذين جاءوا من القاهرة فأوغر هذا العمل صدور المصريين على المسيحيين وأثار ثائر عدوانهم وعاملوهم بالقسوة على الرّغم مما قدمتهُ دول أوربا من الاسترضاء على أنهُ لم يكتف بمعاملتهم عند هذا الحد بل أذِن بمهاجمة المسيحيين والاعتداء عليهم علانية، ولم يكن ذلك بغض النظر من بيبرس فقط بل بتحريضه؛ فأبعدوا من كل وظائف الحكومة وأعمالها وشدد عليهم فى تنفيذ ما كان مشروعاً لهم من ركوب الدواب وهَدَم كل ما شيد من صوامع اليهود وبيع النصارى منذ ظهور الاسلام؛ وقد كتب مرسوم بذلك ونشر في كل أصقاع الدولة من الفرات الى النوبة. وقد اشتد بهم الحال وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلم يجدوا لهم مخرجاً الاّ الهجرة أو الدخول فى الاسلام وكثير منهم من فعل ذلك. على ان هذا المرسوم كغيره فى الواقع لم يلبث أن صار فى زوايا الأهمال تدريجاً ولكن فرض اعادة تطبيقه كانت خطراً يتهدد هؤلاء المساكين من حين الى حين [٢]

---

(١) بين طرابلس ودمشق

(٢) ربما كان من المفيد ذكر المرسوم بايجاز: كان حتماً على اليهودى أن يلبس عمامة صفراء والنصرانى عمامة زرقاء حتى يمكن تمييز كل منهما بمجرد النظر اليه. أما نساؤهم فكن يلبسن غطاء خاصاً على صدورهن به يمكن تمييزهن. وحرم عليهم حمل السلاح أو اعتلاء متون الخيل، ولكن سمح لهم بركوب البغال بشرط أن يركبوا وأرجلهم على جانب واحد منها، ومن غير ان تزين سروجها. وكان من الواجب عليهم أن يفسحوا الطريق للمسلمين ويتركوا لهم وسطها. ويجب عليهم أن يقوموا فى المجتمعات وقوفاً للمسلمين والا يرفعوا أصواتهم فوق أصواتهم، والا



وفى غضون السنوات القليلة التى تلت هذه الحوادث شجر بين حزب سلار وحزب عدوه بيبرس خلاف شديد طالما هدد بوقوع حرب علنية بينهما. وفى أثناء هذه المشاحنات سير السلطان حملة الى بلاد اليمن لامتناعها عن دفع الجزية فاجتهد السلار فى أن تكون قيادة الحملة بيده، ظاناً أنهُ ينال بذلك النفوذ الأسمى فى البلاد، ففطن لذلك بيبرس وأحبط مسعاه فخابت آمال السلار. ولم يكن السلطان الناصر وقتئذٍ محروماً كل سلطة فى ادارة شئون البلاد فقط بل كان فى كثير من الأوقات يترك ساغباً لاغباً حتى يكاد يموت. واتفق ان حال السلطان وشدة عوزه ساءت أحد الوزراء. فقدم لهُ شيئاً من المال هدية لأزواجه فأحس ذلك السلار. وقبض على الوزير وعذبهُ عذاباً شديداً حتى قضى نحبهُ. على ان السلار فى خلال كل تلك المدة كان يجمع القناطير المقنطرة من المال لنفسهِ؛ ولما خرج مرة الى الحج، أنفق كل ما أدخره من مال عن سخاء هنالك ابتغاء الشهرة

ولما قارب الناصر سن الرجولية أخذ يحس ما هو فيهِ من الازدراء، فشرع يعمل على التخلص من وصيبه، فتآمر هو وحاكم القلعة الذى كان يساكنهُ فيها بالقبض عليهما غير أن أمرهما كشف قبل تنفيذه، وأوشك ذلك يكون خطراً على السلطان الفتى، لولا أن قامت مظاهرة عظيمة لتأييده. ومع هذا فقد أجبر على نفى أتباعه الملتصقين بهِ كثيراً، وأصبحت حاله أسوأ مما كانت عليه

١٣٠٩

وقد خضع لهذه المعاملة القاسية حولاً آخر، كان فيه أشبه بالعبد منهُ بالحاكم. ولما لم يبق فى قوس صبره منزع توجه تلقاء مكة متظاهراً بأداء فريضة الحج التى لا يمكن أن ينكرها أحد عليه، أو يمنعهُ منها. وعند ما بلغ الكرك أرسل الى بيبرس

---

يحتفلوا «بعيد الزعف» جهاراً والا يستعملوا النواقيس فى كنائسهم أو يحاولوا بأية طريقة رد أى مسلم عن دينه. وكذلك حرم عليهم أن يمتلكوا عبيداً من المسلمين او اسرى منهم او يكون فى حيازتهم شيء مما وقع غنيمة للمسلمين. واذا ذهبوا الى الحمامات العمومية وجب عليهم ان يعلقوا فى رقابهم اجراساً. وكان محرماً عليهم نقش كتابات عربية على خواتمهم أو تعليم ابنائهم القرآن وكان عليهم ان لا يتطلبوا من العمال المسلمين اعمالا شاقة. واذا ائتلف اى واحد منهم بامرأة مسلمة كان جزاؤه القتل

ولم ينشر هذا المرسوم فى الكرك والشوبك دون سائر بلاد الدولة وذلك لقلة عدد المسلمين فيهما

وسلار رسالة أعلنهما فيها بعزمه على البقاء حيث ألقى عصا تسياره آمنًا مطمئنًا، وانهُ يجب أن يوافى فى الكرك بكل الأمور الخطيرة فى الدولة . أما ادارة شئون البلاد فقد تخلى لهما عنها . وأمر الأمراء والمماليك أن يكونوا فى طاعة سلار بصفته نائبًا للدولة . فلما علم الأمراء بذلك ، أظهروا فى ردٍ عليهِ ، دهشتهم من هذه الفعلة الصبيانية فى نظارهم ، وعقدوا العزم على تخييره بين العود الى حكم البلاد ، أو التخلى عن سلطانه فيها جملة . عند ذلك أعاد الناصر شارة الملك وأعلن ثانية رغبته فى قضاء بقية أيامه فى الكرك ؛ ولكن باب الأمل فى التوفيق بين السلطان وأمرائه كان قد أغلق ، اذ بعد حوار طويل بين الأحزاب المختلفة عند وصول رسالة الناصر الأولى ، كان قد قطع الأمر بانتخاب بيبرس سلطانًا على البلاد

## ﴿ بيبرس الثانى ﴾

كان السلطان ركن الدين بيبرس فى أول أمره مملوكا اشتراه السلطان قلاوون ؛ وما زال يرقيهِ سيده الى درجات العز والشرف والمراتب السامية حتى تبوأ أخيراً عرش مصر ، فكان أول سلطان چركسى المحتد . وقد قبل الملك متردداً خشية قيام سورية فى وجهه . والواقع أن جميع نواب سورية ، عدا دمشق ، كان لا يزال هواهم مع الناصر ، ولم يخضعوا للسلطان بيبرس إلاَّ بعد أن أعلن الناصر رغبته فى القاء عبء الملك عن كاهله . غير أن بيبرس ، رغم ذلك ، كان سيء الحظ منحوس الطالع ، اذ نقص ماء النيل ذلك العام ، فزاد كره الناس له ، وجاء ذلك ضغثًا على ابالة . يضاف الى ذلك أن قد أخذت تفد عليـهِ الأخبار بتحسين العلائق بين الناصر و بين نواب سورية ، فارتاب فى أمر الناصر وأراد أن يقلب لهُ ظهر المجن ؛ فطلب اليهِ أن يرد ما أخذه من الكنوز والمماليك والجياد عند ما غادر البلاد الى الكرك . ولما تبودلت الرسائل الشديدة الجافية بينهما ، اعتقل الناصر رسول بيبرس وسجنهُ . ثم بلغت بهِ الحال من الشدة أن هدد بالالتجاء الى المغول

ابريل



ان لم ينصره نواب سورية ، اذ رأى الناصر بثاقب بصره ان خلاصه من يد بيبرس يتوقف على معاضدة أمراء سورية لهُ ، أولئكم الأمراء الذين كانوا من انصار بيت قلاوون ؛ وكان معظمهم ينحاز الى جانب الناصر . ولم يلبث أن دعا الناصرَ الى ولايتهِ قره سنقر حاكمُ حلب، وأسنديمور صاحب حماة وغيرهما من حكام سورية . و بينما هو فى طريقهِ الى حلب إذ أرسل اليهِ قره سنقر رسالة ثانية يحثهُ فيها على الاسراع فى السير، فوقعت الرسالة فى يد نائب دمشق ، فأجزل العطاء لحاملها ، على أن يبدلها بغيرها مصطنعة باسم قره سنقر ، وفيها يأمر الناصرَ بالعودة الى الكرك . فلما رجع الناصر الى الكرك ثانية . وجد رسالة من بيبرس تنم عن الغيظ وتهدده بالزحف عليهِ بقوة حربية اذا أبى تسليم نفر خاص من الهاربين ، فأرسل اليهِ الناصر رداً يظهر فيه الذلة والمسكنة والخضوع فخفف بيبرس من غرب حدته وكُشِف عنهُ سوء الظن بالناصر الذى كان وقتئذ يتأهب للعود الى سورية فى غفلة من بيبرس

ولما رأى الناصر أن عدته للقيام فى وجه عدوه تامة ، غادر الكرك موليًا وجههُ شطر سورية . وعند ما أحس بيبرس بالخطر المحدق بهِ سير جيشًا فى أثره ، فانضم معظمه الى الناصر ، وبقى بيبرس فى القاهرة خاملاً ، يطلب النجاة لنفسهِ بما أدعاه فى المنشور الذى أعلنهُ . وكان يشتمل على جمل جزلة رنانة ادعى فيها ما له من الحقوق المكتسبة من الخليفة فى البقاء فى كرسى السلطنة

وقد سخر الأهلون من المنشور الكاذب وصاحوا قائلين : « الخليفة ! ومن هو ؟ ان هو الآرب الرياح وسيدها ! » يضاف الى ذلك أن سلار نائب السلطنة — وكان بيبرس منذ عهد بعيد يسيء بهِ الظنون — لزم عقر بيته ليتأهب للاحتفاء بلقاء الناصر لدى عودتهِ إلى القاهرة

وفى هذه الآونة كان ينضم إلى الناصر ، كل يوم ، وهو فى طريقه من الكرك الى سورية جموعٌ من اتباعهِ واخوانهِ ، فدخل دمشق وسط أفراح ملكية تفوق الوصف حتى أن الناس كانوا يدفعون مبالغ لم يسمع بمثلها ليحصلوا على مقاعد فوق

سقف المنازل ، ليشاهدوا منها ذلك الموكب الفخم ، ولما أحس « أقوش » نائب دمشق ، أن الناصر قد اقترب من عاصمته ، فر هاربًا ؛ ولكن الناصر أرسل اليه رسالة بالعفو ، ووثق له فيها الأيمان بصفحه الجميل عنهُ ، فرجع وقدم للسلطان الهدايا من الجياد والابل والكنوز الثمينة . وقد أخذ الأمراء الآخرون يظهرون ولاءهم كذلك فانهالت على السلطان الهدايا من كل حدب وصوب من جميع أصقاع دولته (١٣١٠)

أما بيبرس فانهُ لما رأى أن كل من كان حوله قد نبذوه ، ولى هاربًا الى السويس ومنها أرسل الى الناصر يضرع اليه و يطلب منهُ العفو ؛ فأجاب الناصر ملتمسه ، وزاد بأن وعده بقطيعة فى سورية ، لأن الناصر كان لا يزال يخشى أن يلق معارضة في حاضرة ملكه . ولما علم بيبرس بعفو السلطان ووعده الجميل رجع إلى غزة ، غير أنهُ – كما سيأتي بعد – أودع السجن هناك . وهكذا ختم حكمه النحس الذى لم يجاوز العام إلا قليلاً





# الفصل الثامن

## « عودة الناصر للملك للمرة الثالثة »

( ١٣١٠ – ١٣٤١ م )

(مارس ١٣١٠) صار الناصر من ذلك الوقت صاحب السلطة المطلقة فى البلاد ، لا ينازعه فيها منازع ؛ ولم يلبث أن ظهرت فيه أقبح الخصال التى كان يتصف بها قومه ، فظهر ما كان كامنًا فى خلقه من الحقد والقسوة وسوء الظن والجشع . ولما ذهب عنهُ الروع واطمأن خاطره ، بما لقيه من ميل الأهلين اليهِ ، وحبهم له ، فى حاضرة ملكه ، أخذ يعض بنان الندم ، على ما اظهره من اللين والتسامح مع بيبرس . وأمر أن يؤتى بهِ مصفداً . ولما مثل بين يديه ، أنبه على ما كان يعامله بهِ من الشح والتقتير فى السنين الخالية ، إذْ قال له : « اذكر حين طلبت اليك ذات مرة أوزة محمرة فأجبت وماذا يفعل بها ؟ أيريد أن يتغـذى عشرين مرة فى اليوم » . وعلى الرغم من اعتراف بيبرس بكل ما قال السلطان فانه استرحم ، ولكن صبت عليه السياط ، وحمل الى حجرة الموت فوضع فى رقبته الحبل ؛ ولما بلغت روحه التراقى أمر السلطان بفك خناقه ؛ و بعد أن أشبعه لومًا وتقريعًا أمر بخنقهِ على مشهد منه ؛ والقى جثته فى حظيرة . واستولى السلطان على كل أمتعته ووزع مماليكه بين الأمراء

أما سلار ، فأنه على الرغم من معاضدته للسلطان ، ومصادقته له ، فلم يكن سوء مصيره بأقل من مصير بيبرس . حقًا انه رحب بالناصر ، واستقبله بكل مظاهر الفرح والسرور ونفائس الهدايا ، غير أن حتفه كان أمراً بُتَّ فيه من قبل ، وأجل الى وقت مناسب . وكان سلار وقتئذ قد عين نائبًا على «الشوبك» إجابة لملتمسه . وقد قضى الناصر صيف هذا العام فى التخلص من حزب بيبرس الذى كان يخشاه ، فبالغ فى قتل الكثيرين منه بكل غلاظة وقسوة . ولما خلا له الجو ، وكان قد حل

فصل الخريف ، أرسل رسولاً لاحضار سلار ، فشعر أتباعه بالخطر وحرضوه على الفرار الى بلاد اليمن ؛ ولكنه بعد تردد ، لبى دعوة السلطان . وعلى أثر وصوله الى القاهرة ، طرح فى السجن وحُمِيَ الزاد حتى مات بعد اسبوعين . وكان حاكماً رفيع القدر ، شجاعاً ، كريماً ، عادلاً . وكانت ثروته التى جمعها وهو نائب على مصر ، من كنوز الذهب ، ومن الجواهر والعبيد . والخيل المسومة — في حين انه لم يجر للناصر الاّ ما يقوم بأوده — سبباً واهيا لاغتياله بهذه الحالة المحزنة[1]

وبينما كنت ترى الناصر يسىء الظنون كثيراً بمن حوله من الأمراء أصحاب النفوذ ، وعلى يقظة دائماً لتخضيد شوكتهم واخماد انفاسهم ، تراه قد استعمل الحكمة النادرة والصبر الجميل فى معاملة حزب قوى أتمر على خلعه من العرش ، ليُجلس ابن أخ له عليه . فلما مثل المؤتمرون بين يديه ، عفا عن بعضهم ، ونفى آخرين ، ولم يقتل منهم واحداً . أما « قره سنقر » الذى كانت له عنده أياد بيضاء ، فعامله على عكس ذلك — عامله بما لا يستحق من الحقد والكراهية . وقد أراد أن يأخذه على غرة بترقيته الى نيابة سورية ، ولكن قره سنقر عرف الفخ الذى نصب

١٣١٢

له ، ففر هارباً هو وجماعة من الأمراء المتمردين الى بلاط أويلجيتو ( أخى غازان ) ، وحرضوه على القيام بغارة على سورية . ولما علم السلطان بذلك خرج لنجدة البلاد

١٣١٣

فوجد العدو قد رجع أدراجه؛ فذهب الى الكرك ، ومن ثم ذهب لحج البيت الحرام . وفى غضون السنة أو السنتين التاليتين ، أرسل السلطان الحملات على بلاد الأرمن

(١) كان سلار عبداً مملوكا يوعرتى الجنس ، اشتراه السلطان قلاوون . ولم أر من المناسب التكلم باسهاب على موته الذى ربما كان مغالى فيه ، فانه قبل ان الناصر ارسل اليه صينية فكشف غطاءها متلهفاً على ما يسد به خلة جوعه . فلم يجد فيها غير ثلاثة اطباق احدها ممتلىء ذهباً والآخر فضة ، والثالث مفعم باللؤلؤ والجواهر . وقد اكل راحتيه وبقيت اصابعه حتى مات عاضاً عليها . . . ويقال انه ترك نحو ثمانمائة الف الف دينار . فاذا سلمنا بصحة هذه المبالغات . فان فى ذلك دافعا كبيراً الى شره الناصر ، وسبباً قوياً لاغتياله . يضاف الى ذلك معاملة الشح التى كان يعامل بها سلار سيده الناصر فى حكمه الثانى . وفضلا عن ذلك ، فان سلار كان مع الذين تآمروا على قتل اخى الناصر .



التعسة ، وحصرت عساكره « ملطية » وعلى الرغم من تسليم المدينة ، فان الجنود أطلقوا فيها يد التخريب والنهب وسَبَوا كل من فيها من المسيحيين[1]

وعلى الرغم من عدم اشتباك جنود أويلجيتو مع مصر فى حرب فعلية ، فانهُ لما اعتنق مذهب الشيعة وتغلغل فيه ، عمل على نشره فى الجهات الغربية . وكان كأسلافه يطمع فى الاستيلاء على سورية ومصر أيضاً ؛ فأرسل بعوثاً الى البابا وحكومات أوربا ، كما فعل «غازان» من قبل ، ليساعدوه فى الاستيلاء على سورية ثانية ومعاقبة مصر الزائغة . ولكن بعوثه لم تلق فى أوربا قبولاً ، ولم تسفر أعماله عن نتيجة ما[2] . ثم رجع ابنهُ «ابو سعيد» الى مذهب السنيين . ولما رأى أنهُ مغلول اليدين فى حرب مع قبائل الأزبك ، وكان يخاف على تخوم بلاده المجاورة للبلاد السورية ، رأى أنه من الحكمة وأصالة الرأى أن يخطب ود مصر ؛ فصادف ذلك هوى فى نفس الناصر ، اذ كان لا يريد أن يرى البلاط المغولى مأوى للخارجين عليه من رعاياه ؛ فعقد صلحاً بينه وبين أبى سعيد . ولقد عظم ما بين الدولتين من المصادقة والمصافاة حتى اعترف كل منهما براية الآخر فى الحج . ومما يدل كذلك على تبادل المحبة وحسن العلائق بين الدولتين ، ما ارتكبه سلطان مصر من قتل «طمرطاش» أحد عصاة المغول وقد استجاره فأجاره وأسكنه القاهرة مدة . ولما أرسلت رأسه الى أبى سعيد ، وعده بإرسال قره سنقر ، وكان الناصر قد حاول قتله من زمن طويل . ولما جاء نعى قره سنقر بعد مدة الى السلطان رأى أن غليله لم يشف ،

(١) كان أبو الفداء حاضراً هذا الحصار . وقد حاول عبثاً منع الجنود عن ارتكاب الفظائع والعمل بمقتضى الهدنة . وكان أبو الفداء وقتئذ نائب حماة مقر ملك أجداده . وقد لقى أسنديمور ، رغم معاضدته حديثاً للناصر ، مالقى قره سنقر من الجزاء . وقد ذكر أبو الفداء أنه اعتقل فى الكرك ، ولم يسمع عنه خبر بعد ، فلا بد من أنه لاقى فيها منيته

(٢) وقد ذكر ريموزا فى Mem. de l'acad. des incript. vii, pp. 389 et seq. تفاصيل شيقة عن تلك المفاوضات . وفى دار سجلات باريس رسالة الى فيلب الجميل يرجع تاريخها الى مايو سنة ١٣٠٥ . أما البعث الذى ذهب الى انجلترة فقد أجابه ادورد الثانى فى نوفمبر سنة ١٣٠٧ ، وقد أظهر ميل الخان فى الانضمام الى المسيحيين لكسر المماليك . وكذلك جاءت رسالة الى البابا كليمنت الخامس ترمى الى الغرض نفسه . وقد أدت رسائل هذا الخان ، التى كان

وصاح قائلاً « ياليت ذلك كان بحد سيفي لابسيف غيري [١] ». وقد ظلت مصر الى ذلك الوقت بمأمن من المغول وهجماتهم الى عهد تيمور لنك . وقد كانت الفتن والاضطرابات التى أعقبت موت أبى سعيد سبباً فى اتجاه مطامع الناصر نحو بلاد الفرس؛ فبدأ ذلك بمناصرة « حسن الأكبر » « على حسن » الأصغر ولدى « طمرطاش » الذى اغتال حياته . وقد تملكه الفزع والرعب حينما سمع بظهوره ثانية فى عالم الوجود . ثم أرسل جيشاً لمعاضدة حسن الأكبر ، على شريطة أن يعترف له بالسيادة فى بغداد ؛ وعلى ذلك نقش اسمه على السكة الفارسية ودعى له فى الخطبة . بيد أن المتحاربين تصالحا فوضعت الحرب أوزارها قبيل وفاة الناصر ؛ و بذلك قضى بالخيبة على آماله وأطماعه العظيمة . على أن تغيير العلاقات بينه و بين المغول لم تؤثر قط فيما كان من المصادقة بينه و بين أمير الأزبك [٢] عدوهما . وكان السلطان قد تزوج من ابنته منذ بضع سنين ( عام ١٣٢٠ ) بعد حوار فى أمر صداقها

١٣٣٦

١٣٤١

وكانت بلاد أرمينية مسرحاً لاغارة الجيوش المصرية ، فى خلال حكم الناصر . وقد أوذيت كذلك من جانب المغول ، منذ دخولهم فى الاسلام ، بعد أن كانوا حماتها . ولما تولى عرش البلاد « ليو الخامس » القاصر عام ١٣٢٠ حل بها الوهن والضعف لما كان فيها من الشقاق ، فغزاها جيش سورى ، وخرّب عاصمتها وأحرق قصر ملكها ، ونهب قراها . و بعد ذلك بعام أو ما يزيد على العام ، سير السلطان جيشاً الى بلاد الأرمن ، متظاهراً بجمع الجزية ، والحقيقة أنه أراد انتهاز فرصة قيام الحرب بين « أبى سعيد » وأمراء الأزبك ، ليوسع حدود بلاده نحو الشرق . فلما رأت حكومة

١٣٢٢

الغرض منها التحريض على مصر ، الى الاعتقاد بأنه هو يميل الى اعتناق الدين المسيحى ، وكان ذلك منافياً للحقيقة . و بعد موت أمه المسيحية أوغل فى الاسلام كأخيه الا انه انتمى الى الشيعة

(١) كان قره سنقر اذ ذاك حاكم « مراغه » وقد مات بعد ذلك بستة أعوام . وليس مؤكدا انه مات حتف أنفه أو بيد أبى سعيد انجازاً لوعده . ويقال أن الناصر أرشى نحو مائة من الفدائيين لقتل قره سنقر لانه كما نعلم « كانت تلك الفئة سهام الناصر » Mem. Arch. Fr. Tome VI. page 429.

(٢) هم التتار الشماليون ومقر ملكهم حران



« سيس » وقتئذ أن حلفاءها السابقين قد انفضوا من حولها ، وأنها أصبحت عرضة للتخريب ، قبلت راضية عقد الصلح مع الأعداء بما عرضوه من شروط . و بعد بضع سنين أخذ « ليو » ملك الأرمن ينحرف عن ولائه لمصر ، وذلك لما كان يأمله من مساعدة الحملة الصليبية التى شرع فيلب السادس [١] فى انفاذها . وقد حدثت بعض إغارات على الحدود السورية من جانب الأرمن فسير الناصر اليهم جيشاً لتأديبهم فأوغل هذا الجيش فى البلاد ودمر بلدة « اياس » على أهلها . ولكن بمجرد أن أذعن « ليو » لمطالبه وضعت الحرب أوزارها ورجع الجيش

وكان الناصر مهتماً كثيراً بشئون مكة والمدينة ؛ وكان ما بين شرفائها من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . وقد تمكن ملك التتار أوبلجيتو ، فى وقت من الأوقات ، من ضم الأشراف الى مذهب الشيعة فاستبدل اسمه فى الخطبة باسم السلطان . ولكن ذلك لم يدم طويلاً فان العرب تألبت عليه وهاجمت جنوده فصار الناصر ثانية صاحب السلطان على تلك الأماكن المقدسة ، وكان يمدها بالغلال عن سخاء عند ما تصيبها السنون

أما فى الجنوب فكانت بعوثه الحربية المتتالية تصل الى سواكن ، لتأديب العرب الذين اعتادوا تخريب الصعيد ونهبه ، وللسعى فى اخضاع النوبة التى طالما حاول الناصر أن يجعلها تحت حكم ملك مصرى . وبقيت الحال فى بلاد النوبة مضطربة مدة من الزمان ، ثم رجعت فيما بعد الى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة

وفى عام ١٣١٦م. ثار جم غفير من الدروز ونهبوا « جبلة » ، و بعد أن أفنوا خلقاً كثيراً من أهلها عادوا وهم يصيحون قائلين : « لا إله الا على ! » فشتت نائب طرابلس شملهم

ثم أخذ الناصر يسعى بكل ما لديه من قوة ، فى القضاء على تلك العقيدة الفاسدة حتى هدد بالقتل كل من حاول اذاعتها [٢]

(١) تلاشى هذا المشروع عند موت البابا جون الثانى عشر .

(٢) كانت هذه الفئة تعتقد أن عليا هو خالق السموات والأرض وأن كل أعقابه مقدسون . وكانوا كذلك يعتقدون فى تقمص الأرواح . وكانوا يؤولون آيات القرآن فى تفاسيرهم بما يتفق وأهواءهم ، وأباحوا شرب الخمر .

١٣٠٨ وقد امتد سلطانه غرباً فى شمالى أفريقية ؛ كما امتد فى غيرها من الجهات الأخرى .
١٣٠٨ - ١٣٢٠ وقد بقى حاكم طرابلس مدة طويلة يعين من قِبَله ؛ وصارت اليه تونس مدة بمؤازرة
مصر له ، ثم أخرج منها أخيراً . أما فى بلاد العرب السعيدة ، فكان السلطان يتدخل
١٣٢٥ بين أمرائها فى منازعاتهم ، رجاء أن تكون له ضلع فى إدارة شئونها الداخلية وفى
تجارة الشرق ؛ ولكن جيشه قوبل مقابلة عدائية ، واضطر الى التقهقر فى الصحراء ،
فتكبد المشاق ؛ وحلت به الخسائر

هذا موجز لسياسة الناصر الخارجية ؛ وما رأيناه فيه من النجاح بوجه عام ، يدل
على أن الناصر لم يكن بالقائد الحربى ؛ فكأن نبوغه كان فى ميدان السياسة لا فى
ميدان القتال . ولقد كان طموحاً الى العلا ؛ غير أنه لم يسلك فى كل أعماله سبيل
الأمانة والعدل والاستقامة

وكانت تدور بينه وبين الممالك المجاورة له الرسائل والمكاتبات . فقد أرسل
١٣٣٠ ابن طغلون أمبراطور الهند وفدين ، يطلب اليه المساعدة على المغول . وكان بين
مصر وحكومة بوزنطية علائق سياسية استلزمت أن تكون الروابط بينهما وطيدة ،
١٣٢٧ اذ كانتا تخافان استمرار زحف قبائل التركمان غرباً . وقد طلب البابا الى الناصر
أن يعامل رعاياه النصارى برفق مقابل معاملة المسلمين النازلين فى الغرب بمثل تلك
١٣٣٠ المعاملة . وجاءت كذلك وفود من فرنسا وغيرها ترمى الى هذا الغرض . وقد تغالى
بعضهم اذ طلب الى السلطان اعادة بيت المقدس الى الصليبيين والنزول لهم عن
ثغر ينزل فيه الحجاج ، فرفض الناصر هذا الطلب بغضب شديد

وكان الناصر يعمل جهده فى نصفة المسيحيين ، واقامة العدل فيهم ؛ على ان
حالتهم وقتئذ ، لم تكن تدعو الى حسدهم أو الحقد عليهم . وقد سعى من زمن بعيد
فى السماح لهم بلبس عمامة بيضاء ان أرادوا ذلك ولكن ذهبت مساعيه ادراج الرياح

وفى عام ١٣١٤ وقع حادث مشئوم أثار عواطف الذين كانوا متحفزين للوثوب
١٣١٤ على المسيحيين وذلك أن المسيحيين استعاروا بسطاً ومصابيح من أحد المساجد



للاحتفال بعيدهم ، فقام أحد المتعصبين وعصبة لهُ ، وهاجم المسيحيين وهم يتعبدون
وخرب كنيستهم . فلما علم السلطان بذلك حنق على هذا المتعصب ، وهدده بقطع
لسانه . ثم هدأت أخيراً سورة غضبه وصرف الجانى بعد أن حذره العودة الى مثل
١٣٢١ ذلك العمل ؛ على أن ما كان مخبوءاً لهؤلاء النصاري البائسين أصبح منهم قاب قوسين
أو أدنى ؛ اذ لم يمض بضع سنين حتى عم التذمر من المبالغة فى الرفق الذى كان
يعامل بهِ المسيحيون ؛ ومع ما بذل من المجهودات فى تهدئة ذلك التذمر ، خربت
للنصارى نحو الستين كنيسة ؛ وشب على أثر ذلك حريق فى المدينة ، ثم اندلع اللهب
فى كثير من أنحائها ، فأسخط ذلك الأهلين على المسيحيين لأنهم ظنوا أن النصارى
هم مسعروا تلك النيران ، وأخذوهم بالعذاب حتى حملوا بعضهم على الاعتراف بأنهم
هم الفاعلون . أما الناصر ووزراؤه فقد وقفوا موقفاً حميداً يذكر لهم اذ واجهوا الخطر
منتصرين للحق ؛ ولكنهم حين أخفقوا فى صد هذا التيار الجارف لم يروا بداً من
تنفيذ القوانين بكل صرامة . وقد ساءت حال المسيحيين اذ ذاك ، حتى أنهُ لم يجسر
واحد منهم على الخروج من بيته الا اذا ارتدى رداء اليهود الأصفر . وقد هاجم
جماعة من المماليك وزيراً كان انتحل الاسلام حديثاً ، ظانين أن ميوله لم تزل مسيحية
وفى هذا ظهر الناصر أيضاً بمظهر الثبات وأرجع المشاغبين الى القانون . ومما يدل
١٣٢٣ على وقوف الناصر موقف المنصف أنهُ بعد هذا الحادث بزمن يسير ، انقضَّ فى
دمشق أحد الصوفيين المتعصبين على ناموس ( كاتم سر ) مسيحى وقطعهُ إرباً [1]
عند ما رأى أحد المسلمين يقبل يده ؛ فأمر السلطان بشنقه وتعليقه على باب المدينة
غير مبال بصياح الناس وحماستهم لتخليصه . وكذلك قضى السلطان ، بما أوتى من
١٣٢٧ الثبات والعزيمة [2] ، على زعماء ثورة خطيرة فى الاسكندرية . وقد حدث فى دمشق

(١) وهذا برهان عرضى على أن القوانين التى كانت تستعمل ضد المسيحيين كانت دائما تترك فى زوايا الاهمال .

(٢) وسبب ذلك غريب فى بابه : سببه أن رسولاً من القسطنطينية كان يسمع لقصاص مع جم غفير من الناس . وعند ذكر النبي صلى كل الحاضرين عليه الا هذا الرسول فانه بقى صامتا ، فقام الجمع عند ذلك على كل المسيحيين الموجودين فى المكان

أيضاً أن كاتباً مسيحياً، اعترف، وهو يعذب بالكى، ان لهُ يداً فى حريق. فقتل
هو ومن معهُ، وفرضت ضريبة فادحة على جماعة المسيحيين، فعاقب السلطان النائب، ١٣٤٠
على ذلك عقاباً أليماً

وعلى الرغم من كل هذا، قتل فى عهد الناصر ثلاثة وزراء مسيحيون، إما لأخذهم
البلاد بالصرامة والقسوة، وإما على ما يقال، لجمعهم القناطير المقنطرة من الذهب
والفضة. والحق أن قصة أحدهم ليست الآ سلسلة فظائع، لو صح بعض ما قيل فيها،
لكانت أكبر برهان على ما كان يرتكب من الفظائع والوحشية فى تلك الأيام — ذلك
هو الوزير «نَشْو» — وهو نصرانى أسلم ورقى الى أعلى درجة فى أعمال الحكومة — ١٣٤٠
ارتكب من فظائع التعذيب بالسوط وغيره، ما أثار حنق الأهلين وسخطهم[(١)].
وقد لبث الناصر زمناً طويلاً غير مصدق لما يقترفهُ الوزير من المظالم؛ وكان كل من
الفريقين — الوزير ومن ينزل بهم عذابهُ — يستعمل الخيانة و يغلظ الايمان، صادقة
كانت أو كاذبة، تبريراً لصدق دعواه. وقد قبض أخيراً على هذا الوزير، فوجد
فى بيتهِ صليب من الذهب وخمر ولحم خنزير (علامات خفية على مسيحيته)، مما أثار
حنق الأهلين عليهِ حتى جعلهم يصيحون طول الليل، رافعين الأعلام والمشاعيل
حول القلعة. فاضطر السلطان أخيراً الى الحكم على «نشو» بالقتل، بل وبقتل أمه
وأخوته معهُ. ثم دفن فى مقابر اليهود، وأقيم الحراس على قبره زمناً طويلاً مخافة أن
تؤخذ الجثة وتحرق

ولم تكن معاملة الناصر الحسنة للمسيحيين الذين كانوا حوله، لمهارتهم الفنية
وولائهم لهُ فحسب، بل لثقته بأنهُ لن يكون منهم من يناهضهُ فى الملك. لذلك ترى
الناصر على أحسن ما يكون مع أمرائه، ومن التفّ حوله ما دام لا يجد بينهم من
يثير شكوكه، أو يحول بينهُ وبين أطماعـهِ الأشعبية؛ فاذا ناهضهُ احد، فلا ترى

(١) كان يلف يدى فريسته فى القماش المغموس فى الراتينج المغلى. وقد سلخ جلد أم
سلفه باجلاسها فى الزيت المغلى وعذبها حتى أجهضت. وتفاصيل تلك المسألة المحزنة تشغل ست
صفحات من كتاب ويل (فليرجع اليه من شاء)



فيهِ إلاَّ غادراً سفاكاً أثيماً. وقد روى عنهُ نحو مائة وخمسين حادثة ارتكبها بالسم
أو بالجوع أو بالقتل؛ ويكفى دليلاً هنا، ما صنعهُ مع «تنكيز» وهو مملوك اشتراه
أسلافه، ونصح فى خدمتهِ للناصر نحو ثمانية وعشرين عاماً نائباً عنـهُ فى دمشق،
فقتل فى آخر سنة من حكم سيده. وقصته من أغرب القصص وأسوئها وقعاً،
ولا يكاد العقل يقبلها؛ فانهُ فضلاً على ما أبداه من البسالة فى ميدان القتال مع التتار،
قد غامر بحياته فى المفاوضات التى مكنت الناصر — وقت احداق الخطر به وهو فى
الكرك — من استمالة أمراء الشام الى جانبه. وقد كوفئ على هذا الصنيع بنيابة سورية
وقد كاد يكون ذا الأمر المطلق فى شئون هذه الاصقاع، وكان يستدعى كثيراً
الى القاهرة ليستشار فى عظيمات الأمور. وتزوج الناصر من ابنته؛ ولما وضعت حملها
دعا السلطان تنكيزَ وأسرته للحضور الى القاهرة، فلبى ولما دنا من العاصمة، خرج ١٣٣٩
السلطان فى محفل للقائه، ودخل بهِ الى القصر فى موكب عظيم، وأفاض عليه من
نعمائه، وأولم له الولائم التى تفوق الوصف. وقد أمر السلطان بناته ان يلقبنهُ بعمهن،
وأن يقبلن يده؛ بل عقد على اثنتين منهن لولدى تنكيز؛ وبعد أن مكث مدة
ناعماً فى بحبوحة عز السلطان منقلباً فى نعمائه بما لم يسمع به من قبل، غادر العاصمة.
وقد قال للسلطان عند وداعه له لى «لم يبق غير أمنية واحدة، وهى أن أموت
قبلك» فصاح الناصر قائلاً «معاذ الله، فمن بعدك يعول نسائى ويحفظ ولدى على
العرش فى شرف». ولم يكد ينصرم عام واحد على تلك الصداقة الخالصة حتى
انقلبت الى حقد وبغضاء. وما ذكر لذلك الانقلاب من الأسباب لا يكاد ينطبق
على الواقع مطلقاً؛ فقد قيل أن الذى أثار غضب السلطان على تنكيز ما أتاه هذا
من القسوة مع المسيحيين المتهمين باشعال النيران، واستخدامه الأموال التى جمعت
منهم فى اصلاح الجامع بدمشق، بدلاً من ارسالها الى السلطان. وكذلك قيل أن
الناصر غضب لما علم أن «تنكيز» يرغب فى تأجيل اقامة زفاف ولديهِ الى بناته لفرصة
أيسر مما هو فيها. وأخيراً قضى أمر السلطان أن يحضر تنكيز بولديهِ الى القاهرة

لاقامة العرس فيها ، ولكن كانت دسائس الغدر والخيانة، فى أثناء تلك المدة، قد وجدت مرتعاً خصيباً فى قلب السلطان ، وشعر تنكيز أيضاً بدنو أجله . ولما ساء ظن السلطان بنائبه ، وخاف أن يشق عليه عصا الطاعة ، سير اليه قوة لتقبض عليه فى دمشق . ولقد كاد يطير فرحاً حينما سمع أن فريسة آتية اليه مكبلة بالسلاسل والاغلال حتى أمر بنشر ذلك الخبر السار . ولما حضر تنكيز الى القاهرة على تلك الحال بدأ وزراء الدولة يحققون معهُ . فأجاب عن نفسه بما يبيض صحيفتهُ، ودحض كل ما وجه اليه من التهم حتى طلب المحققون الى السلطان أن يسمح لهُ بقضاء بقية حياته فى هدو وسكينة ، ولكن طلبهم لم يجد من السلطان أذناً مصغية ؛ فأرسل ذلك التعس الذى هو موضع حقده الى الاسكندرية حيث أذيق ألواناً من العذاب ، كي يعترف بأسماء من يظن أنهم معه من المجرمين ، و يظهر ما يخفيه من الكنوز والنفائس ؛ ثم قتل مع كثيرين من الأمراء الذين كانوا موضع محبتهِ وثقته . وقد كان ما تركه تنكيز ، والذين قتلوا معهُ من الأموال عظيماً ، مما جعل الناصر يقبل مع الارتياح ما تجاسر بهِ بعضهم من توجيه اللوم اليـه على معاملة تنكيز القاسية [١] . وكذلك كان يعامل كل أمير ظهر بمظهر الثورة أو القوة فى طول البلاد وعرضها — كان يفسح لمثل هؤلاء المجال فى جمع الأموال ثم ينقض عليهم فى الوقت المناسب لأية تهمة أو وشاية فيودى بهم ثم يستحوذ على أموالهم . وكان أحياناً يخفى مقاصده عدة سنين حتى تحين الفرصة ثم يكون الويل لمن يقع فريسة بين مخالبه . ولكن في الوقت الذى تراه فيه متلوناً متقلباً قاسى القلب مع الغنى، تجده مع سائر الناس ملكاً عاقلاً عادلاً قادراً

١٣٤٠

وقد أزاح عن كاهل الناس الضرائب المرهقة وقضى على اقطاعات الأمراء التى كانت تنقص من دخل الحكومة ، ومسح الأراضى المصرية ، وأعاد النظر فى مصروفات دواوين الحكومة . فكان كل هذا من الاصلاحات المفيدة فى تلك

(١) ذكر ويل القصة مع تطويل ممل بلغ نحو احدى عشر صحيفة ولكنها تفسر أخلاق الناصر وتبين حالة عصره



الأيام . ولما نكبت البلاد بقحط شديد جلب اليها الغلال من بلاد سورية وحتم على الأغنياء أن يبيعوا ما فى مخازنهم من الغـلال بأسعار محدودة ؛ وهذه طريقة سهلت لعامة الناس الحصول على أقواتهم بدون عناء كبير ، و إن خالفت فى ذاتها المبادىء الاقتصادية

أما أعمال الناصر العامة التى كثرت فى طول البلاد وعرضها فأنها رغم ما انفق عليها من المبالغ الباهظة ، وما سخر فيها من الأهلين مما أودى بحياة الكثيرين منهم زادت فى رخاء البلاد وفلاحها ونماء ثروتها وفى حسن رونق حاضرة الملك وبهائها وراحة السكان ورغدهم — ومما يدل على ذلك تلك الترعة الشهيرة الممتدة من «فوه» الى الاسكندرية ( ترعة المحمودية الآن ) فانها فضلاً على أنها فتحت طريقاً تجارياً مائياً بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر فقـد صيرت الأراضى القاحلة التى على ضفتيها جنة خضراء آهلة بالسكان وازدان شاطئها بالقصور الباذخة ، والحدائق النضرة . وكذلك انشأ الطرق فى جميع أنحاء البلاد ولا سيما السد الذى أقامه على الضفة اليمنى للنيل ، فسهل ذلك طرق المواصلات وحمى البلاد من طغيان ماء الفيضان ، وشيد القصور الشاهقة خارج القلعة وداخلهـا لأزواجه وحظاياه وأولاده نخص بالذكر من ذلك القصر الأبلق الشائع الذكر ( أو القلعة البيضاء ) الذى شيده على نمط القصر المسمى بهذا الاسم فى دمشق ؛ وقد جلب اليه المهندسين والبنائين من سورية . وبعد الفراغ من بنائه أقام احتفالاً فخماً وأولم الولائم الملكية . ولا يقل ما شيده هذا السلطان العظيم من المساجـد عن ثلاثين عدا ما أقامه من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس . ولا يزال اسمهُ إلى وقتنا هذا منقوشاً على بعض أجزاء الجامع الكبير [١] وغيره من مبانى المدينة . وكذلك لا تزال آثاره الجميلة باقية من الحجر والرخام والنحاس عليها نقوش دقيقة وكتابة جميلة وغير ذلك من مقاعد وثريات بديعة وتحف وطرائف تشهد بتقدم الذوق الفنى فى الصناعة التى مر فيها

(١) ولا تزال تزين هذا الجامع الى الان بعض المواد التى أخذت من كنيسة عكاء

المصريون إذ ذاك وبخاصة ما عرفوه ممن حولهم من الأمم فأكسبت الناصر محمد بن قلاوون صيتاً كان بهِ خير من عرف من الحكام فى حاضرة البلاد. على أن عنايتهِ لم تكن مقصورة على القاهرة بل تعدتها إلى أمهات المدن السورية ومكة، وعمل ما يلزم لتزيين المبانى العامة وتقدمها. ومما هو جدير بالذكر للدلالة على ما كان يبذل من المال عن سعة وسخاء على المبانى، سواء أكان المال من خزانة الحكومة أم مال الأفراد، أن اكبر وزيرين للسلطان (وسنسمع عنهما كثيراً فيما يلى)، كانا يتنافسان فى ضخامة وفخامة مبانيهما التى لا تزال بقاياها حافظة لاسميهما الى يومنا هذا[1]. ولا بد أن يكون هذا البذل والاسراف قد زاد فى الأعباء التى كان يئن منها الأهلون فقراً وعدماً؛ وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه إلى اثقال كاهل الناس بما كان ينفق على وليجة الملك من الأموال الكثيرة التى قد يحسبها الانسان حديث خرافة لولا ما رواه المؤرخون فى ذلك العصر. فقد روى أن السلطان كانت تمد له فى طريقه لاداء فريضة الحج مائدة وسط حديقة مصنوعة، فى كل صحراء العرب، وعليها الفاكهة والزهور. وقد انفقت احدى زوجاتهِ فى سفرها لقضاء مناسك الحج نحو مائة الف دينار. وقد انفق فى زواج كل من بناته نحو ثمانمائة الف دينار. وكان زواج ابنه فى احتفال يدل على أبهة الملك وعظمة السلطان فأشعل فى القصر ثلاثة آلاف مصباح. وقد مرَّ الأشراف ومعهم مماليكهم

(١) جاء فيما دونته البعثة الاثرية الفرنسية، كثير من الأشياء الشيقة عن هذه الاثار القديمة وعن المبانى التى خلفها الناصر فى القلعة. ويمكن الحصول على صور جميلة جداً لهذه المبانى والمنحوتات والنقوش من Tome VI. 4th. Fascicule مثل صور الجامع والديوان وباب القلعة وغيره مما عليه اسم الناصر. وفى صحيفة ٨٦ Tome XIX توجد ثلاثة نقوش على حيطان القلعة من جهة باب صلاح الدين كلها فى مدح الناصر ومفاخره. وجاء فى Tome III ص ٦٠ و ص ١٠١ ملاحظات شيقة، منها واحدة عن الباب الاخضر «باب الزدمرد» وهو قصر ابنة السلطان التى تزوجها قوصون. ومما هو جدير بالذكر أنه لا تزال بقايا من قصر بيسان الذى اشتراه هذا الامير ومن قصر الجبل وقصر بشتاك وعليه اسم مناظره. وهذان هما الوزيران اللذان ذكرا سابقاً (Troisième Eascicule pp. 60, 100 et seq.) انظر كذلك الصور الجميلة التى فى (دليل دار الاثار العربية) تأليف ماكس هرتز، بالقاهرة



يحملون المصابيح بايمانهم وقد استغرق ذلك هزيعاً من الليل؛ ثم اجتمع نساء الأمراء فى القاعة الكبيرة ومرت كل منهن أمام العروس حانية الرأس ومقدمة بيدها هدية العرس. ثم وقفن صفوفاً (وذلك فى رأى المؤلف مخالف للمألوف فى الشرق) وأخذن يرقصن وينقرن بالدف ويغنين أمامهُ

وكان الناصر مغرماً بالخيل وكل أنواع الحيوان فصرف فى اقتنائها هى وصقور الصيد مقادير باهظة. والحق أنهُ كان يبذل عن سعة فى كل ما كان يروقهُ[1] أو تميل اليه نفسه

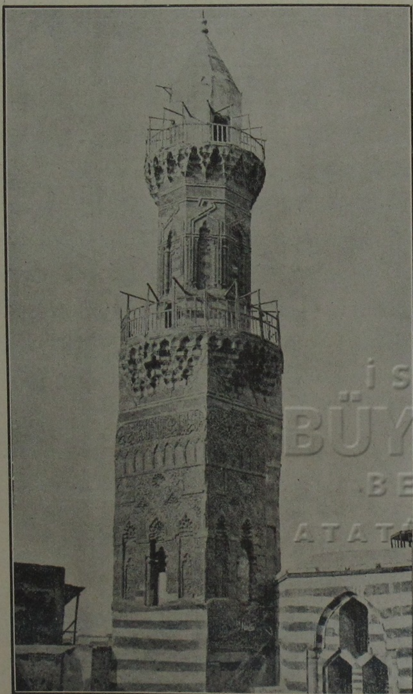
وكان الناصر فى وسط تلك الابهة والعظمة لا يميل إلى الزخرف فى لباسهِ. وكان قصير القامة، على عينه نقطة، أعرج لا يمشى الا متوكئاً على عصا أو خادم. وقد ترك كل ما يتحلى بهِ الملوك من الملبس أو المتاع؛ فى حين أنهُ كان يبذل من هذه الأشياء الكثير للأخصاء من مماليكه، حتى اصبح مقام المملوك مما يرغب فيهِ ويسعى اليهِ إلى حد لم يسمع به قبل

ولقد كان ما يعطيه السلطان لوكلائهِ من الأموال الكثيرة؛ وما كان يصل الى بلاد التركستان من الحكايات الممتعة عن أحوال المماليك فى مصر، باعثاً كبيراً لكثير منهم على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر. على أن أهالى تلك الجهات نفسها كانوا يفدون زمراً إلى أرض الآمال.

وكانت النفقات الباهظة لازمة جداً لبلاط كهذا. وقد رأينا أن جمع هذه الاموال لم يكن ليراعى فيه جانب الحق[2]؛ بل كانت تزهق النفوس بدون مبالاة فى سبيل

(١) اشترى مرة حصاناً استحسنه بمبلغ الف دينار ثلاثين، وكان الثمن المعتاد اذ ذاك للحصان الواحد نحو عشرة آلاف دينار. وكذلك كانت أثمان الحيوانات الاخرى. وقد ذكر المقريزى أنه استحضر فى زواج ابنه (١٨٠٠٠) رأساً من السكر وذبح عشرين ألف رأس من الماشية — وتلك أمثلة من الاسراف المتناهى الذى كان يعزى اليه

(٢) وقد ذكر ابن اياس فى تاريخه الذى يذكر فيه عبارات محزنة عن اخلاق سيدات ذلك العصر، ان السلطان فرض ضريبة فادحة على كل النساء من الطبقة العليا، وعلى بناتهن اللائى ينغمسن فى التبرج. وقد عين لذلك ضابطة (امرأة) تشرف على تدبير هذا. وهذه العبارة واحدة من الملاحظات القليلة التى استشهد بها المؤرخ على حالة النساء الاجتماعية



مئذنة مسجد الناصر بن قلاوون



جميعها . ومع كل هذا ترى السلطان تقوده الحكمة والعدل طوال حكمه إذ لم تتغلب عليه أسباب الجشع والانتقام

وقد تلقى السلطان علوم الفقه والقانون فى دمشق ونال شهادة فيها ، ولذلك كان يشارك العلماء فى كل أمر يفيضون فيه . وكان قد أثار حنق قاضى دمشق تعيين قبطي كاتباً خاصاً هنالك ، فغضب الناصر لذلك فى بادىء الأمر ، ولكنهُ عاد فمنح هذا المنصب ابنَ القاضى . وكان الناصر يمقت قاضى المذهب الحنفى لعداوتهِ للمسيحيين . ولاعتراضه قرارات السلطان[1] عزله عن عمله مدة؛ وكان يحابى قاضى الشافعية؛ ولكنهُ اضطر إلى طرده هو وأسرته إلى دمشق لسوء سيرة ولده المخزية.

وقد قسا السلطان فى معاملة الخليفه العباسى اذ اعتقله هو وأفراد أسرته فى أحد أبراج القلعة لما كان يجاهر بهِ من التشيع لبيبرس الجاشنكير ؛ وفى عام ١٣٣٧ م أتهمه بعدم الولاء ؛ ونفاه إلى صعيد مصر . ويروى أن الناس حزنوا لذلك حزناً شديداً. على أن بعد الخليفة عن حاضرة الملك لم يكد ليحدث فى الواقع فراغاً محسوساً.

وكان السلطان يحب العلم والعلماء . فمن ذلك ما أظهره من الرفق ولين الجانب للمؤرخ العظيم اسماعيل بن على ابى الفداء وتقليده ولاية حماة ثانية ؛ وكان قديماً قد منحها الأيوبيون لأسرتهِ ، فولاه الناصر حكومتها ولقبه بلقب سلطان . والبسه شارات الملك وحليه ، وأنعم عليه بأعلى القاب الشرف واسماها ، وكان يخاطبه بلفظ « أخ » وهذا مثال نادر فى بابه ، يدل على وثوق السلطان من ، واسدائهِ المعروف إلى حاكم قوى عامله بهذا إلى النهاية

ولما كان الناصر يغار على ملكه حتى من أبنائه ، لم يعين وليًا لعهده حتى كاد يفارق الحياة . ومما يؤسف له أن احمد اكبر أبنائه كان شر مثال يحتذى فى أقبح الرذائل التى كان يرتكبها المماليك . وقد نفاه والده إلى الكرك بعد أن خابت

(١) وذلك ان السلطان سمح لاحد أخصائه بتملك أرض موقوفة نظير تسليم جزء مساو لها فى أرض أخرى ، فأعلن القاضى أن ذلك البدل لا يقره الشرع ، ورفض أن يحول عن قراره هذا عند ما هدد ، فأساء ذلك السلطان كثيراً

مساعيه فى ابعاده عن أحد فتيان المماليك. وكذلك أولع «أنوق» أحد أولاد السلطان بقينة ولعاً شديداً

وفى عام ١٣٤١ مرض الناصر وامتدت به العلة واشتدت به الحال حتى أنه كان كثيراً ما يقع مغشياً عليه، وكان يجتهد فى اخفاء ما به ولكن ذلك لم يجده فائدة إذ حدثت اضطرابات شديدة بسبب ما كان يذاع عن السلطان من الأخبار المزعجة. وكان وزيراه العظيمان «بشتاك الكريمى» و «قوصون المحمدى»، وهما صهراه، متباغضين يحنق كل منهما على الآخر كثيراً، فاجتهد كلاهما عند حدوث هذه الأزمة، فى الوقيعة بصاحبه. ثم استمرت الحال على هذا المنوال أياماً حتى فدح الخطب فاضطر الملك المحتضر الى عقد مجلس حضراه، وفيه قلد ابنه «أبا بكر» سيف السلطنة؛ و بعد ذلك بيوم أو يومين فاضت روح السلطان، وهو فى الثامنة والخمسين من عمره، تربع على عرش الملك منها نحو ٤٨ سنة، كان فى خلال اثنتين وثلاثين سنة منها سلطاناً مطلقاً لا ينازعه الأمر أحد. وكان وهو في النزع الأخير يطلب التوبة والمغفرة

وكان الناصر ملكاً جليل القدر؛ ولكن ما أتاه من ضروب العسف وأعمال القسوة غطى على ما له من الفضائل وجعلها كأن لم تكن. لهذا مات الناصر واسمه مخيفاً أكثر منه محبوباً. وقد دفن فى قبة والده من غير احتفال اذ لم يحضر جنازته أحد من أسرته. ولذلك قال أحد المترجمين لتاريخ حياته(١) «فسبحان من لا يحول ولا يزول، هذا ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريباً وغسل طريحاً ودفن وحيداً، إن في ذلك لعبرة لأولى الألباب». حقاً ان أطوار حياته غريبة وفيها الكثير مما يستوجب الثناء عليه والاطراء؛ ولكن ما يوجب السخط والذم أكثر. وكذلك كان يؤخذ عليه كثيراً شدة انفعالاته المشوبة بالغضب والحنق. ولا ريب أن حياة الناصر بن قلاوون من التراجم التى تستحق العناية وأعمال الفكر والدرس

(١) هو المقريزى ص ١٠٠ جزء ٢ طبعة مطبعة النيل



# الفصل التاسع

## اولاد الناصر محمد بن قلاوون واحفاده

( ١٣٤١ – ١٣٨٢ م )

١٣٤١

بقى ملك مصر فى بيت السلطان الناصر مدة أربعين سنة. توارثه فيها ثمانية من أولاده على التعاقب، فى العشرين عاماً الأولى من وفاته؛ ثم انتقل الى احفاده فى العقدين التاليين فكانت كل هذه الفترة سلسلة حوادث بؤس وشقاء، إذ كان السلاطين أطفالاً لم يبلغوا الحلم، يولون و يعزلون حسب ارادة مماليك ذلك العهد والواقع أن أصغر هؤلاء السلاطين كان أمثلهم لأنه عند ما كان السلطان الصبى يشرع فى اظهار ارادته، كان يخلع من عرش الملك أو يلقى حتفه. والقليلون الذين عاشوا حتى بلغوا الحلم ماتوا حتف أنوفهم. وكان موقف الأمراء فى صعود وهبوط فكان لكل برهة قصيرة يقبض فيها على أزمة الأمور، ثم لا يلبث أن ينزل من عليائه، و ينهب متاعه ثم ينفى من الأرض أو يصلب، ويعقبه غيره فيكون حظه حظ سابقه. وقد كانت تمر فترات قصيرة تضبط فيها حكومة البلاد بهمة حكام قادرين؛ ولكن كان القتل والتعذيب والشنق واقتراف الآثام والثورات يندلع لهيبها كثيراً فى غضون ذلك العصر. والحقيقة أن تاريخ هذا العصر مأساة مؤلمة ليس فيها ما تلذه النفوس ولذلك سنقصها موجزة على قدر ما يسمح به هذا الكتاب

يونيه ١٣٤١

لم يبايع الناصر كما ذكرنا آنفاً وهو على فراش الموت أكبر أولاده، بل قلد ملكه ولده «أبا بكر» وكان فى العشرين من عمره. وقد أظهر هذا الفتى من قبل توليته الملك، وهو فى الكرك، ما هو مفطور عليه من القسوة والغطرسة. وتدل فاتحة أعماله فى حكمه على أنه غشوم متوحش إذ أنه سمر نائب والده على ظهر جمل وشهر به فى الطرقات، ثم أمر باحضار أولاده فذبحوا على مرأى منه، وما ذلك إلا لما أظهره

من الاستخفاف به[1]. وكذلك فى خلال حكمه قبض « قوصون » على منافسه « بشتاك » حقداً عليه وغيرة منه وأرسله إلى الاسكندرية حيث لاقى حتفه بأمر من السلطان ؛ ثم استولى على كل ما يملك . وفى آخر الأمر أضل أبا بكر من كانوا يلهون معهُ من الفتيان ويقضون الليالى الساهرة فى الخلاعة والدعارة فأوغروا صدره على قوصون فأطاعهم وحاول القبض عليه ، فنمى ذلك الى قوصون قبل وقوعه ، فضم اليهِ السواد الأعظم من الأمراء ، ثم قبض على ذلك الطاغية الصغير وأرسله مع اخوتهِ الكبار الى مدينة قوص فى صعيد مصر ليسجنوا فيها ؛ وبذلك انقضت أيام حكمه التى لم تجاوز ثلاثة أشهر .

اغسطس

أصبح قوصون بعد ذلك صاحب الكلمة النافذة فقلد « كجك » أحد أولاد الناصر سلطان مصر وهو فى السادسة من عمره وقد أقر الخليفة البيعة له بعد أن وافق على خلع أبى بكر لما أتاه فى حياته من الآثام . وكانت فاتحة هذا الحكم الجديد عزل كل من كان في يده شيء من القوة والسلطان . فقبض على أحد أخدان السلطان المخلوع وأوثق على جمل وسارت وراءه جموع الناس يحملون الأنوار فهلك وهو على ظهر الجمل . ثم أخذ « قوصون » من ذلك العهد يوجس خيفة من أحمد أكبر أولاد الناصر وكان لا يزال بالكرك فاجتهد في نصب الشراك لإيقاعه وذلك بأن وعده تاج ملك مصر اذا هو حضر الى القاهرة ؛ ولكن أحمد كان يقظاً فبقى فى الكرك فسير اليه قوصون الأمير « قطلوبغا » على رأس كتيبة ولكن أحمد استهواه فانضم اليه وبانضمامه دخل فى جانب أحمد معظم أمراء سورية

ثم أخذ الحزبان يتنازعان السيادة فكان الظفر فى جانب أحمد . وكان قوصون وقتئذ في أشد الارتباك وود لو أرجع أبا بكر من قوص ليجلس على سرير الملك ثانية ولكن كان « قد سبق السيف العزل » لأنه كان قد أرسل من مدة أوامر

(١) يضاف الى هذا الاستخفاف ان النائب المذكور كان قد حجز أحد خدم أبى بكر وأساء معاملته حينما فر اليه . وهذا كل ما نسب اليه ومن أجله ارتكب ذلك القتل الذى لا يكاد يصدقه العقل



سرية بقتله فتم ذلك . ولما انفض أعوان « قوصون »[1] من حوله وأصبح وحيداً قبض عليه وأرسل الى الاسكندرية حيث لاقى ما لاقاه « بشتاك »

يونيه ١٣٤٢

عند ذلك أنزل الطفل « كجك » من عرش ملكه بعد أن جلس عليه خمسة أشهر . ثم أرسل وفد من قبل الأمراء الى أحمد وكان اذ ذاك في الرابعة والعشرين من عمره ؛ وكان لايزال غارقاً فى الكرك فى حمأة الرذيلة ، يعيش عيشة الدعارة منهمكاً فى اللذات ، منغمساً فى الشهوات فدعوه للحضور الى القاهرة ليجلس على أريكة الملك[2] . أما هو فلم تكن له رغبة فى الذهاب الى القاهرة . والحق أنه لولا عداوة قوصون له ما كان ليفكر مطلقاً فى عرش مصر ؛ فأجاب الوفد أنه سيمكث حيث هو حتى ينضم اليه جميع أمراء سورية ؛ ورغب فى الوقت نفسه أن يُقسم له يمين الطاعة بالقاهرة

مارس

وفى ذلك الوقت رجع إخوته من « قوص » وانضموا الى الناس فى حثه على الرجوع الى القاهرة . وبعد مماطلة طويلة تأهب للمسير فى فئة قليلة من أتباعه ودخل المدينة فى غلس الليل فى زي أعرابى ، وقصد دار أحد إخوته فاحتجب فيها أياماً لا يخرج الى الناس فى المسجد أو القصر أو أى محلة عامة . فأثار بهذا السلوك الغريب غضب الناس عليه . ثم تربع فى دست الملك أخيراً ، وكان لا يزال متهالكاً على الدعارة واللذات التى اعتادها فى الكرك فترك ، أزمة الأمور فى يد « طشتمر » و « قطلوبغا » وغيرهما من الأمراء الذين أتوا من صنوف التعذيب والتقتيل والفظائع بأعدائهم[3] ما لم يسمع بمثله من قبل

(١) لم يكن قوصون محبوباً الى المماليك لانه لم تتوافر فيه شروط المملوك أى أنه لم يشتر فى بادىء أمره كمملوك بل حضر الى الناصر من تلقاء نفسه فى حاشية زوجه المغولية فوهب نفسه للسلطان بمحض ادراته ؛ فلم تكن له تلك المكانة الاجتماعية التى كانت لمملوك اشترى بالمال

(٢) وكان من بين الامراء الذين ذكروا هنا الزوج الثانى لوالدة احمد . وكانت فى بادىء أمرها جارية رخيمة الصوت تغنى الامراء فشغفت الناصر حباً فتزوجها ولما قضى منها وطراً تزوجها هذا الامير

(٣) وهم الذين أودوا بحياة قوصون والطونبغا وغيرهما فى السجن . ثم تنفيذاً لرغبة أم السلطان أبى بكر طيف بحاكم قوص على ظهر جمل فى الطرقات عدة أيام . ولما لم يمت شنق بعد اسبوع . والسبب فى ذلك أن هذا الحاكم قتل ابنها تنفيذاً لرغبة قوصون فى بلدة قوص .

ابريل

ولما أصبح «طشتمر» صاحب السيادة فى البلاد نصب أصدقاءه أمراء على ولايات سورية وصار صاحب النفوذ المطلق فى حكومة البلاد؛ فساورت الغيرة احمد فأخذ مقاليد الأمور فى يده وأودع طشتمر غيابات السجن، وسير الى «قطلو بغا» حاكم دمشق من قبض عليه هناك وكبله بالحديد. ومع أن هذا الطاغية الخليع قد صار بعد ذاك مطلق التصرف فى أمور البلاد لا يسيطر عليه مسيطر كان لايزال حبه للكرك مالكا عليه قلبهُ. فترك «آق سنقر» أحد كبار الأمراء نائباً عنه فى البلاد وتزيا بزي اعرابي وركب «هجيناً» وليس معه غير اثنين من الأتباع، وتوجه تلقاء الكرك حيث حط رحله، واحتجب عن الناس فكان لا يراه الا أهل مودته. أما القاهرة التى تركت بلا سلطان فعمت فيها الفوضى وسوء النظام، فكتب اليه كبار الأمراء رسالة يرجون منه الرجوع الى البلاد لحاجة حكومتها اليه، فاجابهم بأنه حاكم سورية ومصر على السواء، وانه سيبقى حيث شاءت أهواؤه. أما طشتمر وقطلو بغا فقد حملا فى الاصفاد الى الكرك وهنالك قطع رأساهما ثم ارسلت أسرتاهما الى دمشق بعد أن جردتا من كل ما تملكان، وتركتا فى حالة محزنة أثارت عواطف امراء سورية وهاجت حنقهم فأرسلوا رسالة الى القاهرة يطلبون فيها خلع هذا الطاغية وتولية غيره. ولما جاءت هذه الرسالة كان الأمراء فى القاهرة قد عيل صبرهم من «احمد» الذى كان لايزال غائباً عن الديار فخلعوه وكانت مدة حكمه نصف عام قضاها فى الدعارة وارتكاب الفظائع وخلفه أخوه الآخر على العرش

يونيه

تولى أبو الفداء اسماعيل أريكة مصر وهو فى السابعة عشرة من عمره؛ الا أنه مع صغر سنه كان مثالاً طيباً يحتذى، رفيقاً بالعباد فى ادارة شؤون الدولة، فكان حقاً أول سلطان من اسرته لم تغلب عليه خصال القسوة والجشع والغدر

رجع الى قصره المهجور، وبدأ يدير أمور البلاد والأمل فى النجاح ملء فؤاده؛

ديسمبر

ولكن الحظ عاكسه فلم يستمتع بحكم هادىء، اذ ثار عليه أحد اخوته، ثم لاقى حمامه في الحرب التى نشبت. وكان معظم خوف اسماعيل وقلق باله، من الدسائس



التى لم يفتأ أخوه احمد المخلوع يدبرها له، والتى كان من جرائها محاصرة السلطان له فى الكرك، فمكثت هذه القلعة الحصينة تقاوم مدة عام ثم سلمت[1]، فقتل احمد وارسل رأسه الى القاهرة، فلما وقع عليها نظار السلطان الفتى ارتعدت فرائصه

يوليه
١٣٤٤

وشحب وجهه، حتى صار كأنهُ من الأموات. ومن هذه اللحظة لم يذق النوم إلا غرارا، ومات بعد عام. وكان السلطان اسماعيل (الملك الصالح علاء الدين) مشغوفاً بنسائه؛ وقد وله بقينة سوداء كانت تشنف أسماعه بنغمات أوتار العود حتى أصبحت أحسن سلوة له فى أخريات ايامه. هذا كل ما وصل الينا عن حياته المنزلية. ولقد كان لنسائه وحاشيته نفوذ عظيم على ادارته الضعيفة جر الى فساد الحكومة. ولكن اذا استثنينا حصار الكرك فاننا لا نجد شيئاً يستحق الذكر حدث فى خلال ثلاثة الأعوام التى جلس فيها على العرش، اللهم الا ما كان من بعض مشاغبات قام بها العرب فيما بينهم، ومن بعض حروب ليست هامة، على تخوم سورية. وفى أيامه انحطت مالية البلاد حتى جعلت السلطان الشاب يقعد عن اداء فريضة الحج بعد أن عزم على ادائها

وكانت بلاد اليمن أخذت اذ ذاك تتطلع الى احراز السيادة على هذه البقاع المقدسة. ولكن على الرغم من ذلك كان صيت المماليك ذائعاً فى الممالك الأخرى حتى إن ملك الهند أرسل للمرة الثانية بعثاً يحمل الهدايا والتحف لسلطان مصر كى يحصل منهُ على اعتراف بملك «ابن طغلوق» وتثبيته من الخليفة الذى كان عظيم الاحترام فى الأقطار الاسلامية الأخرى، مع أنهُ لم يكد يكون له شأن ما فى مصر

اغسطس
١٣٤٥

تولى الملك بعده اخوان له آخران «شعبان» ثم «حاجي»، وقد ذبح كل منهما فى نحو عام. وكان عصرهما عصر خلاعة ومجون وتقتيل وفوضى أسوأ مما حدث فى البلاد فى أى زمن من قبل. ذبح شعبان (الملك الكامل شعبان) اثنين من اخوته خنق أحدهما (كجك السلطان السابق) فى فراشه، ثم ازدادت رذائله واشتدت

(١) ذكر ابن اياس ان الحصار دام ثلاث سنوات ص ١٨٢ ج ١

قسوته بدرجة لم يعد من المستطاع الصبر عليها ؛ وجاوز الاستياء مصر الى دمشق . فلما جاءه نبأ ذلك ، ذعر وخاف على ملكه من أخويه الباقيين فهم بالقضاء عليهما كما فعل بأخويهما من قبل ، فتدخل فى ذلك نساء القصر فأنجين حياتهما

وفى مدته عمت الفوضى طول البلاد وعرضها فنشأ عن ذلك انحطاط فى دخلها أدى الى وقف الحج السنوى . ومع ذلك كان ترف البلاط ولباس سيدات القصر يزيد على كل شيء حدث قبلاً . وفى آخر الأمر ثار أمراء سورية — وكانوا كلهم من المماليك أصحاب الحول والطول فى القاهرة — على شعبان، وطلبوا اليه أن يعتزل العرش ؛ ثم هاجمه المماليك فى قصره ، بعد أن هجره كل أتباعه واخوانه ، فهرب عند والدته حيث اقتفى أثره وقتل خنقاً

سبتمبر ١٣٤٦

## الملك المظفر « حاجى » بن محمد بن قلاوون

تولى السلطان حاجى ملك مصر ، وهو صبي لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره فأظهر من الخلاعة وفساد الخلق ما جعل عهده أسوأ من عهد سلفه . بدأ بقتل الأمراء فى القاهرة والاسكندرية . وكان نائب السلطنة وقتئذ جركسى الأصل وأراد أن يرفع المماليك الجركس فوق المماليك الترك ، فهاج ذلك حنق هؤلاء وولد فى نفوسهم الغيرة والسخط، فرموه بتهم عند «حاجى» فأخذه على غرة بأن قدم له ولاية غزة ثم ذبحه غيلة . وقد بذل السلطان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لجواريه واختص واحدة منهن كانت حظية لسلطانين قبله [1] . وفى الوقت الذى كان يهلك فيه الناس جوعاً من جراء القحط الضارب أطنابه فى جميع أرجاء البلاد ، كان هو يتقلب فى حمأة الرذيلة والخلاعة والدعارة مع حظاياه وقيانه ومغنيه ومضحكيه وغيرهم ، وكان

(١) اهدبت لهذه الجارية هدايا تكاد تكون حديث خرافة منها هدية من اللؤلؤ قيمتها اربعمائة الف درهم . وكانت لها قلنسوة رصعها الثلاثة السلاطين على التتالى بلآلىء قيمتها مائة الف من الدنانير . وقد أشار على السلطان اثنان من نصحائه أن يسلو عن هذه الجارية واثنتين أخريين شغف بهما فكان جزاء الناصحين أن دعيا الى وليمة فى السنة التالية وقتلا لما ابدياه من النصح الجميل



يجزل لهم العطاء . وقد بلغ به الاسراف مبلغاً بعيداً حتى إنه قسم بين أخدانه وأتباعه ثروة أحد الأمراء الذين قتلهم ؛ فحذره اثنان من خواصه المماليك غيوم الشر التى تتكاثف حوله، فقابل ذلك بكل اعراض وازدراء، وكاد يقتلهما لولا أنهما تمكنا من الفرار . ثم أثارا عليه المماليك ، وكانوا كلهم على أهبة الخروج عليه ؛ فتجمعوا جميعاً وناصبوه العداء، طالبين اليه أن ينزل عن الملك ، فسار للقائهم فخذله أتباعه وهجم عليه أعداؤه ، وأنزلوه من سرجه وأذاقوه الحمام ، وهو يتضرع اليهم على غير جدوى

( انظر ابن إياس ص ١٨٨ . حكاية أخرى )

## السلطان الناصر أبو المحاسن حسن

ديسمبر ١٣٤٧

كان المماليك الجراكسة يودون انتخاب حسين بن الناصر سلطاناً على البلاد ولكن الامراء فضلوا عليه «حسناً» الذى كان فى الثانية عشرة من عمره ليكون آلة سهلة فى أيديهم. و بعد أن تم الأمر للسلطان «حسن» أخذ الأمراء ، كما هى عادتهم ، ينقضون على أتباع السلطان السابق ، فابتزوا من سمّاره و بطانته ومن جواريه كل ما لديهم من المال ليودعوها خزانة الملك الخاوية وقتئذ. وقد ضرب وعذب مضحك «حاجي» وكان أحدب ، حتى فاضت روحه ، كى يظهر أمواله . وكذلك اضطهد المماليك الجراكسة الذين كان هواهم مع حسين ، ووزعوا بين الأمراء الأتراك . على أن مدة هذا السلطان ، كانت على الاجمال أنعم حالاً من سابقتها . و يعزى ذلك ، بصفة خاصة، الى اجتياح البلاد بالوباء المعروف بالموت الأسود الذى قبر الملايين . وهو سائر فى طريقه من الشرق الأقصى الى البحر الأبيض المتوسط [1] . على أن عدد ضحايا هذا

١٣٤٨ — ١٣٤٩

(١) قد أسهب المقريزى فى الكلام على هذا الوباء العظيم الذى ظهر فى الصين قبل ذلك بسبع سنين ، ثم انتشر فى بلاد التتار ، ثم بلغ القسطنطينية ، ومنها انتقل الى اوربا وسورية . وفى روايات أخرى يقال انه جاء الى سورية من الهند عن طريق بلاد الفرس والجزيرة ، فاجتاح سورية ، الا بلاداً قليلة أخطأها ، ثم نزل بمصر ؛ غير أنه كانت تقل وطأته كلما سار جنوباً . وقد كان يودى فى القاهرة بحياة الف أو الف وخمسمائة كل يوم فيما بين شهرى نوفمبر و يناير . وقد اختطف فى يوم واحد أرواح عشرين ألف نسمة . وكانت تحمل الأموات على الواح ، ويوضع كل ثلاثين

الوباء لم يبلغ فى أى مكان ما بلغه فى بلاد سورية ، حتى أصبح لا يشغل الأفكار فى تلك المدة الآمر هذا الفناء . وليس جديراً بالذكر من حوادث ثلاث السنوات الأولى ، التى تربع فيها حسن على عرش مصر ، سوى ما كان يأتيه الأعراب من وقت لآخر من الفظائع ، وما قام بين « أرغون شاه » نائب دمشق ، «واقبغا» نائب طرابلس ، من الشقاق وذبح الثانى الأول

١٣٥٠

ولما كان نائب السلطنة « يلبغا » غائباً عن البلاد لأداء الحج ؛ انتهز السلطان هذه الفرصة ، وقبض على أزمة الأمور بنفسه . وكانت الفظائع ترتكب فى عهده ، الآ أنها كانت أقل شدة مما كانت عليه قبلاً . وقد انتصرت جنوده على جنود اليمن فى مكة المكرمة ؛ وكذلك كسر جيشه جيوش التركمان فى غارتهم على «سنجار» ، فكان ذلك مما زاد فى شوكته ؛ الآ أن وزراءه كانوا لا يزالون يتدخلون فى شؤونه فائتمر هو وجماعة بالقبض عليهم ، ولكن نمي اليهم أمر المكيدة ، فهاجموه ، وخلعوه عن عرشه ، واعتقلوه فى أحد البيوت ، بعد أن حكم البلاد أربعة أعوام تقريباً لم يكن له فيها من الأمر شىء الآ فى السنة الأخيرة

---

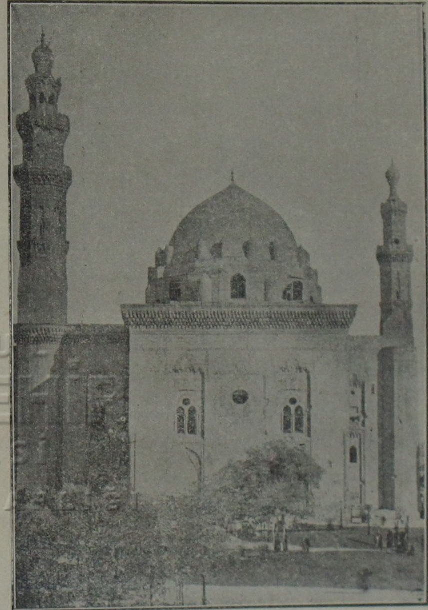
او اربعين فى قبر واحد . اما فى حلب فكان عدد من يموت فى اليوم خمسمائة ، وفى غزة اثنان وعشرون الفاً فى الشهر . وقد نزل الوباء بمصر على شكل خراجات اصابت الماشية والاسماك فكنت ترى مجارى المياه ملأى بالسمك الميت . وقد كان الوباء يصيب حتى النبات فأصبح البلح لا يؤكل لما به من الديدان . وقد ابتدأ المرض فى القاهرة بالنساء والاطفال ، ثم تعداهم الى الرجال ، فكانت الطرقات ملأى بالجثث التى كان الناس يهابون نقلها من اماكنها ، لان مجرد لمسها كان يحدث خراجات . وقد اصبحت حاضرة البلاد خاوية على عروشها ، اذ فر منها السلطان وكل من امكنه الفرار . وقد بلغ عدد الموتى فيها نحو تسعمائة الف . وكانت العقارات تتوارثها سبع او ثمانى ايد ، واحدة بعد اخرى ؛ وكذلك كنت ترى الفعلة ممتطين ظهور جياد الضباط . فأصبحت البلاد قاعا صفصفاً لا تجود بخير ، لقلة الايدى العاملة على زرعها . وكانت الغلال بخسة الاثمان ؛ غير ان الطعام كاد ينعدم اذ لم يوجد من يعده . وقد قلت وطأة الوباء تدريجاً فى ربيع عام ١٣٤٩م ولم يلبث ان انقطع جملة



## ﴿ الملك الصالح صلاح الدين صالح ﴾

اغسطس ١٣٥١

جلس بعده على عرش مصر الملك الصالح ، وهو فتى حدث من أولاد الملك الناصر ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره . وأمه ( خوند قطلوملك ) بنت الأمير « تنكيز » الذى غدر بهِ الناصر . مكث الصالح على عرش مصر مدة ثلاثة أعوام لم يحدث فى خلالها شىء يذكر غير ما كان يقع من المؤامرات وارتكاب بعض المماليك الفظائع ضد بعض ، على ان ما كان يتوالى من ظهور الأمراء بعضهم على بعض ، وتمردهم من آن الى آن فى سورية ، وهربهم ، واقتفاء أثرهم ، وقتلهم ، ليس فيهِ ما يلذ القارىء . وكان وزيره ( الصاحب علاء الدين بن زنبور ) — وهو مسيحى أسلم — جمع ثروة عظيمة فاتهمهُ أحد نظرائه بأنهُ لا يزال على المسيحية ؛ فلم يكتف السلطان بتعذيب هذا الشقى بل أنزل بأسرته وجميع خدمه أشد العذاب حتى أرشدوا الى ما كان لديهِ من الثروة التى قدرت بنحو ألفى ألف دينار ، ثم نفاه الى قوص . وقد لاقى المسيحيون الأمرين فى هذا العصر ؛ فقد حسدوا على ما كانوا يكتسبونهُ بكدهم الشريف فغصبت منهم كل أموالهم ، وهدمت كنائسهم ، ونفذت عليهم تلك القوانين الصارمة مرة أخرى . وفى مدة هذا السلطان أبيدت قبائل العرب ، التى كانت اعتادت أن تعيث فى الأرض فساداً . ولم يحدث فى عهده شىء آخر جدير بالذكر . وفى أواخر مدته نُصِح لهُ أن يقبض على زمام الأمور بنفسه ؛ غير انهُ مال الى حياة المجون ، وائتمر هو وآخرون بالقبض على بعض الأمراء من حاشيته ، الذين كانوا يقفون حجر عثرة فى طريقهِ ، فلما أحسُّوا الخطر المحدق بهم تمردوا عليهِ ، وشقوا عصا الطاعة ، وقبضوا عليه وأعادوا «الناصر حسناً» الى العرش بدلاً منه



مسجد السلطان حسن بن الناصر ومقبرته
المئذنة الى اليسار الذى هو جزء من البناء الاصلى



## عودة الملك الناصر حسن

اكتوبر ١٣٥٤

قضى الناصر حسن مدة الحجر عليهِ فى الدرس والعبادة ولم يستفد الاّ قليلاً . فلما تبوأ العرش ثانية مكث سلطانًا على البلاد نحو ست سنوات خلعَ فيها العذار ( اقرأ المقريزى )، وترك مقاليد الأمور لأمرائه الذين كانوا فئة من الطغاة الجبارين، يعقب الواحد منهم الآخر فى السيطرة على البلاد، ويرتكبون من الفظائع ما لا يتصوره العقل [1] .وتكاد مدته هذه تكون خالية من الحوادث، الا ما كان من هزيمته فى مكة، وغزوة قام بها فى بلاد أرمينية حيث استولى المصريون على «طرسوس» و«أطنه» و«المصيصة»، ووضعهُ فيها حاميات مصرية . وفى أواخر حكمه أغضب اكبر أمرائه «يلبغا» ، وأثار حنقه فهاجمهُ وتغلب عليه ، ثم أودعهُ فى غيابة السجن ، فلم يقف له أحد على أثر

مارس ١٣٦١

خلفهُ على العرش اثنان من أحفاد السلطان الناصر، الواحد تلو الآخر ، فكان أولهما السلطان «المنصور محمد بن السلطان المظفر حاجي» ، وكان فتى فى الرابعة عشرة من عمره فمكث على أريكة البلاد ما يربو على العامين ، ثم خلع لقلة كفايته ، وبقي محجوراً عليه حتى توفي فى عهد السلطان برقوق

١٣٦٣

ثم خلفهُ السلطان «شعبان بن حسين بن الملك الناصر»، ولقب «بالسلطان الأشرف ابى المعالي زين الدين» ، وكان عمره اذ ذاك يزيد على عشر سنين ؛ ولذلك فضل على والده حسين الذى لم يظفر بعرش البلاد قط . فكانت مدة حكمه نحو الأربعة عشر عامًا ، وهى أطول مدة حكمها سلطان من أسرته . غير أن سيرة هذا السلطان

---

(١) يدلك على ذلك مافعله «شيخو» اكبر امراء ذلك العصر فأنه بعد ان افلح فى عزل احد نظرائه ، امر ان يطاف به فى طرقات المدينة . ويروى انه بعد ذلك امر بحلق رأس هذا المسكين وثلمها فى عدة مواضع . ثم ركب فى كل ثلمة حشرة سامة ، ثم وضع فوق كل ثغرة قطعة من النحاس المصهور فجعلت تلك الحشرات تغور داخل راس هذا البائس حتى مات . اما «شيخو» فقد نال جزاءه على وحشيته اذ قتل فى القصر . ومع كل هذا فان شيخو كان يعد مثالا للورع والتدين ، تبرع بترتيب قراء لتلاوة القرآن فى احد المعاهد الدينية ، وعمل بنفسه فى بناء الخانقاه التى تنسب اليه .

تختلف عن سيرة سابقيهِ نوعًا ما، لتوالى سقوط الأمراء الذين كان بيدهم الحل والعقد، ولخاتمة هذا السلطان المحزنة. والواقع أن السنين الأولى من حكمه لم يحدث فيها شىء يسترعى النظر، بخلاف أخريات أيامه فكانت ملأى بالعواصف فى داخل البلاد وخارجها

كان «يلبغا اليحياوى» فى بداءة حكم السلطان شعبان صاحب النفوذ فى البلاد، وما أتاه من الفظائع، كان أشنع ما ارتكب فى هذا العصر[1]، فأحفظ ذلك الأهلين الذين التفوا حول السلطان الفتى حينما تمرد عليهِ يلبغا وأراد أن يُجلس على العرش أحد اخوته، فهزم هذا الطاغية، وقتل ورفع رأسه فوق مشعلة تحترق. غير أن أتباعه من المماليك ما فتئوا بعده أصحاب السلطان فى البلاد، فأصبحت العاصمة مسرحًا لفظائعهم الوحشية. ثم تمادوا فى طغيانهم، وتآمروا على خلع السلطان، فهاج ذلك الأجناد والأهالى الذين لم يصبروا على تلك الحالة، فاقتفوا اثرهم، حتى فروا من وجوههم، وأُغرق بعض زعمائهم، ودُقت أعناق بعضهم، ونفى الباقى من البلاد، وكان بين من نفى «برقوق»، الذى فرَّ الى دمشق بعد أن لبث فى السجن بضع سنين، وسنتكلم عنهُ بعد... ثم استمرت الحال كما كانت عليهِ من قبل؛ ولم يقع ما يستحق الذكر. غير انهُ بعد وفاة أم السلطان قام زوجها، وكان صاحب سيطرة فى البلاد اذ ذاك، وطلب أن يرثها فى متاعها كله، وتمرد على السلطان، ثم هزم وفرَّ هاربًا، فسقط بجواده فى اليم ومات غرقًا

١٣٦٦

١٣٧٣

وقد حدثت بعض حوادث خارج البلاد لا بأس من ايرادها اجمالاً، ذلك أن حاكم بغداد التتارى تمرد على «القان أويس» وثار فى وجهه، ثم طلب المعونة من سلطان مصر، بعد أن اعترف بهِ سلطانًا على بلاده، وضرب السكة باسمه، فاستقبل السلطان رسله استقبالاً حسنًا وزودهم بالهدايا النفيسة و بوسامي كل من السلطان والخليفة، فأرسل القان وفداً الى القاهرة يشكو من سوء صنيع السلطان، فأساء سلطان مصر مقابلته. غير أن ما كان يطمح اليه السلطان من توسيع نطاق مصر

١٣٦٤

(١) وكان من فظائعه قطع ألسنة كثير من الناس لا لسبب غير مضايقتهم له



أسفر عن الخيبة التامة، اذ كُسِر حاكم بغداد المتمرد، فرجعت بغداد الى دولة المغول (الأمبراطورية الشرقية)

وفى عهد استبداد «يلبغا» دبرت قبرس والبندقية وفرسان رودس حملة صليبية على مصر فرسوا بأسطولهم فى مياه الأسكندرية، وأطلقوا يد السلب والنهب فى المدينة مدة ثلاثة أيام؛ وقبل أن يصل المدد من القاهرة أقلعت سفنهم حاملة نحو خمسة آلاف من الأسرى فانتقم «يلبغا» لذلك من المسيحيين بأن فرض عليهم الضرائب الفادحة ليجهز بما يجمعه منهم أسطولاً و يفدى الأسارى. وفى ذلك الوقت أرسل الفرنجة بعثًا سلميًا يظهرون استعدادهم لدفع تعويض عما حدث، و يطلبون فتح «كنيسة القيامة» ببيت المقدس ثانية، فحجز يلبغا هذا البعث فى القاهرة، ومضى فى استعداده للحرب[1]. ولما لم يجبهم السلطان إلى طلبهم قام أسطول قبرس بغزو السواحل السورية، وهاجم الاسكندرية، ولكنهُ رُدَّ عنها متكبداً الخسائر، وقد دامت المناوشات طول العام، وأخيراً تم الصلح بين الفريقين، واعيد فتح الكنيسة للحجاج

١٣٦٥

١٣٦٨

ولم تك أرمينية، لسوء حظها، من الممالك التى عقدت معها معاهدة الصلح، فسير عليها السلطان كل ما لديه من الجيوش فى مصر وسورية، فغزاها نائب حلب عام ١٣٦٩ م، واستولى على «سيس» حاضرتها، ثم ارتد عنها ثانية. و بعد ذلك ببضع سنين غزت مصر «كليكية» من جديد فاعتصم الملك «ليو» بحصنه الجبلى، غير أنه اضطر إلى التسليم، واخذ أسيراً الى القاهرة[2]، وصار أحد أمراء المماليك بعد ذلك حاكمًا فى «سيس» ومحيت أرمينية الشقية من تعداد الممالك المسيحية، بعد أن

١٣٦٩

١٣٧٤

١٣٧٥

(١) طاب هذا البعث رهائن قبل مغادرته الاسكندرية، فأرسل معه يلبغا جماعة من المجرمين المحكوم عليهم والبسهم لباساً فاخراً. ولكى يدخل الحيلة على الفرنجة ارسل معهم نساء واطفالا كأنهم اهلوهم وذلك مما يدل على نفاق المماليك وخداعهم.

(٢) وقد بقى فى الأسر الى عام ١٣٨٢م. حتى توسط له الملك «يوحنا الأول» ملك قشتالة، فأطلق سراحه؛ بيد أنه حرمت عليه العودة الى بلاده، فصار يتجول فى البلاد الأوربية حتى مات فى باريس عام ١٣٩٣ م

مكثت أجيالاً العوبة فى يد المماليك والعثمانيين واستبدادهم . و بعد مضي بضع سنين (أى فى عهد السلطان التالى) قام نواب سورية بغزوات متتالية على أملاك بيت «ذى الغادر» التركانى فى آسيا الصغرى فردوا على أعقابهم خاسرين؛ وكانت حلب على شفا الخطر فى هذه الحرب . و يعد هذا الحادث فاتحة عصر جديد فى علاقة مصر والولايات التركانية التى فى الشمال . وقد قال المقريزى : أن أتراك آسيا الصغرى كانوا الى ذلك العهد حاجزاً منيعاً لحماية الحدود المصرية ، ولكنهم من هذه اللحظة أصبحوا أعداء لحكم المماليك ، وكانوا فى الحقيقة السبب فى سقوط مصر وضياع استقلالها .

١٣٧٨ — ١٣٨١

١٣٦٦

وفى أوائل عهد السلطان «شعبان» أرسلت حملة هامة بحرية و برية الى سواكن جنوباً لحماية حدود الصعيد و بلاد النوبة من عبث قبائل البدو ؛ فكان رائد هذه الحملة الفلاح ؛ غير أن فظائع حاكم اسوان الشنيعة أثارت حقد القبائل المجاورة فانقضوا على المصريين وأفنوهم ذبحاً ، وتركوا المدينة فريسة للنيران

١٣٧٦

اننا الان نقترب من آخر سلالة الناصر . لم تكن الثورة وسوء الحكم العاملين الوحيدين اللذين أثرا فى البلاد فى هذا الوقت ؛ بل أن القحط والوباء تفشيا فيها ثانية . وقد أصاب «طشتمر» كبير الوزراء الطاعون ، فلما كشف الله عنه ضره تهيأ للخروج الى مكة حاجاً شكراً لله ، وقد رافقه السلطان والخليفة وخرجوا فى زينة وأبهة ، ومعهم جم غفير من المماليك الذين طلبوا عند وصولهم الى أيلة نقوداً وثاروا فى وجه السلطان ، ففزع منهم وهرب تحت جنح الظلام الى القاهرة . وفى تلك الاثناء دبروا مؤامرة ، تشبه مؤامرة القاهرة التى ثار فيها المماليك ، وأعلنوا أن السلطان قد قضى نحبه ، وهاجموا أعوانه ونصراءه من الأمراء وذبحوهم ، وعينوا «على ابن السلطان» مكان ابيه . ولما وصل السلطان الهارب الى القاهرة لجأ الى بيت قينة حيث كشف أمره وهو لابس لباس النساء ، فقبض عليهِ وعذب كى يظهر أمواله . وفى نهاية الأمر خنقهُ مملوك كان قد رفعه إلى مرتبة الأمراء . وقد أسف الناس



كثيراً لموت شعبان لأنه مع ضعفه و بخله كان رقيق الحاشية معتدلاً بالنسبة الى من سبقه من الحكام

مارس ١٣٧٧

أجلس ثوار القاهرة علياً على العرش وهو طفل فى السادسة من عمره ؛ وقد تَوَّجَهُ فى الحال خليفة نصبوه لهذا الغرض ؛ فبدأ حكما استمر ست سنين كانت كلها قلاقل ؛ ثم عاد الحزب الآخر من « أيلة » وعلى رأسه طشتمر ، وحاولوا اجلاس الخليفة الذى عاد معهم على عرش البلاد ؛ فاقتتل الفريقان ، و بعد معارك متكررة هزم «طشتمر» وابعد عن البلاد بأن عين حاكماً لدمشق . أما حزب المماليك الذين أصبحوا ذوى السيادة والنفوذ فقد ثاروا طلباً للمال وشكوا سيوفهم وحصل كل منهم على خمسمائة دينار اختلاساً من خزانة مال الأيتام . والحوادث التى أعقبت هذا ليست الا صورة غريبة لنهوض وسقوط الحاكمين من المماليك ، وللهياج والخيانة والاغتصاب والنفى والقتل[1] . وفى آخر الأمر صار « برقوق » و « بِرِخ » اللذان كانا قد نفيا من الارض عند سقوط يلبغا اليحياوى ، صاحبى الأمر والنهى فى القاهرة بمعاضدة أمراء سورية لهما . غير أن الهياج لم ينقطع وأصبحت القلعة نفسها مسرحاً للثورة . وقد ائتمر « برقوق » بالقبض على « بِرِخ » ، لكنه هرب وخرج معه أتباعه الأتراك ونازلوا « برقوقاً » وحزبه الجركسى فى معركة هزم فيها « بِرِخ » وأرسل أسيراً الى الاسكندرية حيث قتل[2]

١٣٧٩

١٣٨٠

---

(١) ومما يجدر ذكره هنا حكاية تدل على هذه الحالة وهى محاولة تولية العرش ولدا لزوج مطلقة من الناصر كانت قد صرحت بأنها حبلى عند ما لحقت بزوجها الثانى ، وعند ذلك اعلن الخليفة بأن سلوك هذه السيدة شائن ومخالف للدين الاسلامى

(٢) والظاهر ان هذا القتل كان بأمر برقوق ؛ ولكنه على كل حال انكره وجعله فى ذمة والى الاسكندرية ابى خليل - وهو كاتب عالم - وسلمه الى مماليك برخ فعرضوه على ظهر جمل ثم قطعوه ارباً

وكانت طريقة العرض على ظهر الجمل التى يرد ذكرها معنا كثيراً طريقة يقول عنها المقريزى انها منظر رهيب اذ كان من يقع فريسة يمد اولا على لوح من الخشب تسمر فيه رجلاه وذراعاه ثم يربط هذا اللوح على ظهر جمل ثم يطاف به فى طرق المدينة . . وهذه صورة محزنة تمثل وحشية ذلك العصر

١٣٨١ وفى العام التالى مات السلطان الصبى فخلفه أخوه «حاجي» وعمره ست سنوات ؛ ولكن ثوران المماليك بدأ ثانية ، وقد حاولوا قتل «برقوق» فجمع فى أواخر عام ١٣٨٢ م مجلساً من الأمراء والمشايخ فى حضرة الخليفة وأعلن أنه يجب أن يكون السلطان رجلاً لا طفلاً ليسود السلم والسعادة فى الداخل والخارج ، فوافق المجتمعون على هذا وخُيِّرَ هو باعتباره الحاكم عليهم . ثم أخذ السلطان الصغير وأدخل الى الحريم

نوفمبر ١٣٨٢

وهكذا انتهى بيت قلاوون ، و بانتهائهِ انتهت اسرة المماليك البحرية أو التركية بعد أن حكمت ١٢٢ سنة . ومن ذلك العهد صارت السلطنة الى المماليك البرجية أو الجركسية الذين قبضوا عليها كما سنرى ١٣٥ عاماً أى إلى نهاية حكم المماليك



# الجزء الثاني

## الاسرة البرجية أو الجركسية [١]

١٣٨٢ — ١٥١٧ م

---

# الفصل العاشر

## الظاهر سيف الدين برقوق [٢]

١٣٨٢ — ١٣٩٦ م

١٣٨٢ يشعر الانسان بانشراح عند ما ينتقل من ذكر أمراء وضيعى النشأة أتيح لهم النفوذ باسم سلاطين من الأطفال ، الى عقد من الملوك الذين صار اليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً ، على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع عظيم.

يدلك على هذا برقوق : اشتراه يلبغا اليحياوى من عشرين عاماً خلت من نخاس خوارزمي ( هو خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر . قال المقريزى والذى اشتراه هو يلبغا الخاصكى ) . وقد رأينا فيما سبق أنه طرد حين قتل مولاه . ولما عاد صار ضمن مماليك شعبان ، وكانت له يد فى الثورة التى أنزلته عن العرش ، ثم ارتقى بسرعة الى مرتبة أمير حاكم فى الانقلاب الذى حصل بعد ذلك . ولما تم له القضاء على منافسه « بِرِخ » أصبح صاحب السيادة المطلقة ؛ فمملوك الأمس اعترف به فى

١٣٦٧

١٣٧٦

(١) حكمت هذه الاسرة سنة ٧٨٤ هـ وانتهت سنة ٩٢٣ هـ . وعدد سلاطينها اثنان وعشرون سلطانا
(٢) قال المقريزى هو السلطان الملك الظاهر ابو سعيد برقوق ابن آنص

الحال سلطاناً أمراء مصر وحكام سورية الذين كان كثير منهم ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم فى الوقت الذى كان فيه برقوق مملوكاً حقيراً فى صفوف الجيش العادية وبعد أن انزوى ثلاثة أيام — وهى عادة اتبعت وقتئذ حين يجلس الملك على العرش — خرج من القصر فى زينة فاخرة . ولما كان الخليفة «المتوكل على الله» قد أقر له بالطاعة هو والقضاة وكبار الموظفين ، رأى أن يوزع عليهم الهبات المعتادة وأعلن سلطانه .

وفى قابل كشفت مؤامرة كانت دبرت لاغتياله ولإجلاس الخليفة « المتوكل » على العرش . ولما جيء بالمؤتمرين به الى حضرته هددهم بالعذاب فاعترفوا ، وعندئذ تملكه الغضب حتى هجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ، ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت فأقر المفتون هذا الحكم. أما القضاة فقد اختلفوا فيما بينهم لأن للخليفة حق تعيين وخلع الملوك — وهذا تخلص عجيب فى بابه من ورطة ذلك اليوم — فقنع برقوق بخلعه وتعيين «الواثق بالله» خليفة مكانه ، وبالحكم على أحد المؤتمرين بالموت . وبدأ حكم الأرهاب الذى أقامه إذ ذاك يقصى عنه أكابر الأمراء . فمن ذلك أنه توهم فى كبير الأمناء الرغبة فى إعادة أحفاد الناصر الى العرش . فسمّره مع اثنين من مماليكه على ظهر جمل واحد ، وشهر ثم قتل . وقد صُفد كذلك كثيرون وعذبوا أو نفوا لأسباب واهية . وقد امتد حكم الإرهاب الى سورية التى انقلب حكامها عصاة لتوجسهم خيفة من أن يتهموا . من أجل ذلك ثارت كل الولايات تقريباً فى وجه السلطان لأنهم أدركوا خيانته فى تلك الاشراك التى كان ينصبها لضحاياه فيأتى بهم الى القاهرة بعد أن يغرر بهم ويقتلهم فيها ، فكان ذلك سبب سقوطه السريع . وهاجمت قوة من العصاة بقيادة «يلبغا الناصرى» صاحب حلب . «ومنطاش» صاحب ملطية ( دمشق ) فدحروا جيوش السلطان واستولوا على المدينة . ثم تقدموا الى القاهرة حيث كان الاضطراب بالغاً مبلغه. وقد ظهر برقوق بمظهر الضعف والجبن المتناهيين فانه بكى بكاء الطفل ونافق الخليفة المتوكل الذى كان قد هدده بالقتل من زمن غير بعيد ولم يتجاسر على الخروج من القلعة . وفى آخر لحظة أرسل إلى



«يلبغا» رسالة بالخضوع ، فأبقى على حياته وأرسله أسيراً الى الكرك ، وتركت القاهرة عدة أيام مسرحاً للهياج والسلب إلى أن أعاد يلبغا إلى العرش الطفل ( السلطان الصالح حاجي ، آخر سلاطين المماليك البحرية الذى كان قد خلعهُ برقوق، إذ يرى أنهُ أحق به على رغم الحاح الأمراء عليه فى أن يكون هو سلطاناً

يونيه

وقد اصبح «يلبغا» باعتباره اتابكا لحاجى، صاحب السلطان المطلق . أما «منطاش» فشعر أن لاحول له ولا طول ، وقد حاول عبثاً أن يقتل «برقوقاً» فرفض «يلبغا» رفضاً باتاً لأنهُ عده شجا فى حلق « منطاش » . ولكنه سجن أتباع برقوق وشتت طوائف المماليك الجراكسة. ولم يطق منطاش صبراً فى آخر الأمر على فقدان نفوذه فرفع راية العصيان جامعاً حوله كل الناقمين من الحالة وفيهم اتباع برقوق الجراكسة فأمهله يلبغا حينذاك طويلاً وأرسل الخليفة لمناقشته، فشكا اليهِ نقض يلبغا لعهده وجعل تبعة ذلك فى عنق السلطان الصغير . فنشب القتال عدة أيام، ثم غلب يلبغا فى آخر الأمر وأرسل أسيراً الى الاسكندرية فصار منطاش اتابكا مكانه فصرف كل قوته فى سلب وسجن من حوله، حتى جراكسة برقوق الذين نصروه وآزروه أصابهم ما أصاب غيرهم من فظائع القسوة الشنيعة . وقد قطع أيدى الكثيرين ، وهدد الناس بالقتل ان هم أحرزوا أسلحة ؛ أما حاكم دمشق — وهو من اتباع يلبغا — فقد قبض عليهِ وقتله بعد أن ارسل اليهِ خطاباً ينطوى على الغدر والخديعة — وبكل هذه الفظائع أساء منطاش إلى نفسهِ اكثر من نفعها . وفى النهاية أرسلت الجنود الى الكرك لقتل برقوق ، ولكن الناس سهلوا له الهرب لمحبتهم له ، فذهب الى سورية وفيها وجد جموعاً كثيرة التفت حوله وكانت تزداد يوماً بعد يوم ، فذعر منطاش لهذا وبدأ يستعين الخليفة على اعلان الجهاد ضد السلطان المرتد ؛ وسرعان ما جمع جيشاً عظيماً وزحف على سورية ، فاشتبك الجمعان فى معركة طاحنة قريباً من غزة، وولت جنود برقوق الأدبار أمام منطاش فسار فى أثرها نحو دمشق وخيل اليهِ أنهم هزموا، ولكن اتيحت لبرقوق فرصة حسنة فسار فى شرذمة قليلة الى خيمة

سبتمبر ١٣٨٩

السلطان حيث كان يقيم فيها مع الخليفة فاستولى عليها وعاملهما بشفقة واحسان، وانضمت اليهِ بسرعة جنود من كل النواحي

وقد عاد منطاش من مطاردة أعدائهِ بعد فوات الوقت. واستمرت المعركة في اليوم التالى ولم تكن مجدية إذ ثارت زوبعة اضطرت منطاشاً الى التقهقر نحو دمشق، فأسرع برقوق الى انتهاز الفرصة فولى وجهه شطر مصر وتقدم نحو القاهرة فى قوى كانت دائماً تزيد، ونقل معه حاجي الصغير وعامله بالشفقة والرحمة. فرأى الشاب أن يتنازل عن العرش لبرقوق وأعلن فى المعسكر أن برقوقاً أصبح سلطاناً ثانية. (١٣٩٠) وفى تلك الأثناء كانت القاهرة فى هياج بحزن وخوف وتذمر. ولم يكد يعلن خبر اقتراب برقوق حتى انقلبت المدينة الى أفراح عظيمة وأدخلوه الى قصره وهم جذلون، وأفرد لحاجي الذى ركب بجواره فى الاحتفال مسكناً فى القلعة فعاش فيه عدة سنين هادئاً راضياً محمود السيرة

ولما رأى برقوق أن الحظ قد أعاده الى عرشه أخـذ يعمل كل ما من شأنه أن يرضى رعاياه فأغدق الهبات على كل من حوله حتى أعدائه الأقدمين، ولم يكن يدفعه الى هذا مجرد العطف والشفقة، بل ان الأحوال هى التى اضطرته الى هذا الإحسان إذ كان غير مستيقن من موقف سورية نحوه. على أن الأمور لم تسر سيراً حسناً مع منطاش هناك، فانه بعد أن أضاع دمشق تركه معظم جنده وانحازوا الى السلطان؛ ولكنه لم يعتم حتى جمع جيشاً آخر اندمج فيه بسرعة – عدا مماليك بيت قلاوون – التركمان والبدوُ؛ وقد ناجز به يلبغا قائد جيوش السلطان فى سورية. ونشبت بين الفريقين لدى «سلمية» معركة دموية غير حاسمة، واستمرت الحرب على هذا الوجه حتى شك برقوق فى إخلاص يلبغا فصمم على الخروج بنفسه الى الميدان. وقبل أن يبرح القاهرة غلبت عليه طباع المماليك الوحشية فعذب بلا رحمة كل من اشتبه فيه وأودى خاصة بحياة الكثيرين من أصحاب منطاش الذين مثل بعدد كبير منهم أقبح تمثيل. (١)

(١) توجد تفاصيل عجيبة لما سنه كمشبغا محافظ القاهرة اذ ذاك من القوانين الغريبة مع السيدات فانه حظر عليهن زيارة الجبانات او الخروج جماعات فى النيل. وقد بولغ قبل زمنه فى اتساع ملابسهن حتى كانت اكمام القميص وبدنه ٧٢ ذراعاً من القماش فى عرض ٣ ½ فأمر كمشبغا بنقص هذا المقدار الى ٢٤ ذراعاً. ولما عاد السلطان الغى هذا القرار. ويقول المقريزى: إنه رأى فى زمنه بعض السيدات يلبسن ملابس قصيرة ضيقة تسمى «قميص كمشبغا»



(يناير ١٣٩١) وقد استقبل برقوق فى دمشق استقبالاً عظيماً لأنه أعلن هنالك – كما اقتضت الحال وقتئذ – العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم. ثم سار شمالاً نحو حلب، وكان منطاش قد ذهب فى هذا الوقت الى البدو، فاستاء السلطان من يلبغا لسوء خطته معه حتى انه حين عاد الى حلب قُبض عليه وعلى كثير من محبيه الأمراء وقتلوا. وهكذا كان نكران السلطان لجميل القائد الذى أخلص له فى محنته. وقد اضطهد كذلك فى دمشق، ضارباً صفحاً عن إعلان العفو، (ديسمبر) وفى القاهرة بعد عودته اليها كثيرين من الأمراء الذين كان يخشاهم وبخاصة أصدقاء يلبغا فقبض عليهم وعرضهم على أعين الناس فوق الجمال ثم قتلهم. أما منطاش فقد استمر فى مناوشاته على الحدود سنتين حتى خانه حليفه رئيس البدو – وكان السلطان قد رشاه – (١٣٩٣) فسلمه الى عيون حملوه الى حلب حيث انتقم منه على خيانته تعذيباً بالكى حتى فاضت روحه وهو فى شدة الألم، و بعد أن طيف برأسه فى كل سورية جيء به الى القاهرة وعلق على باب المدينة أياماً ثم سلم لأرملته لتدفنه.

(١٣٩٤) وفى العام التالى اتهم عالم شريف من سلالة سيدنا على بأنه يأتمر هو والعرب برجوع مصر وسورية الى سلالة النبى، فقبض عليه هو وصديق له كان وعده بمنصب فى الحكومة الجديدة، وكويا أو ينبئا بأعوانهما؛ فاعترفا بأنهما هما المسئولان وحدهما، وزادا على ذلك، بكل شجاعة، أنهما إنما قاما بالواجب نحو الكتاب والسنة. ثم قضيا نحبهما فى العذاب الأليم. والعجب أن محاولة رجوع السلطان إلى حكام وطنيين كانت قلما يفكر فيها الساميون، كما أنهم لم يفكروا من قبل فى صد غارات مماليك الأتراك الذين كانوا لا يزالون يتدفقون على البلاد ويخضعون أهلها

(يوليه ١٣٩٨) والتاريخ يزيدنا شيئاً يسيراً فوق ما تقدم من سيرة برقوق، فحوالى انتهاء حياته حدثت مؤامرة خطيرة نستطيع أن نتبين منها خلق الأمراء القلّب والأخطار التى كثيراً ما قلبت عروش هؤلاء السلاطين: ذلك أنه قبض على مملوك لرئيس بيت المال المسمى على بك وهو يتآمر مع جارية لكبير الأمناء الذى عاقب المؤتمر فضربه

أربعمائة سوط فشكا على بك هذا الى السلطان ، ولكن السلطان لم يستدع كبير الأمناء ليسأله عما زعمه لنفسه من السلطة ، فتغيظ الشاكى كثيراً لهذا الاحتقار وأسرّه فى نفسه ثم أخذ يحاول الانتقام باغتيال برقوق فخبأ نفراً من المماليك فى بيته لمباغتة السلطان حين عودته من الاحتفال بفتح الترعة السنوى ( جبر الخليج ) ، ولكن برقوقاً قد عرف السر ، فترك موكبه خلفه قبل محاذاته بيت المؤامرة وركض مسرعاً بجواده الى القلعة بدون أن يشعر به أحد ، وجاء بعده على بك فوجد الطريق مسدودة فقبض عليه ، وبعد أن عذب ليعترف بشركائه فى الجرم قتل خنقاً ، أما أصحابه فمع أنه لم تكن هناك بينة عليهم ، قد أمر بالقبض عليهم ، وبعد أن شهروا تشهيراً شنيعاً فوق الجمال قطعت رءوسهم . ومن بين من سجن زوج ابنة برقوق لأنه كان صديقاً لعلى بك . ولما رأى برقوق أن سبباً واهياً كهذا السبب لم يكن ينبغى أن ينشأ عنه مثل هذا الخطر العظيم ندم على أنه أهمل تحذير زوجه له حين نصحت له ألاّ يجعل كل اعتماده على مماليكه الجراكسة ، وكان أجدر به أن يعتمد على من حوله من المماليك الترك واليونان . وقد أثر فيه كثيراً الموقف الخطر الذى تجلى له ؛ فلم يجرؤ بعد على ترك القلعة

٭ ٭ ٭

وفى السنوات الأخيرة من حكم برقوق بدأ الشرق ثانية يهدد السلطنة : ذلك أن تيمور لنك[1] بعد أن اجتاح كل أواسط آسيا أمامه زحف بجنوده غرباً فأخرج أحمد بن أويس من بغداد ؛ ثم سار شمالاً فخرب آسيا الصغرى إلى شواطىء بحر قزوين ، ولكنه لثوران المغول فى فارس رجع اليها مظفراً موقعاً المصائب المروعة فى طريقه ، يشهد بها تلك الأهرام التى أقامها من الرءوس فى همدان . وغزا مرة أخرى آسيا الصغرى ، وتوغل حتى بحيرة « وان » ، وهنالك دحر « بايزيد » زعيم قبيلة قره قيون التركمانية ، ثم استعد تيمور عندئذ لتوجيه العاصفة نحو الدولة المصرية ، ولكنه عدل عن هذا الرأى لعصيان آخر حدث فى الشرق فنجت بذلك سورية مؤقتاً . ومع

(١) ولد تيمور لنك عام ١٣٣٦ ميلادية وهو ابن وزير جنكيز خان



أن خسارة برقوق من تيمور كانت على الجملة قليلة ، إلا ما كان على حدود أرمينية ، فقد دارت بين الإثنين مراسلات شديدة ، ولذا أرسل طاغية المغول ، بعد أن استولى على بغداد رسولاً الى القاهرة يذكر السلطان بالحروب القديمة التى انتهت بصلح « بوسعيد » وقد كانت فارس منذ ذلك الحين ممزقة ، فخضعت لسيف الفاتح العظيم . وقد قال تيمور من رسالة « لتكن منذ الآن العلاقات بيننا ودية » فلم يرد « برقوق » جواباً وخاف أن يكون الرسول جاسوساً فأمر بقتله . واستقبل برقوق فى نفس الوقت أحمد بن أويس عدو تيمور ، الهارب إذ ذاك من بغداد ، استقبالا ملكياً ، وأغدق عليه الهبات الملكية . وتزوج من ابنة أخيه ؛ ولكنه كان لا يزال مذعوراً . وبينما هو مشتغل بإعداد ما يقى سورية من غزو محتمل ، وصلته رسالة ثانية من تيمور تشبه فى لهجتها رسالة « هولاكو » الى الناصر ، تلك الرسالة الطويلة الحافلة بالآيات القرآنية . وقد أعلن الفاتح العظيم « الذى أرسله الله لينتقم من الظالمين فى الأرض » سخطه على القاتل الشرير الذى فتك برسوله . أما السلطان فقد قال فى رده عليه باحتقار : « رسول الشر الذى له نار جهنم » . وفى منتصف العام التالى خرج برقوق فى جيش الى سورية لمساعدة أحمد على استرداد بغداد . واستمر فى سيره من دمشق الى حلب ؛ وهناك استراح بضعة أشهر . ولما وجد تيموراً سار شمالاً عاد هو الى القاهرة . وكان برقوق فى أيامه الأخيرة مزعزع المركز كما رأينا فى مؤامرة على بك ؛ فكان اهتمامه بالشئون الخارجية قليلاً . ثم قضى نحبه قبل أن يرجع تيمور نحو الغرب ثانية

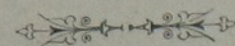
أصاب برقوقاً فى خريف عام ١٣٩٨ مرض انزلاق البطن واستمر معه حتى أماته ، وقبيل موته فى منتصف عام ١٣٩٩ عين « فرجاً » ابنه من أم إغريقية خليفة له ، وجعل معه كبيرى امرائه « تغري بردي »[1] و« أطمش » مستشارين . وكان موته فى سن الستين بعد أن حكم احدى وعشرين سنة بين سلطان وأمير ؛ وخلف وراءه عدة أولاد وبنات . وقد كان يميل الى الإسراف ، ومع هذا ترك وفراً من الأموال

(١) تغرى بردى هو والد أبى المحاسن المؤرخ

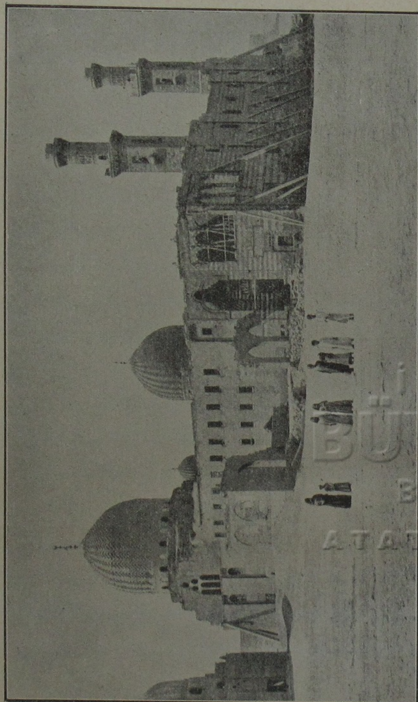
وكان لديه نحو خمسة آلاف من المماليك ، وخيول فاخرة ، وكل ما تستلزمه فخامة قصور ملوك الشرق

وإذا امتدح برقوق باعتباره حاكماً قادراً عاقلاً محسناً – ما لم تتغلب عليه شهوة الغضب أو الانتقام – ومؤسساً لكثير من المعاهد العامة ، ومصلحاً ، فهو كذلك يذم لأنه فظ قاس محب لسفك الدماء كلما دفعته مقتضيات الأحوال الى الغيرة والحسد (١)

وقد قضى حياته فى تخوف ليس من تيمور فحسب بل من أسرة العثمانيين أعداء السلطنة المصرية الجدُد والقاضين عليها فيما بعد . وإذ كان الجزء الباقى من موضوعنا يتوقف كثيراً على هذه الأسرة العثمانية أرى أن أورد هنا تاريخ نهوضها إجمالاً ، وأذكر المكانة التى شغلتها فى العصر الذى نتحدث عنه ولهذا سأقصر الفصل الآتى عليها



(١) لا يزال القبر الذى بناه لنفسه قائماً خارج القاهرة . ومن أعماله العامة الكثيرة قنطرة أقامها على نهر الأردن



مقبرة برقوق



# الفصل الحادي عشر

## الأسرة العثمانية

القرن الثاني عشر والثالث عشر

كان مهد العثمانيين فى الطرف الشرقى لأواسط آسيا فيما وراء نهر « جيحون » حيث كان التركمان والسلاجقة من زمن بعيد يفدون نحو الغرب باغراء الخلفاء العباسيين ، وكان يأتى فى أثرهم من حين الى حين قبائل من بنى جنسهم ، يساعدونهم و يشاركونهم فى الغنائم . ومن بين هذه القبائل قبيلة «الأغوز» الذين تبعوا السلاجقة فى القرن الثالث عشر . فمنحوا أراض فى آسيا الصغرى مقابل خدماتهم فأقاموا فيها حوالى أنقرة . ومن ذلك الحين الى أواخر القرن الثالث عشر كان زعيمهم «أرطغرل» يمهد لنفسه الطريق متقدماً نحو شواطىء البسفور ؛ ولما مات هذا خلفه ولده « عثمان » الذى وسع ووطد حكم العثمانيين وصار سلطاناً مستقلاً على غربى آسيا بعد سقوط السلاجقة . أما ابنه « أورخان » فقد جعل قاعدته الرئيسية « بروسة » فكان قربه من العاصمة البيزنطية مهدداً لها

القرن الثالث عشر والرابع عشر

وكان الجزء الشرقى من آسيا الصغرى لا يزال بعضه تابعاً لرؤساء التركمان الذين منهم قبائل « قره قيون » و « آق قيون » ؛ وكان فى بلاد آسيا الصغرى عدد من الولايات الصغيرة من بقايا امبراطورية السلاجقة اندمج تدريجاً فى السلطنة العثمانية فى هذا الوقت . ورغم تزوج «أورخان» من ابنة القيصر ظهرت العداوة بين الإثنين فعبر السلطان العثمانى البسفور فى منتصف القرن الرابع عشر ، واستولى على «غليبولى» (١٣٥٤) وتقدم فى الأراضى الأوربية بسرعة (١٣٥٩) . وقد زاد على هذا خلفه « مراد » فتقدم غرباً وجعل حاضرته الغربية فيلوبوليس (١٣٨٩) ؛ ومع أنه قتل ذبحاً فى محاربته القيصر بقيت السيادة العثمانية وطيدة فى جزء كبير من الشواطىء الأوربية . ولما جاء بايزيد نفذ



الخطة نفسها بعزم واخلاص . ولما خضع القيصر له سير جيوشه الى حدود المجر حيث انتصر نصراً مؤزراً فى معركة « نيقو بوليس » (١٣٩٦) . ولما عاد الى الشرق شغل جنده بالضرب على أيدى من خرجوا عليه حين غيابه فى أوربا . ووسع أملاكه حتى امتدت من البسفور و « قيسارية » الى « سيواس » و « توقات » شرقاً وشمالاً

ولو كان «برقوق» انضم الى جانب هذا الأمير الغازى وساعده بجنوده المصرية والشامية لاستطاعا معاً أن يقضيا على تيمور فى الحرب ، و ينجيا بلادهما من الخطر الداهم (١) ولكنهُ خشى بايزيد و بقى محايداً مخافة أن تغير الجنود العثمانية على حدوده ولهذا تمكن تيمور أن يضرب كلاًّ منهما منفرداً . واذا صُرف النظر عن غريزتى "تيمور" و « بايزيد » الحربيتين فان الأسباب المؤدية الى وقوع العداوة بينهما كانت متوافرة وكان كلاهما لا يتأخر عن الترحيب بأتباع الآخر الثائرين عليه – مثال ذلك أن «أحمد بن أويس» الذى طرد من بغداد، وجد صدراً رحباً لدى العثمانيين؛ وكذلك كانت الحال مع أمير «أرزنجان» وغيره – وهذا الموقف العدائى جعل تيموراً يخاطب بايزيد بتلك اللهجة الخشنة التى هى سجية لغزاة الشرق – فقد كتب إليهِ يقول « ان الحمامة قد تقاتل العُقاب؛ وان النملة قد تقاوم منسم الفيل؛ وهذا مثلك فيما تفعله من وقوفك أمام فاتح الدنيا » وغير ذلك (٢) مما جعل بايزيد يرد عليهِ بنفس اللهجة الشديدة الوقحة. ولكن عندما انقض تيمور على آسيا الصغرى ودمر «سيواس» وماجاورها مرتكباً القتل الشنيع – تلكأ العثمانى وراء البسفور لمحاصرة القسطنطينية ، فلم تشتبك الجيوش بعضها مع بعض لأن تيموراً بدلا من أن يزحف غرباً ، سار بغتة الى الجنوب فأنزل غضبه بسورية ودمشق ؛ ثم عاد الى الشرق عن طريق حلب فجعل بغداد ثانية اطلالاً ؛ ثم قضى الشتاء فى « تبريز » . وقد ساء تيموراً من بايزيد حسن معاملته لتابعه صاحب أرزنجان فجمع جيوشه من جورجيا وفارس وحشدها فى آسيا الصغرى ؛

(١) كان تيمور يقول أن بايزيد قائد قادر ولكن جنوده رديئون فى حين أن مصر وسورية كانت جيوشهما حسنة الا أنها سيئة القيادة

(٢) ذكر جيون جزءا من هذه الرسالة فى الفصل الخامس والستين من كتابه

وعندذلك طرأت أسباب دعته الى طلب الصلح فدارت المفاوضات فرفض بايزيد طلباته مغضباً وطلب الى خصمه القتال فتلاقيا قريباً من « أنقرة » ، فهزم بايزيد لهرب جنوده وأسر ، ويقال أن تيمورا حمله معه فى قفص من الحديد[1] ولم يكن فى مقدور خلفه « محمد الأول » فى هذا الوقت الاّ أن يحتفظ فقط بالجزء الشمالى من آسيا الصغرى أما باقى المملكة فقد أرجعه تيمور الى رؤساء القبائل الصغيرة . ولما ضعفت الدولة العثمانية الى هذا الحد أمنت مصر جانبها مدة ، ولكنه لم يمض وقت طويل حتى استردت كل أملاكها بين البحرين ، الأبيض المتوسط والأسود ؛ واتخذت نحو مصر ذلك الموقف العدائى الذى كانت نتيجته القضاء على سلطة المماليك بهذه المقدمة القصيرة يمكن أن تُستأنف الآن علاقة تيمور بمصر وسورية

(١) يشير «ويل» فى كتابه الى هذا القفص الحديد اشارة معقولة ويخرج من اشارته الى نفس النتيجة التى ذكرها جبون ( فى صحيفة ٩٦ من المجلد الخامس ) . يقال ان تيمورا عامل بايزيد معاملة حسنة الى أن حدث أنه حاول الهرب فجعله يتبع جيشه فى شىء يشبه المحفة المحاطة بقضبان حديدية مثل القفص وذلك محافظة عليه



# الفصل الثانى عشر

## ﴿ السلطان الملك الناصر ابو السعادات فرج بن برقوق ﴾

## ١٣٩٩ — ١٤١٢ م.

يونيه ١٣٩٩

نرجع الآن الى القاهرة : لم يكن يتجاوز فرج بن برقوق الثالثة عشرة من عمره عند ما تولى الملك فى وقت سىء مملوء بالنزاع فى مصر ، و بالفوضى والمظالم فى سورية وقد ذعر المصريون فى بادئ الأمر لإغارة بايزيد على « ملطية » وغيرها من بلدان الحدود ولكنه ارتدّ عنها قبل أن يرسل اليه جيش لمقاومته . ولما رأى السلطان أن دمشق ومدن سورية خلعت طاعته بحجة أنه قاصر ، استدعى رجال الشرع فأقروا تثبيته فى مركزه ؛ غير أن هذا لم يصلح الأحوال بل صارت الخيانات خطيرة . وأغلقت أبواب القلعة فى وجه نائب السلطان و « تغرى بردى » . و بعد أن نشبت الحرب بينهما و بين جند السلطان هزما وهربا الى دمشق التى كانت هى و باقى مدن سورية مضطربة بالفتنة وممزقة بالفوضى . وأخيراً زحف السلطان الصغير فى جيش قوى وضرب على أيدى الثوار وأعاد السلم الى نصابه بعض الشىء ، وعذب حاكم دمشق عذاباً طويلاً باعتباره قائداً للثوار ، وللحصول على ثروته ؛ ثم قتله خنقاً . وحزت رءوس أربعة وعشرين من الحكام المتمردين وعفى عن آخرين . وكان من بينهم « تغرى بردى » وذلك لتوسط والدة السلطان له لأنه من سُلالة أغريقية

اكتوبر

ابريل ١٤٠١

الخريف

وكان هذا فى الوقت الذى وجه فيه تيمور — بعدغزوته الأولى لآسيا الصغرى — جيوشه جنوباً نحو سورية ( كما ذكرنا فى الفصل السابق ) التى حينما شعرت بذلك قامت تستعين مصر وتستصرخها . ولكن كل ما أمكن عمله فى تلك اللحظة أن أُخبر الحكام أن يبذلوا جهدهم دفاعاً عن أنفسهم . وقد طلب اليهم تيمور أن يطلقوا سراح

تابعه «أطلمش» زعيم «وان» وأن يعترفوا له بالسيادة عليهم. فما كان جواب القوم الاّ قتل الرسل؛ عند ذلك انقض تيمور على سورية انقضاض العاصفة، وهزم الأمراء الذين كانوا قد تجمعوا فى حلب للدفاع عنها. ففرّ منهم فريق الى دمشق ودخل آخر المدينة التى بقيت ثلاثة أيام مسرحاً للقتل والفظائع. ومن ثم أخذ ينتقل الفاتح

ديسمبر

من مدينة الى أخرى مخرباً مدمراً، فذعرت القاهرة؛ وانتشرت أخبار بطش تيمور وانتقامه الى صفوف الجيش الذى وصل به السلطان الى دمشق فى الوقت الذى كان ينتظر فيه وصول تيمور؛ فتلا ذلك عدة مناوشات رجحت فيها كفة المصريين بمساعدة العرب لهم. وقد بقى الجيشان مرابطين مدة بجانب دمشق حتى بدأ تيمور — رغبة منه كما يظن فى تجنب شتاء سورية — يدخل فى دور مراسلات ودّية مع السلطان، فوعده بتسليم «اطلمش» والاعتراف بسيادة الخان (ايل خان) فتظاهر تيمور بالقناعة بهذا، و بدأت الجيوش الملوكية تنسحب فانقض المصريون على مؤخرتها فصُدّوا، وعند ذلك رجع تيمور وعسكر بجانب المدينة. وفى هذه الآونة قام حزب من الأمراء يأتمرون بالحكومة وذهبوا خفية ليولوا غير «فرج» وليستولوا على القلعة العزلاء. فجد السلطان فى أثرهم تاركا سورية للأقدار

وقد سلم الجيش المصرى تدريجاً؛ فسقطت القلعة بعد حصار شهر، وأسلم تيمور المدينة للحرائق والنهب. وكانت دمشق «باعتبارها قدماً مقراً للخلافة الأموية» مبغضة إلى ذلك الشيعي المتعصب. ولكن الذى هاجم أكثر من هذا كتاب وصله من السلطان يذكر فيه أن سفره لم يكن للخوف منه، بل لسبب آخر؛ وهدده بالعودة إليه والفتك به كما يفعل الأسد المهيج. تركت المدينة التعسة كومة من التراب بعد أن أسلمت أسابيع للحرق والسلب. ثم رحل تيمور وحمل معه عدداً كبيراً من

يوليه

العلماء والصناع والمهندسين والعمال إلى «سمرقند». وكان فى عودته عن طريق «حلب» ينهب ويخرب. ولما وصل إلى بغداد — وكانت قد رجعت إلى احمد —

١٤٠١

صب عليها جام غضبه حتى تركها مغطاة «بأبراج من جثث الموتى» ثم قام بغزوته الثانية على الأناضول وفيها (كما رأينا) أسر بايزيد



١٤٠٢

وفى أواخر العام التالى أرسل وفداً إلى القاهرة (مهدداً بالعودة) يطلب خضوع مصر وإطلاق سراح أطلمش. ولما كانت الشئون الداخلية شاغلة للسلطان بادر بفك أسر السجين ولم يكتف بهذا بل أرسل هدايا غالية فتقبلها تيمور، وأرسل بدلها فيلاً وأحجاراً كريمة وملابس ثمينة. ثم أن تيموراً طلب أن يقتل «احمد» و «قره يوسف» التركمانيان المسجونان اذ ذاك فى سورية فوافق «فرج» فى الحال على هذا. غير أن سورية فى هذا الحين لم يكن للسلطان عليها نفوذ تام ولذا سرحهما حاكم دمشق

١٤٠٥

بدل أن يقتلهما. ولموت «تيمور» عقب هذا مباشرة لم يحدث جديد

يناير ١٤٠١

نعود بالقارئ الى الوقت الذى ترك فيه «فرج» «تيمورا» أمام دمشق وأسرع بالعود إلى القاهرة: قد انتكث فتل الائتمار، وقد بذل كل مجهود حينذاك لتجنيد جيش آخر لمحاربة الجيش المغولى ولكنه كان قد ارتحل؛ فلم يتطلب الأمر عملاً آخر. وفى خلال السنوات القليلة التالية كانت العاصمة مسرحاً لسوء النظام المخيف بقيام بعض أحزاب من الأمراء على بعضها ومحاصرة القلعة مراراً وقد استقلت سورية

مايو ١٤٠٥

أيضاً منذ ارتحال تيمور عنها. فحاول فرج أن يستعيد نفوذه فيها ولكنهُ اضطر إلى التقهقر أمام الثوار. فتبعوه وهاجموا العاصمة. ولكنهم حسب عادتهم تنازعوا فيما بينهم ففشلوا وصدوا عن العاصمة، وعاد اليها بعض السلام. فى هذا الحين هدد «فرجا»

سبتمبر

خطرٌ جديد. وذلك أن المماليك الجراكسة قد وجدوا على السلطان لمعاقبة بعض أمرائهم، ولما رأوه منه من اكرامه للأغريق وخاصة تغرى بردى، فأتمروا به. و بينما هو «فرج» يلهو مع مماليكه فى حمامه. أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك أغريقى. ولما توقع قيام ثورة جركسية هرب بليل، واستخفى فى بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه فرفع الجراكسة عند ذلك أخاه «عبد العزيز» إلى العرش؛ وتحالفوا مع أمراء سورية. ولكنهم جميعاً غالوا فى عداوتهم؛ ولذا لما علم الحزب الآخر بأن «فرجاً» لا يزال على قيد الحياة، هاجمهم. و بينما كانت تدور رحا القتال لدى مدخل القلعة الكبير، ظهر فرج ثانية

ودخلها هو وشيعته من باب آخر وأخذ أعداءه من الخلف ، فتم له النصر عليهم بدون كبير عناء ، وهكذا استرجع فرج مكانه بعد فترة شهرين أو ثلاثة ، وسُجن «عبد العزيز» وأخ آخر له فى الاسكندرية ثم قتل هناك مسموماً

(ديسمبر ١٤٠٥) بلغ «فرج» الآن سن الرشد فحكم بعد ذلك نحو سبع سنين لم يصفُ له فيها الملك ولم يذق فيها لذة الحكم من جراء مشاحات الأمراء فى الداخل ، وعصيان الحكام فى الخارج ؛ ولكى يستعيد نفوذه فى سورية ، كان يقود الحملات اليها كل عام ، غير أنه ، حتى بعد قهره خصومه، كان ضعيفاً لدرجة أنه لم يستطع ردهم الى النظام ثانياً ؛ فخرجت من يده السلطة الملكية كلية ؛ ثم انتصر الأمير « جكم » على معظم جهات سورية، فنال لقب سلطان وما يتبعه من الأبهة ؛ ولكن هذا القائد الطموح قتل فى محاربته « قره يلك » ذلك الزعيم التركمانى ، الذى اعتدى على حدود سورية ، فصارت سورية حينذاك فى قبضة أمراء آخرين ، لا نرى فائدة فى سرد حوادث نهوضهم وسقوطهم ومنازعاتهم الأخرى . دخل أحد هؤلاء المسمى « شيخ » الديار المصرية وهاجم القاهرة وحاصر القلعة ولكنه فر عند اقتراب الجيوش منه ، ومع قتاله وعصيانه سنتين، عفى عنه، بل منح أيضاً حكومة طرابلس. وقد انغمس «فرج» فى الموبقات واشتهر بالرذائل فكان فى بعض نوبات غضبه يقتل بيده أحياناً الأمراء الذين يرتاب فيهم والمماليك الذين حوله (١٤١١)

ولقد أرسل «فرج» مرة فى طلب مطلقة له، فلما جاءت اليه وثب عليها وقطع رأسها وقتل زوجها(١). وفى احدى سياحاته فى الوجه البحري ارتكب من المظالم والإرهاق ما أدى الى قيام ثورة فى الاسكندرية . (مايو) وفى تلك الأثناء لم يفق من جنونه إلاّ بقيام ثورة جديدة فى سورية وذلك أن أميرين كان قد عفا عنهما، وهما «شيخ» و«نوروز»

(١) يروى عنه أنه كان يقتل « بالدسته » ومترجمو حياته يعتذرون عنه بأنه لم يفعل ذلك الا بعد احتمال كثير . ولكن أى حالة من حالات المجتمع تخلو من هذا !
لما جاءت هذه الطالق، اجابة لطلبه، تبعها وهى تجرى جريحة صارخة. ثم حز رأسها واف جسدها فى ملاءة واستدعى زوجها وسأله عن معرفته اياها، ثم هجم على الرجل المذعور وقطع رأسه أيضاً ثم أمر بدفن الجثتين معاً . هذه قصة مروعة لان الاثنين لم يرتكبا خطأ ينكره الشرع أو العرف بزواجهما ، وخاصة بعد أن طلقها السلطان



عصيا ووقفا موقف المستقل الخارج عن طاعته ، فخرج فى الحال فرج الى سورية وكانت سابعة حملاته عليها ، ولكنه وهو فى الطريق بدأت جنوده تهجره . و بالرغم من هذا ومن نصيحة « تغرى بردى » له أبى هذا الأمير الطائش إلاّ أن يسير جيشه المتعب المنتقص الى « بعلبك » وعندها وقعت معركة هزم فيها وجرح ، ففر الى دمشق حيث رجاه صديقه « طمرطاش » (كان تغرى بردى قد مات قريباً ) وفى الوقت فسحة أن يسرع فى العودة الى القاهرة، أو ان يطلب المساعدة فى حلب ممن حوله من التركمان ؛ فرفض فرج ذلك وتقدم « شيخ » مظفراً فكان عند ذاك تحت رحمته تماماً. ولما كان «طمرطاش» قد اعتصم بالقلعة نصح لفرج أن يهرب معه تحت جنح الظلام ولكنه تلكأ طويلاً حتى اضطر صاحبه أن ينجو بنفسه تاركاً إياه ؛ فلم يبق حينذاك إلاّ التسليم، فأذعن اليه بميثاق وثيق وهو أن يكون آمناً على حياته . وعلى هذا استقبل فى أول الأمر بالتكريم . ولكنه عزل بالإجماع لحياته الشريرة وظلمه ، (٢٣ مايو) وطرح فى السجن فدخل اليه ليلاً واحد من طائفة الفدائيين وطعنه فقتله . وقد مزق جسده وألقى به الى مزبلة ، و بعد يومين أو ثلاثة دفنه أحد الأهالى فى الليل سراً

لقد كانت مدة حكمه تعساً وشقاء ؛ فان فظائع تيمور ، ودوام الثورة فى القاهرة ، واستمرار أمراء سورية فى مشاحنات لا تنتهى فيما بينهم أو بينهم و بين السلطان، كل هذا مع ما منيت به البلاد من الوباء والقحط أنقص السكان « كما يقال » الى نحو ثلث عددهم ، وجعل الحياة عبئاً ثقيلاً . ولا حاجة بنا الى ذكر مهاجمة الفرنجة للاسكندرية واغارتهم على شواطئ سورية بجانب الارتباك الحاصل إذ ذاك(١)

واكثر من هذا شناعة فى نظر رجال الدين أن فرجاً ضرب سكة للملكة وجعل عليها صورته فكان هذا فى نظرهم احتقاراً للشريعة . و يعزي اليه وحده من بين الأسرة الطويلة من طغاة مصر سوء الحكم الذى كان ظالماً قاسياً مخالفاً للشرع

(١) فى عام ١٤٠٣ نهب الفرنجة الاسكندرية، وفى عام ١٤٠٤ نهبوا طرابلس ؛ و بعد قليل نزلت الجنود فى أسطول قبرسى عدده أربعون سفينة الى بيرو فأحرقوا المدينة وخربوا البلاد الى صيداء وطرابلس

# الفصل الثالث عشر

## الخليفة الامام المستعين بالله والسلطان أبو النصر شيخ المحمودى

## ١٤١٢ — ١٤٢١ م

عقد «شيخ» مجلساً فى دمشق (وكان فرج لا يزال بالقلعة) فولى «عباس» الخليفة الذى كان مع الجيش سلطاناً على كره منه ، لأنه علم أن ليس لغير تركى أن يحكم، وأن هذا ليس إلاّ تدبيراً غير دائم دعت اليه الحاجة ؛ فاشترط لقبولها أنه ان خلع من السلطنة يجب أن يحتفظ بالخلافة. وكان لخبر ارتقاء الخليفة «المستعين بالله عباس» الى أريكة الحكم رنة فرح وسرور فى أرجاء دمشق ؛ والواقع أن تلك كانت فرصة غريبة لأنها أتاحت لخليفة المسلمين ، الذى أهمل أمره من زمن بعيد ، أن يتوج ( ولو اسميا) وقد فرح تقاة المسلمين — الذين توقعوا لغرارتهم استمرار هذا الحكم — لانتعاش الخلافة وعودة السيطرة اليها كما كانت فى الزمن القديم

وسرعان ما تبين لهم خطؤهم لأنه لدى عودة الخليفة السلطان الى القاهرة عومل كما يعامل التابع للحكومة ، وفى الواقع سجن فى القلعة ؛ فى حين أن استولى على أزمة الأمور «شيخ» و«نوروز» معاً ؛ ولكن سرعان ما أغرى « شيخ » الماكر صاحبه أن يطلب الإمارة على « سورية » وبهذا حصل هو على نفوذ مطلق فى البلاد . وقد ثار ثائر البدو بعد ذلك بقليل فانتهزها أصحاب شيخ فرصة ، وقاموا يطلبون وجوب تعيينه سلطاناً على البلاد لصالحها وصالح الحكومة ؛ وعلى هذا خلع «عباس» لا من العرش وحده بل من الخلافة أيضاً ؛ وأرسل مع أبناء فرج أسيراً الى الاسكندرية ، وأقاموا أخاه « داود » خليفة مكانه وقد بقى فى سجنه حتى أخرجه خلف «شيخ» فعاش فى عزلة

أعلن « شيخ » حينئذ أنهُ السلطان وتلقب بالسلطان « الملك المؤيد أبو النصر



شيخ المحمودى » . وكان برقوق قد اشتراه من نخاس چركسى بثلاثة آلاف دينار فارتقى سريعاً من مملوك فى القصر الى قائد الحجيج ، فأمير على ألف . ثم عين حينذاك حاكماً على طرابلس . و بعد ذلك ( كما رأينا ) وصل الى العرش بوساطة الثورة والقتل. ولما علم « نوروز » بارتقائه الى السلطنة قام يقود سورية والأمراء الآخرين الذين أقروا الاعتراف بحق الخليفة المقدس، وأعلن حرباً مقدسة على من خلعه؛ وقد انحاز «طمرطاش» وابنا أخيه الى جانب «شيخ» وكانوا عوناً له على هؤلاء؛ ولكن « شيخ المؤيد» خاف هؤلاء الثلاثة كثيراً لأنهم كانوا قواداً ظاهرين فى الثورات الحديثة، ومكر بهم ، منكرا فضلهم، واستدعاهم لسبب كاذب الى القاهرة حيث قتلهم ثم صاح فرحاً قائلا « انى الآن سلطان حقيق بعد التخلص من هؤلاء الثلاثة » . و بعد أن

مارس ١٤١٤

تخلص «شيخ» من كل من كان يخشاهم فى مصر بوسائل السجن وغيرها زحف على دمشق فهزم « نوروز » الذى احتمى بالقلعة ثم ألقى يد السلم الى شيخ بموجب قسم عظيم أنهُ سيبقى عليه؛ وشهد عليه القضاة وكبار الموظفين. ولكن بالرغم من هذا لم يلبث بعد ظهوره ان طرح فى السجن بحجة غير مناسبة هى أن لغة القسم لم تفهم على حقيقتها، ثم قتل فى السجن وعلق رأسه على باب القاهرة فثار ثانية خلفه هو وحكام

يونيه

سورية الآخرون؛ ولكن قائد قلعة دمشق بقى ثابتاً[١] فلم تُجد نفعاً مقاومتهم وهزموا.

١٤١٥

وفى قابل زار السلطان سورية فأمر بذبح الحكام المتمردين على مرآى منه . فكانت نتيجة شدته هذه ، وقبضه بيد من حديد على ادارة بلاد سورية ، التى أشقى فيها أن عاد السلام الى نصابه فى كل الولاية . و بعد قتل «نوروز» زار « شيخ » خلوة الصوفيين السيراقوزيين وشهد حلقات ذكرهم الدينية وفيها ندم ، على ما يقال، على حنثه فى يمينه

١٤١٧

بدأت الأناضول تسترعى نظره ثانية. ذلك أن « محمداً الأول» كان وقتئذ يسترد الأقليم الذى انتزعه تيمور من أبيه. ولكنه كان فى تلك الأثناء مشغولاً كثير الاهتمام بما وراء البسفور. وكانت المعاقل التى على الحدود الأرمينية قد خلعت نير الطاعة

الربيع ١٤١٨

(١) كانت القلاع فى كل أرجاء سورية فى يد قواد مستقلين عن حكام المدن

المصرية أثناء الثورة فى سورية . ولهذا خرج «شيخ» فى ربيع عام ١٤١٨ و برفقته الخليفة[1] وقاضى القضاة وزحف بجيش قوى من حلب. فاسترد «طرسوس» والأقليم الذى تمرد. ثم زار بيت المقدس والأمكنة المقدسة (خاشعاً) موزعاً الصدقات ثم عاد مظفراً الى حاضرة ملكه

[اكتوبر] وفى خريف ذلك العام نفسه، أغار «قره يوسف» على سورية ففزع أهلها. ولا يعزب عنك أن هذا الرئيس هو و«أحمد بن أويس» لما كانا سجينين فى سورية أطلقا من سجنهما حوالى موت تيمور . وقد استرد أحمد بغداد؛ ولكنهُ لما زحف بجيوشه شمالاً هاجمهُ «قره يوسف» وذبحه ، وجعل نفسه زعيماً لجيوش « قره قيون » ونال انتصارات باهرة فى الكردستان . ثم اشتبك مع قره يلك عند قلعة الروم فتغلب عليهِ واقتفى أثره الى سورية فذعرت ، وهجر الناس حلب . وقد وصل الذعر حتى القاهرة . وتفاقم الخطب فترك السلطان الأمر الذى كان مهتماً بهِ وهو الحج الى مكة . وكان يتجمع الجيش لصده ، فوصلت الأخبار بأن قره يوسف ارتد على أعقابه[2]. ومع ذلك خرج عن حكم مصر الجزء الشمالى من سورية؛ [١٤١٩] واستولى تركمان آسيا الصغرى بمساعدة بقايا جنود «قره يلك»، على الحدود واستردوا «طرسوس». فأرسل عندئذٍ ابراهيم اكبر أولاد السلطان لاسترجاع ما فقد ؛ فاسترجعه فى غزوة عظيمة وتوغل فى فتوحاته حتى بلغ «قيصرية» وأواسط شبه الجزيرة . ثم عاد فى موكب حافل الى القاهرة ، ومن ورائه جمع كبير من الأسرى . وقد توجت هذه الانتصارات بالشرف حتى أن أباه نظر اليه نظرة الحسد ان لم تكن نظرة الخوف وكان موته فى العام التالى[3]

(١) نجد الخليفة فى هذه الايام يتبع السلطان فى حملاته الحربية هو وكبار ضباط القصر ولكنه ليس له من الامر شىء، اللهم الا أن يبارك للجيش

(٢) قد أحدث السلطان فى ذلك الوقت تغييراً فى النظام الحربى من شأنه أن يبين مركز المماليك فكان الجيش يتكون من (١) جنود نظامية تدفع لهم الحكومة و (٢) مماليك الامراء المختلفين الذين كانوا يمدونهم من أقطاعاتهم و (٣) مماليك السلطان وأجورهم من الاملاك السلطانية وكان الامراء قد بدءوا ينقلون جنودهم الى صفوف النظاميين قصداً فى النفقات . فعلاجاً لهذا أعطى المماليك الخيرة فى البقاء فى خدمة مواليهم الامراء أو فى الاندماج فى الجيش النظامى

(٣) يعزوه بعضهم الى السم بتحريض من أبيه . وينكر هذا آخرون



[مايو ١٤٢٠] أمارة شقوة، لأن مصر هددها ثانية «قره يوسف» الذى طلب ارجاع الحلى الغالية التى أخذت منهُ عند ما ألقى فى غيابة السجن . وعلى هذا أرسلت قوة لصده . وفى ذلك الحين لم تحرك هذه الأخبار السارة السلطان الاّ قليلاً لأنه كان مريضاً قبل ذلك بمدة وعند غروب شمس حياته عين « أحمد » ابنه خليفة له . [يناير ١٤٢١] وكانت سنه سبعة عشر شهراً وجعل صهره «ألطونبغا» الذى كان لا يزال مع الجيش السورى نائباً . ولمخافة الهياج شيعت جنازة المتوفى وجهز الجهاز الأخير بشكل مزر جداً فلم يكفن صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة إلاّ فى عمامة إحدى جواريه . وكانت سنه عند وفاته خمساً وخمسين سنة حكم فيها ثمانية أعوام ونصفاً . ويختلف المؤرخون فى الحكم على أخلاقه . فالمقريزى شديد النكير عليهِ وأبو المحاسن معتدل[1] فى حكمه . وقبل توليته العرش كان سبباً فى حدوث كثير من الرزايا بقتله الأنفس البريئة و بالدسائس والثورة . ولكنه بعد أن جلس على العرش أعاد السلام الى نصابه بثباتهِ وشجاعتهِ وحسن ادارته ، ورد السلام وشيئاً من السعادة الى تلك البلاد المنهوكة الضعيفة . وهو لم يك مبرأ من الخيانة، يدلك على ذلك حنثه فى يمينه فى موضوع حادثة «نوروز». أما القتل فكان فى عهده أقل مما كان يرتكب فى الأيام الخالية . والأمة كانت لا تزال تئن تحت الضرائب المرهقة . وليست تعوزنا الأمثال التى فيها هب الناس فى وجه ظالميهم. فأخذوا لأنفسهم الحق وذلك بموجب قانون استثنائى سنهُ . وكانت النقود كثيراً ما يتلاعب بقيمتها . فاذا دخل الخزانة مال ابتدع حيلة لأخذه بأقل من سعر السوق ؛ و إذا خرج هذا المال للرواتب أو سد النفقات جعلت له قيمة أعلى . وذلك ليقل صرفه ويزيد ربحه

(١) وابو المحاسن بن تغرى بردى كان محببا فى «البلاط» وهذا بلا ريب له أثر فى الحكم على السلطان . وهو يقول أنه عند ما كان صبيا ( أى نحو عام ١٤١٤ ) ذهب الى السلطان يوما من الايام وسأله شيئا يأكله فأمر «شيخ» باعطائه خبزاً؛ فقال الطفل « ان هذا طعام الشحاذين اعطنى لحما او دجاجا او فاكهة او حلوى» فسر السلطان كثيراً واعطاه ثلثمائه دينار ووظف له راتبا جاريا. وحياة (البلاط) التى تلت هذا ربما ادت الى اخبار فى غير صالح «شيخ» وخلفائه اقل مما نجدها فى المقريزى والمؤلفين الآخرين

ولئن استحق السلطان الثناء عليه لمعاضدته الطلاب ولأنهُ كان شاعراً موسيقياً لهو جدير بمضاعفة الثناء لورعه وتقواه . واللقب الملكى الذى اشتهر بهِ هو « المؤيد » [١].

ولما أصاب مصر الطاعون لبس السلطان لباس الدراويش وخرج يتبعهُ الخليفة والقضاة وأمامهم الشيوخ وهم رافعون المصاحف، واليهود والنصارى يحملون التوراة والإنجيل الى ضريح برقوق ثم سجد على التراب وسجد الناس معهُ . و بعد هذا وزع الطعام الكثير على الفقراء . وشبيه بهذا أنه صام ثلاثة أيام وسجد لله متوسلاً اليه أن يرسل الى البلاد ماء النيل ، وذلك فى وقت عم فيه القحط والمجاعة . ولما دعا له أحد الناس بالبركة قال له : ( لا تطلب معونة الله لى فانى هنـا لست الا واحداً من عبيدكم [٢] )

١٤١٦ ١٤١٧

وفى خلال حكم هذا السلطان جدد الفرنجة الغارة ثانية على الاسكندرية وعادوا بأسرى كثيرين وغنائم ؛ ولعل هذا بعض الأسباب التى نفذت من أجلها على اليهود والنصارى إذ ذاك قوانين هى غاية فى الصرامة [٣] ولم يكن ينتظر غير هذا من مسلم غيور على دينه . وقد كان من أعماله بناء مدرسة ومستوصف ؛ هذا الى انه هو الذى حول السجن الذى القى فى غيابتهِ سابقًا الى مسجد ملكى

(١) هذا اللقب يغلب عليه و يعرف بهِ . وبه سمى المسجد الذى أسسه والذى لا يزال باقيا بالقاهرة الى يومنا هذا . وقد بقى اللقب اسما لجماعة مماليكه وأتباعه الذين سنسمع عنهم دائماً فى النزاع التالى

(٢) ذكر هذا المقريزى بعبارة متأثراً فقال ( إن رجلا كهذا كان فى مقدوره أن يأتى بما هو أفضل من ذلك اذا كان رائده الاخلاص والامانة )

(٣) مع تلك النظم القاسية قد حظر على اليهود والنصارى حينذاك أن يستخدموا المسلمين فى أعمالهم



# الفصل الرابع عشر

## أحمد — ططر — محمد — برسباى الأشرف

## ١٤٢١ — ١٤٣٨ م

يناير ١٤٢١

حمل الطفل أحمد بعد موت أبيه من الحريم وهو يصرخ ، ووضع على ظهر جواد ثم سار باحتفال الى قاعة الاجتماع حيث حيي بالسلطنة [١] ولم تكن سنه تبلغ السنة ونصف السنة . وفى غياب الطونبغا قام ططر هو وأمير آخر كان يسميه « شيخ » بأنه نائب مؤقت ، واستولى على أزمة الأمور ، واستمال الجيش الى جانبه باغداق الهباة عليه من الكنوز التى جمعها « شيخ » . و بوثبة واحدة أرسل كل من كان يخافهم مقيدين بالأغلال الى الاسكندرية ؛ ثم أخذ بيد الطفل الصغير ليوقع بها براءة نيابته عنه فى الحكم ؛ و بذا اعترف بهِ الخليفة وأولو الأمر فى القاهرة بأنه نائب السلطان . فقامت ثورة ضده فى سورية ؛ وانضم اليها أولا « الطونبغا » الذى كان يعد نفسه النائب الحقيق ؛ ولكنه فى آخر الأمر خضع لططر . وانقلب على حاكم دمشق الثائر فجعله يفرُّ أمامه ؛ وكان يوالى ططر بخبر انتصاره فى حينه . ولما سافر ططر إلى سورية رحب بهِ بلقب « نائب » عند دخوله دمشق. ومن غريب نكران ططر للجميل أنهُ قيده وقتله مع أمراء آخرين كثيرين كان يخافهم . و بعد زيارته حلب عاد الى دمشق فارتكب فيها القتل ثانياً . وكذلك فعل فى القاهرة ؛ وذلك أنه أمر بأن يقتل كل من كانوا لا يزالون ينتمون إلى أسرة « شيخ » . ولما أمن هذا الأمير الملطخ بالدماء المقاومة خلع الطفل أحمد

مايو

اغسطس

(١) قراءة القاب هؤلاء الأطفال السلاطين مما يستلذه الانسان فان الطفل الذى نحن بصدده شرف باسم « الملك المظفر » والذى بعده وهو ولد فى سن العاشرة « الملك الظاهر سيف الدين » وقد امتنعت قصداً من تحميل هذه الصحيفة بالالقاب الجوفاء تعطى للسلاطين الاطفال مماليك الامس ، كما هى العادة فى الشرق

واستولى هو على السلطنة . وفى الشهر الثانى عاد الى القاهرة فاستقبل فيها بأفراح ظاهرية . وبعد ذلك بقليل مرض فعين ابنه محمداً « وهو طفل فى العاشرة من عمره » خليفة له وجعل الوصى عليه « برسباى » الجركسى مثله، وجعل النائب عنه « جانى بك » ، وقد مات بعد أن حكم ثلاثة أشهر[1]

نوفمبر

وقد بغى الأميران بعضهما على بعض كما كان منتظراً ؛ غير أن برسباى المستولى على القلعة قبض على « جانى بك» وعلى أعدائه الآخرين ، وأصحابهِ الذين يرتاب فى أمرهم ، وسجنهم جميعاً فى الاسكندرية. ثم ارتقى بمعاضدة حاكم دمشق إلى العرش بعد نصف سنة من موت « ططر » . وقد أخمدت أنفاس بعض الحزب المقاوم ونفى بعضه الآخر من الأرض ، فلم تبق هناك مقاومة . أما الصبي المخلوع فقد زوج وسمح له بالتجول فى المدينة[2] ، على حين قطع كل الهبات المعتادة التى كانت تغدق على مماليك السلاطين . ومما حبب « برسباى » إلى الناس اصداره مرسومات جديدة ضد اليهود والمسيحيين ، والسماح لكل من يقترب منهُ بتقبيل يده أو تقبيل ذيل ثوبه بدلاً من تقبيل الأرض كالسنة المتبعة من قبل[3]

ابريل ١٤٢٢

وقد انتشرت السكينة فى أرجاء الأمبراطورية فى خلال العام ونصف العام الذى تلا ذلك ، حتى وافى خريف سنة ١٤٢٣ . وفيه حدثت ضجة سببها هرب « جانى بك » من الاسكندرية من غير أن يعلم أحد مقره ، على رغم التعذيب والسجن اللذين أوقعهما بالناس ؛ وبقى مجهولا أمره مدة طويلة – ولكنا سنسمع الكثير عنهُ فيما بعد . كانت سورية فى هذا الوقت أقرب الى الولاء منها فى الماضى .

اغسطس ١٤٢٣

(١) كان ططر مثل برسباى مملوكا جركسياً لبرقوق وقد فكت رقبته وادخله فرج الى الجيش ثم انتهى به الأمر أن جعله « شيخ » أميراً وكان نخاسة علمه الفقه والقانون لان المماليك العارفين بالآداب أو الدين أو الفلسفة أو الصناعة ، كانوا يباعون بأثمان عالية .

(٢) كانت اسر وابناء السلاطين الغابرين الى ذلك العهد يعطون مسكناً فى القلعة ولكنهم من ذلك التاريخ نقلوا منها وسكنوا المدينة بعد

(٣) الغى هذا الامر ولكن بدلاً من تقبيل الارض كما كانت الحال قبلا سمح لأى انسان يقترب من السلطان أن يمس الارض بيده اولاً ثم يقبلها



والحق أن حاكم « صفد » قد ثار عند خلع ابن ططر ولكنهُ أرسل اليهِ السلطان وعداً كتابياً أقسم فيه أن يعطيه ولاية طرابلس فاستسلم . ولم يلبث الأمير المخدوع حين لبس ملابس الشرف وسلم القلعة حتى قبض عليهِ وقتل[1] . وفى العام التالى أصاب حاكم دمشق الثائر ما أصاب هذا

سبتمبر

ولما كانت سورية هادئة فى هذا الوقت وجه « برسباى » التفاته الى قرصان البحر الذين بدءوا يزعجون بغاراتهم شواطئ سورية ومصر ؛ وقد أبحرت عدة مراكب مسلحة ، يقودها مخاطرون دأبهم الانتقام ، الى قبرس فنهبوا « ليماسول » وأحرقوها ، وعادوا بالأسرى والغنائم الكثيرة . فشجع هذا السلطان حتى جهز فى قابل أسطولاً بالجند الكثيرين فنزلوا على « فيماغوستا » فدحروا العدو ونهبوا «لارناقة» و «ليماسول» وعادوا ظافرين الى القاهرة ومعهم ألف أسير[2] وغنائم شتى

اغسطس ١٤٢٤

الخريف ١٤٢٥

ولم يكن يقصد السلطان الى شن غارة من هذا النوع بل كان يرمى الى فتح الجزيرة ؛ وتنفيذاً لهذا الغرض أرسل وقتئذ قوة لا تقهر ، تقدمت بعد استيلائها على « ليماسول » نحو « لارناقة » وأخذت الملك « جانوس » أسيراً ، بعد أن هزمت الجيوش القبرسية ، وعادوا بهِ الى القاهرة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم المختلفة فدخلوا تخفق على رءوسهم ألوية النصر ؛ وكان ذلك فى حضرة الغاشية وسفراء الأجانب . وكانت الغنائم محمولة على الجمال ومعها تاج ملك « قبرس » وجواده ، والأعلام التى استولوا عليها فى الحرب ، والأسارى من الرجال والنساء والأطفال ، ووراءهم جميعا الملك الذى قبِّل – وهو يرسف فى الأغلال – الأرض لدى أقدام السلطان ، ثم خر مغشياً عليه ؛ فحمل الى القلعة . وفى نهاية الأمر دبر قنصل «البندقية» وسواه من القناصل فداء للملك الأسير فأطلق سراحه وأنعم عليه بثوب ملكى جميل

١٤٢٦

(١) قتل مائة من رجال الحامية وقطعت أيدى ثلاثين ؛ وهذا مثال محزن للوحشية

(٢) بيع الاسرى كلهم . ولكن مما يذكر برهاناً ساطعاً على رحمة برسباى أنه حرم بيع الاطفال أو القرابة القريبة بدون أن يباع معهم أهلوهم أو من يعولهم

١٤٢٧ وجواد ، وسمح له بالعودة الى قبرص فكان من ذلك العهد تابعاً لسلطان مصر[1]

١٤٢٣ وقبل ذلك ببضع سنين كان شريف مكة قد خرج على الدولة فأرسل اليه جيش أعاد نفوذ مصر على مكة وميناها « جُدَّة » ، مما زاد فى سرعة الاهتمام بتجارة المشرق ؛ وكانت « عدن » من زمن بعيد الميناء التجارية العظمى ، غير أنهُ قد لجأ اليها زعيم مولع بالمخاطر دخل الى البحر الأحمر فى هذا الوقت وضيَّق على موانى مختلفة وراء مجاز باب المندب . وهذا الرجل أسمه ابراهيم من أهالى « قاليقوط » وكان التجار قديمًا يفرون من هــذه الموانى لما يلقونه فيها من العسف ؛ فصارت « جدة » بتحسن معاملة المماليك للتجار ، وبقاء العسف فى « عدن » الميناء المعترف به ، وصارت مكة المكرمة السوق العظمى للتجارة الشرقية[2] . والحق أن السلطان جهد كثيراً فى اتخاذ جميع الوسائل لمنع تحول الأمكنة المقدسة الى مخازن تجارية ، غير أن الأمر أتى على عكس ذلك إذ أنهُ – كما يقول المقريزى – قضت مسالك التجارة – مع أن رغبة الناس جميعًا فى أن تكون مصر طريق المتاجر كلها مهما عرض فى سبيلها من المخاطر – بأن تكون كذلك مع ما فيه من التعارض مع حرمة الكعبة وقداستها

وقد صدر فى ذلك الوقت قرار مؤداه أنهُ يجب أن تحمل التجارة القادمة من أى جهة عن طريق بلاد العرب أو سورية أو العراق أولاً الى الاسكندرية أو

١٤٢٨ القاهرة ، وفيها تفرض عليها الضرائب . وقد احتكرت الحكومة التوابل الشرقية وخاصة الفلفل ، فحدا ذلك دول أوربا الى الشكوى والانتقام . وقد أثقل كاهل الناس عبء آخر وخاصة فى زمن الوباء وهو التضييق على صناعة السكر بل على زراعة القصب[3] ؛ والحقيقة أن الحكومة دخلت فى كل شىء من فروع التجارة .

---

(١) كانت الدية ثلثمائة ألف دينار وجزية سنوية مقدارها عشرون ألفاً . كان أبو المحاسن المؤرخ شاهداً هذا ، ورغم تعصبه امتدح ذكاء الملك وعلمه وزاد على ذلك انه كان يعرف العربية

(٢) ان ما كان يؤخذ من الرسوم على حمولة أسطول مكون من أربعين سفينة يبلغ ٧٠ الف دينار

(٣) كان السكر فى زمن الطاعون يوصف دواء للمرض أو وقاية منه



وكانت تراقب الأسواق – حتى أسواق اللحم والقمح – مراقبة أدت الى أن هجرها الناس أحيانًا هجراً نجم عنهُ الهياج والثورة . وأسوأ من هذا كله مظالم المماليك الباغين الطغاة الذين أوردوا الناس موارد الارهاق حتى كانت النساء قلما يجرؤن على الخروج من البيوت . وعلى الجملة كان الارهاق بالغًا مبلغه فى كل الجهات ؛ فمن ذلك أن خيل الفلاحين كانت تؤخذ منهم قسراً الى الجيش . وفى الحقيقة انتشرت المتاعب والأعباء فى أنحاء البلاد كافة حينذاك فى أوقات السلم وزادت وطأتها على ما كانت عليه فى زمن الحرب

١٤٢٩ وفى الجزء الأخير من حكم « برسباى » توترت العلائق وكثرت الحروب بينهُ وبين دول الشرق والشمال ؛ وأغار على الحدود السورية « قره يلك » زعيم التركمان الذى كافأه « تيمور » على خدماته بمنحه « سيواس » . فأرسلت مصر جيشًا ليعيد النظام الى نصابه فحاصر « الرَّها » التى سلمها ابن « قره يلك » على شريطة أن يخرج منها سالمًا ؛ غير أن جيوش المماليك اقتحموا الأبواب بهمجية وأطلقوا يد التخريب والنهب وبين أيديهم الاضطراب والقتل ، فكان مصير المدينة محزنًا اذ حمل النساء المساكين ، اللاتى دنس شرفهن ، مع أطفالهن ليُبَعْنَ بيع الرقيق فى حلب . وكان أعجب شىء أن يرى نصرانى فى أرمينية أو فى تلك الجهات مطلقًا

وقد انقلب هذا الهجوم على كل حال الى ضده ، لأن الجنود فى تغاليهم الوحشى لم يربحوا شيئًا ووقع بينهم الارتباك فتفرقوا وعادوا أدراجهم الى سورية كأنهم فارُّون ؛ فقام « قره يلك » ينتقم ويخلص ابنهُ من أيدى المصريين ، فأغار على مدن الحدود وخربها ثانية . ولما كان يعاضده « الشاه روخ » ابن « تيمور » ذعر أهل القاهرة . غير أن الوباء والقحط وقفا تلك الحروب ومنعا استمرارها فى ذلك الحين

١٤٣١ – ١٤٣٢ وفى السنوات التالية جرت مكاتبات غير ودية مع « الشاه روخ » الذى كان يطالب بأن يكون له الحق فى تقديم الكسوة للكعبة ؛ فأجابهُ السلطان على ذلك

بالسخرية والشتائم . وقد أصبح موقف « قره يلك » مخيفاً لمصر بعد أن أنس من الشاه تشجيعاً ، فخرج « برسباى » على رأس جيش فى الربيع وحاصر « آمد » عاصمة ملك « قره يلك » ، التى كان يدافع عنها أولاده . و بعد حصار استمر شهراً على غير جدوى ، عقدت مهادنة جوفاء مع « قره يلك » و بذلك رجع السلطان أدراجه عن طريق « الرها » المخرّبة ودخل القاهرة فى الخريف باحتفالات لا يستحقها . وقد استمر « قره يلك » فى إغارته على أقاليم الحدود ، ثم تظاهر فى العام التالى بالولاء لمصر ، وأرسل برهاناً على ذلك ، هدية من الخيل وعملة مضروبة باسم السلطان

١٤٣٣

سبتمبر

اغسطس ١٤٣٤

وكانت الجيوش السورية لا تزال فى آسيا الصغرى تحافظ على ولاء زعماء « كرمان » و « ذى الغادر » . ومن العجيب أن نجد زوج حاكم ذي الغادر ، عند ما أسر ابنها فى حصار ماراش ، توفد الى مصر بهدايا نفيسة لتحصل من السلطان على العفو عنه . وفى هذه اللحظة ظهر ثانية « جانى بك » بعد أن استخفى عدة سنين ؛ فكان ظهوره مزعجاً لأن هذا الهارب عاضده «الشاه روخ» الذى ساءت علاقته مع السلطان حينئذ ، لتكرر طلبه بخصوص مكة ، وأعلن بأيمان مغلظة أن لا بد من أن تبدل كسوته على الكعبة ؛ فأجابه على ذلك « برسباى » باحتقار قائلا : إنهُ ميسور له أن يبر بقسمهِ بأن يبيع الكسوة و يوزع ثمنها على الفقراء ثم جاء الى القاهرة رسول آخر ومعهُ حلة ملكية وأمرٌ من الشاه يحتم على السلطان أن يلبسها كتابع له . فمزقها السلطان إرْباً إرْباً وألقى الرسول فى بركة . ولما أذن له السلطان بالعودة قال له : « قل لسيدك اننا نهزأ بطلبهِ ، وانه إذا لم يخرج الينا فى العام القادم لينتقم لك على ما أصابك نعده أضعف انسان [1] » واستعداداً لمثل هذا الموقف تقدم ثانية جيش كبير نحو آسيا الصغرى . ولما بلغ برسباى أن الشاه قد طلب

ابريل ١٤٣٥

يناير ١٤٣٦

(1) يقال ان هذا الرسول حصل فى القاهرة على نسخة من تاريخ المقريزى الذى لا بد من ان يكون قد انتشر اذ ذاك وحصل كذلك على نسخة من البخارى



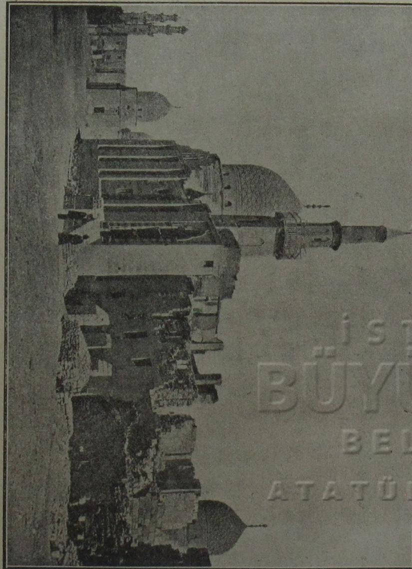
طلباً غير معقول من «مراد» سلطان العثمانيين انتهز الفرصة وعقد محالفة دفاعية معه نجحت الحملة نجاحاً كبيراً فى آسيا الصغرى وطرد « جانى بك » وأمراء ذى الغادر الى ما وراء « سيواس » فلجأ «جانى بك» الى أولاد « قره يلك » ليحتمى بهم فقتله أحدهم وأرسل برأسه الى القاهرة ففرح السلطان فرحاً عظيماً وأمر أن يطاف بالرأس فى المدينة ثم ألقى بهِ فى الوَحل . وكان « قره يلك » نفسه قد هلك قبيل ذلك فى « أرزنجان » عند ما كان يقاتل بجانب الشاه مع زعماء الوير الأسود ( قره قيون – أى الشاة السوداء ) وقد أرسل هؤلاء أيضاً برأسهِ الى مصر . ولكن لم يكد« برسباى » يشعر بالطمأنينة لهلاك عدويه هذين حتى قام ابن آخر لقره يلك يريد الانتقام لجانى بك فهاجم قاتله وذبحه وقام بحملة جديدة على المصريين ، فذعر « برسباى » ورأى أن يخرج بنفسه للقتال ولكنه أخيراً ترك القيادة لحاكم دمشق الذى أعاد السلم الى نصابه حتى « ارزنجان » فى غزوة مظفرة فبسط نفوذ مصر على النصف الشرقى من آسيا الصغرى ؛ وكان النصف الغربى منها للعثمانيين . ولكن قبل أن تصل أخبار هذا النجاح الى القاهرة كان قد مات « برسباى »

١٤٣٧

اغسطس ١٤٣٥

يونيه ١٤٣٨

ولم تنج مصر، على ما نالها من نعمة فى عهد برسباى ، من هفواته التى كانت سجية فى المماليك؛ فكان مولعاً بالظهور الذى استلزم نفقات باهظة ؛ وقد بلغت قيمة حُلة واحدة للسلطانة ثلاثين ألف دينار – ولسنا نسمع غير هذا الا القليل عن حياته المنزلية – وهذا حظ امرأة كانت من زمن قريب رقيقة ! . وقد عكرت المصائب المتتابعة من الطاعون والمجاعة والجراد صفو أيامهِ الأخيرة؛ وازدادت فظائع المماليك التى ذكرناها فيما سبق سوءاً على سوء . ولم يقبض على النساء من غير حياء فحسب بل على الصبيان أيضاً حتى تجنب الناس الخروج الى الشوارع . وقد فتك الطاعون فى مدة ثلاثة أشهر بثلاثمائة ألف من سكان المدينة وحدها ، فعد السلطان ذلك عقاباً للناس على خطاياهم ، فحظر على النساء الخروج ؛ وحاول أن يكفر عن هذه الخطايا ، لا بفرض اتاوة جديدة على اليهود والنصارى فحسب ، بل بتدمير دير



« مقبرة برسباى الأشرف »



كانوا يقدسونه[١] كثيراً ؛ وبهذا الغرض فتح أبواب السجون على مصاريعها «طريقة عجيبة للتوبة » فعرض المدينة بهذا لعبث المجرمين واللصوص . ثم دخل الطاعون القلعة فأصاب الطبقتين ، العليا والدنيا جميعاً ، من أميرات الى جوار ، الى خصيان ، الى مماليك . وكان السلطان نفسه ، مع أنهُ نجا من الطاعون ، يشكو مرضاً آخر ولما لم يشفه طبيباه الشريفان المحترمان أمر بهما فقطع رأساهما فى محضر شيوخ المدينة ، ولم يقبل فيهما شفاعة حاشيته لهما . وبعد أسابيع ، عندما شعر بدنو منيته ، نصب ابنه « يوسف » خلفاً له ، وجعل الأمير « جقمق » وصياً عليه ، ثم استدعى اليه وجوه المماليك ووبخهم طويلاً باللغة التركية على قسوتهم وانغماسهم فى الشهوات ، وأمرهم أن يخلصوا لولده ؛ ثم لفظ الحياة

أول يونيه ١٤٣٨

ويصفه المقريزى دائماً بأنه ماكر قاس جشع غشوم . وقد رأينا أنه لم يتردد لدى كل فرصة فى أن يخلص من أعدائه بدعوى الخيانة . وكل ما يمكن أن يقال خيراً فيه ، أنه مع ما تقدم ، لم يك سيئاً مثل كثيرين ممن سبقوه[٢]

---

(١) كانت الفرائض الثقيلة على اليهود والنصارى قبل ذلك الوقت يقوم بالنظر فيها موظفون كبار متدينون ؛ ولكن عهد بها حينئذ الى أحد سفلة الناس فامتص دماء النصارى المساكين بدون إستحياء

(٢) لم يلق المقريزى التشجيع من البلاط فى حكم هذا السلطان ، ولعل هذا من الاسباب التى جعلته يقسو فى حكمه عليه . أما أبو المحاسن الذى كان محبوباً هناك فهو بالطبع اكثر اعتدالا فى حكمه . والمؤرخون الاخرون يقولون أن صلاته وصيامه لم يكونا الا نفاقاً

# الفصل الخامس عشر

## يوسف بن برسباى - الملك الظاهر جقمق

١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

أول يونيه ١٤٣٨

مع أن «يوسف» كان فى سن الخامسة عشرة تقريبًا فان مصيره كان كمصير سالفه الطفل؛ فانه بينما كان «جقمق» يتظاهر بالطاعة لوليه استولى على القلعة وضم الى جانبه تدريجًا حزب الاشرفية المخلصين لبيت السلطان[1] السابق. ولما عاد الجيش بعد قليل من حملته الأسيوية خدع قائده «قرقميش» اذا أفهم أن «جقمق» يحاول أن يحصل له على التاج. ولما أوعز الى هذا القائد المخدوع، أن يقترح فى اجتماع المجلس اسم «جقمق» للسلطنة، فعَلَه؛ وكان دهشه عظيمًا عندما وافق الأمراء بالإجماع على اقتراحه ونادوا فى الحال بمنافسه سلطانًا؛ وبهذا خلع «يوسف» بعد أن حكم ثلاثة أشهر أو أربعة، ثم سجن فى القلعة

سبتمبر

و «جقمق» هذا مملوك چركسى من مماليك «برقوق» وكانت سنه اذ ذاك خمسًا وثلاثين سنة. وقد ارتقى مثل أسلافه من مملوك فى القصر الى أكبر مناصب الحكومة. وقد اضطر ارضاء للماليك الطامحين، الى أن يمنحهم جميعًا هبات كبيرة لم يجعلها قاصرة على مماليكه كما كان متبعًا الى هذا الحين. فلما رأى «قرقميش» تفوق «جقمق» عليهِ، جمع حوله الاشرفيين، وحاصر القلعة فغُلب وقبض عليهِ

(١) بدأت احزاب المماليك فى ذلك الوقت تتسمى بألقاب السلاطين الذين ينتمون اليهم أو الذين كانوا منتمين لهم قبلا: فطائفة الاشرفية نالت اسمها من اسم برسباس الاشرف. والظاهرية سموا كذلك نسبة الى برقوق الذى كان لقبه ولقب جقمق أيضا «الظاهر». والمؤيدية اخذوا اسمهم من «شيخ» وايضاً «احمد المؤيد» — هذه هى اهم الاحزاب التى جعلت القاهرة وقتئذ فى هياج مستمر. وكانت هناك احزاب اخرى كالناصرية اى توابع السلطان الناصر وكان الأشرفيون والظاهريون ينقسمون ايضاً الى حزب قديم وحزب جديد



وأرسل فى السلاسل الى الاسكندرية فبقى فيها بضعة أشهر حتى حكم عليهِ بالقتل فحمل عاريًا فى المدينة، وقطع رأسه على مرأى من الناس؛ وقد وقع الأذى والقصاص على جل الاشرفيين وقتئذ، وعذب الكثيرون منهم، وذبحوا، ونفى الباقون الى الجهات النائية. ثم بعد هذا هدأت المقاومة فى العاصمة فى تلك الفترة

أما الحال فى سورية فكانت على النقيض من ذلك. ولو أخر «جقمق» طلبه للسلطنة حتى ينال الرضاء هناك كما نُصِح له لدلَّ على حكمتهِ وبعد نظره. وقد انضم حاكم حلب الى الثائرين، بعد أن تظاهر بالطاعة عدة أشهر، وأعلن إعادة «يوسف» الى السلطنة، وشنَّ الغارة. وفى تلك الفترة هرب يوسف من القلعة فى زى طاهٍ بمساعدة خصيه ومرضعه وجاريته؛ ولكنه لما لم يجد المعونة الكافية رجع واستخفى فتضايق «جقمق» لهذا كثيراً، ولكنه بعد أن عذب الخصى والمرضع وآخرين، كشف أمر الشاب وجئ به بين يدى السلطان الذى أحسن معاملته، (وكان «جقمق» فى هذا خيراً من معظم بنى جنسه) فان يوسف أُرسل الى الاسكندرية وعاش فى راحة تحت المراقبة. على ان ظهور يوسف فى ذلك الوقت كان مسعر النار الفتنة فى سورية فوقع قتال كبير فى كل ارجائها. ولكن الثوار هزموا فى حلب ودمشق.

فبراير ١٤٣٩

أما زعماء الثورة، وهم كسادتهم المماليك المحدثى النشأة، فبعد أن عذبوا لكى يعترفوا بما لديهم من الثروة، قتلوا بلا رحمة هم وكثيرون من اتباعهم. وقد أقيمت الأفراح فى القاهرة عندما عرض رأس حاكم «حلب» فى الطرقات ثم علق أخيراً على باب المدينة. أما جنود الأشرفيين الذين كانوا مشتغلين فى الوجه القبلى بمدافعة البدو فقد انضموا الى المتآمرين ولكن كان مصيرهم فى آخر الأمر كمصير المتمردين فى سورية

مايو

ولما قمعت الثورة، وزع الأمراء الكثيرون الذين كانوا لا يزالون سجناء فى الاسكندرية على الأرجاء المختلفة البعيدة من الامبراطورية صونًا للأمن من أن يعبث بهِ. وبهذا لم ينتصف العام حتى أعيدت السكينة الى نصابها.

ولما رأى جقمق فى ذلك الوقت أنهُ أصبح آمنًا مطمئنًا فى البلاد، وجه جيوشه

باعتباره مسلماً مخلصاً لدينه، على الفرنجة الذين بدأت قرصانهم تدمر الساحل من جديد. ولما كان متشجعاً بالانتصارات الحديثة العهد فى قبرس فانهُ أرسل حملات متكررة على «رودس». فالحملة الأولى، بعد أن خربت جزيرة «شاتورو» هاجمها الفرسان فعادت خاسرة الى مصر؛ فقامت حملة ثانيـة أقوى من الأولى فكان نصيبها كنصيب سابقتها. وقد صمم السلطان على أن يتوج الحرب المقدسة بالظفر، فجهز أسطولاً قوياً يحمل عدداً كبيراً من البحارة، ومعهم ألف من مماليكه الخاصة[١] فنزلوا الى البر، وبعد أن نهبوا كثيراً من القرى، حاصروا «رودس» أربعين يوماً ولما يئسوا من الفوز، عادوا الى أوطانهم؛ وعند ذلك تنازل السلطان عن مشروعه لأنهُ لم يجد فيهِ أملاً؛ وسالم الفرسان

اغسطس

مايو ١٤٤٣

يونيه ١٤٤٤

وكانت علاقة «جقمق» بالبلدان الاسلامية التى حوله على حظ عظيم من المصافاة، فجاءته الوفود تترى من كل امارات آسيا الصغرى التى طالما شقت عصا الطاعة، حاملة الهدايا الغالية، ومؤكدين ولاءهم؛ وكانوا يستقبلون فى القاهرة استقبالاً ملكياً. وقد عقد السلطان زواجهُ على ابنة صاحب أبلستين أحد رؤساء ذى القادر – وكانت قد جاءت الى القاهرة مع رسول أبيها

وقد تزوج من اثنتين من أميرات آسيا الصغرى احداهما عثمانية (شاه زاده) – واستقبل فى فاتحة حكمه بكل حفاوة وتكريم رسولاً من قبل الشاه رُوخ، جاءه ومن ورائه قافلة من الجمال المحملة بالهدايا النفيسة والمسك والمواد الشرقية – فرد له على هذه الهدايا بما يناسبها من التحف المصرية النادرة – ثم استأذن الشاه ثانية فى أن يرسل كسوته الى الكعبة برًّا بقسمه فرضى السلطان بهذا على كره من أمرائه. وفى العام الثانى عند ماجاءت أرملة «تيمور» لنفس هذا الغرض الدينى كان الشعور فى المدينة قوياً ضدها حتى رشقت حاشيتها بالحجارة ونهبت بمجرد نزولها من القلعة، فعاقب السلطان المعتدين عقاباً صارماً، وقدم تعويضات أرضت الملكة وعادت الثقة والعلاقة مع الشاه

١٤٤٣

(١) يقال ان الاسطول كان يحمل ثمانية عشر الف مملوك. وحتى اذا راعينا ان هذا مبالغ فيه، فلا بد من ان الحملة كانت كبيرة



وكذلك دارت مراسلات ودية وتبودلت الهدايا الغالية بين السلطان والقصر «العثمانى». فاذا راعينا ماكانت فيهِ البلاد من صلاح فى الداخل وما كانت عليه من المحالفات الودية فى الخارج عددنا حكم «جَقْمَق» خير حكم، اذا استثنينا سورية، وأعظم الأوقات سلاما تمتعت بهِ مصر منذ عدة سنين. وقد قل فى حكمه التعذيب والتقتيل. أما التجارة فكانت لا تزال معرقلة بالقيود السابقـة، وهى القيود التى اعترض عليها الشاه. غير أن علماء القانون أقروا أنها عادلة ولازمة لتنظيم التجارة. وكانت أسوأ نقطة فى إدارته مظالمُ المماليك التى لا تردع والتى كان أثرها فى الافراد أكثر منهُ فى المجموع. وقد أورد لهم المؤرخ بعض الأمثلة القاسية فى معاملتهم الوحشية للأمراء المؤذين؛ ولم يعاقبهم السلطان على أمثال هذه الثوْرَة لخيفته منهم. وقد كان جقمق نموذجاً فى حسن اسلامه فبينما كان اليهود والنصارى يعاملون بصرامة[١] كانت القوانين تنفذ بشدة على الرذائل والشهوات. ولما كان حسن الذوق ومحباً للمخطوطات اليدوية الجميلة أحب العلماء ورغب فى مصاحبتهم. وقد كان شفيقاً سمحاً، ولم يترك غير القليل فى خزانته الخاصة. ولما كان مولعاً بالنساء تزوج بنتى قاضيين غيـر الأميرتين اللتين مر بك ذكرهما. وحين قارب العقد الثامن من العمر تزوج بعروس أخرى؛ وبعد ذلك بقليل أصابه مرض معاود قاساه مدة عام أحس فى آخره دنو منيته، فأشخص اليه الخليفة والقضاة وكبار الأمراء ونزل عن العرش وأمرهم أن يعينوا خلفه؛ وكان ابنه الأكبر المعروف بالنبل والفضل قد مات من عشر سنين خلت؛ ولذا عينوا خليفة له ولده الوحيد «عثمان» وأقروا له بالطاعة فى الحال. وقد مات جقمق بعد أسبوعين من هذا التاريخ، وشيعهُ الى القبر رجال الحاشية وجمهور كبير من أهل المدينة الذين حزنوا لفقدان سلطان حكم فيهم حكماً عادلاً خمسة عشر عاماً[٢]

١٤٥٢

يناير ١٤٥٣

(١) ومثالا لتدخله التافه كان محظوراً عليهم أن يجعلوا عمائمهم من شيلان يزيد طولها على سبعة أذرع (٢) مات المؤرخ المقريزى فى أوائل حكمه (١٤٤١) ومن ذلك الحين تعوزنا التفاصيل المسهبة التى تكثر فى مؤلفه العظيم لآخر حياته. وعلاوة على شغله وظيفة رئيس شرطة القاهرة كان مدة ما رئيس الوقف فى دمشق واشتغل أيضا قاضيا فيها. ولم يك مطلقاً من رجال القصر. من أجل ذلك لا يتملق فى كتابته، ومن هذا الوقت الى نحو عشرين سنة بعد نعتمد كثيراً على أبى المحاسن فى هذا التاريخ

# الفصل السادس عشر

## عثمان بن جقمق – الأشرف اينال (١)

### ١٤٥٣ — ١٤٦١ م

فبراير ١٤٥٣

عثمان هو ابن جارية اغريقية ومع أنه كان فى الثامنة عشرة من عمره لم يكن خيراً من أبناء السلاطين السالفين الذين ارتقوا عرش السلطنة . وعلى قسوته وغروره وجشعه خضع لنفوذ مماليكه ؛ ولكى يرضي أطاعهم الأشعبية خلع وزيره الأكبر ثم أمر بجلده وتعذيبه . فأثارت هذه المعاملة المخزية غضب كل الأحزاب التى حوله وهؤلاء كلهم ، بعد موافقة الخليفة ، ائتمروا بخلع الشاب الطاغية الذى انفض كل الناس من حوله عدا مماليكه الخاصة ، على أن يرفعوا الى العرش مكانه «اينال» قائد الأسطول على «رودس» ، ثم هوجمت القلعة ، وبعد حصار دام أسبوعاً دخل عليه إينال من باب غير محصن (٢) فهرب عند ذلك «عثمان» الى حريمه ، فأسر هنالك بعد ستة أسابيع وأرسل سجيناً إلى الاسكندرية ، ثم أطلق سراحهُ فى السنوات التالية .

مارس

أما «اينال» الذى قبل السلطنة بعد ضغط كبير ، فقد كان جاهلاً إلى حد أنه لم يستطع كتابة اسمهِ . وقد كان مثل أسلافه مملوكاً لبرقوق ، ثم صار غلام فرج ، ثم فكت رقبته ورقي تدريجاً حتى صار قائداً للقوات الحربية والبحرية . وقد خضع لمماليكه لحسن خلقهِ ولين عريكتهِ ؛ ومرضاة لهم جعل لهم فروضاً على الخزانة حتى أفقرها إلى حد أن رئيس المالية كان يستجدى ؛ وأن كبراء الدولة جلدوا ليقبلوا القيام بأعمالهم . ولما أمر بالقيام بحملة على الدالتا طلب چراكسة السلطان ، بكل وقاحة ، جمالاً اكثر ؛ ولما لم

(١) كان كل من اينال وجقمق يسمى «العلائى» لأنهما اشتريا من تاجر اسمه على وكانا كذلك يسميان ( الظاهر ) نسبة الى الحزب الذى جاءا منه

(٢) باب السلاسل



يونيه ١٤٥٥

تعط لهم ثاروا حول القلعة ، فانضم اليهم الظاهريون الذين أغروا الخليفة أيضاً بالانضمام اليهم وبأن يقترح رجوع ابن جقمق الى العرش ، فكان هذا مسيئاً إلى مماليك السلطان ففشلت الثورة فى آخر الأمر وأرسل الخليفة سجيناً إلى الاسكندرية (١) .

ومن ذلك الحين طرد كل المماليك من القلعة عدا مماليك ركاب السلطان . وكانت يد اينال الضعيفة غير قادرة على ردع المماليك ذوي الدعارة الذين كانوا يتهافتون على خدمة الأمراء . وكان عسفهم وجورهم طوال هذا الحكم يقصر عنهُ الوصف ، فهم لم يقتصروا على تخريب البلاد ونهبها ، بل هاجموا كبار الأمراء وسلبوا قصورهم . وكان السلطان نفسهُ يخاف مماليكه الخاصة حتى إنهُ لم يعد يوزع الطعام فى عيد الأضحى علانية خشية اعتدائهم عليهِ ، واضطر الى أن ينزوي بين جدران قصره . وقد كثرت (٢) الحرائق وانتهبت عروض التجارة فى الحوانيت وهجرت الأسواق ، ووقفت الإصلاحات التجارية والمالية من جراء هياج هؤلاء المماليك الثائرين . وكان الامراء لا يستطيعون دفعهم عن أنفسهم . وحدث مرة أن اقتفى أثر السلطان فى محاولة تهدئة هياج فى القلعة ورشق بالحجارة حتى هرب بصعوبة جارياً الى الحريم حافياً – وفى آخر الأمر اضطر الى إجابة طلباتهم الفادحة تهدئة لهم ، فغدوا أقوياء يعزلون الموظفين أو يغيرونهم كما يهوون . فأصبح الشاكون يطلبون النصفة من زعماء المماليك الذين كانوا يهددون المتهم ويضيقون عليهِ حتى ينال الطالب مراده ولا يذهبون إلى الحاكم .

١٤٥٨

وكانت النساء عرضة للمعاملة السيئة حتى فى جامع عمرو ، ولم يجسر السلطان على دفع الأذى عنهن . وقد رزئت البلاد بطاعون مفزع ، ولكن وطأته الشديدة لم تحل دون فظائع هؤلاء ، فان الثوار لم يكتفوا بمهاجمة المارَّة فى طريقها بل نهبوا أملاك

(١) يبتدىء الانسان يلحظ أن الخليفة لم تكن له حرية الآن اكثر من قبل فحسب بل أنه كلما كان موالياً تحسن مركزه لدى الناس جميعاً ونال شرفاً اكبر ونفوذاً أقوى مما كان له فى عهد المماليك

(٢) اتهم المماليك تجاراً من كرمان أن لهم يداً فى الحرائق فأساءوا معاملتهم فهاج ذلك نفوس الكرمانيين وأغاروا على مصر اغارة مر بك ذكرها

الموتى واغتنوا بضياعهم – وأخيراً وصل الوباء إلى القلعة فاغتال جماهير كثيرة من الظالمين المبغضين داخلها وخارجها . وهذا قصاص لأعمالهم المرذولة وأمان وقتي للسكان [١]

١٤٥٩ ولم يك نفوذ المماليك مقصوراً على الشئون الداخليـة بل تخطت طلباتهم المجحفة إلى الشئون الخارجية ، ولدينا مثال فى قبرس التى كانت خاضعة إذ ذاك لمصر ، فان «جيمس» الثانى رئيس أساقفة نيقوسيا والابن غير الشرعي للملك المتوفى ثار على الملكة شارلوت ثم هرب إلى مصر فاستقبل فيها بحفاوة . وكان السلطان

١٤٦٠ فى أول الامر يميل الى معاضدته ، ولكن بعد أن برهنت الملكة على حقها وعرضت أن تزيد فى الجزية عدل عن رأيه وأصدر مرسوماً بتثبيتها على الملك ، فاستاء المماليك [٢] وتجمع الرعاع حول رسلها ، وهاجو هياجاً خطراً حتى رأى إينال حين لم يستطع المقاومة أن يجهز أسطولاً ليُجلس جيمس على العرش فكان نجاحه فى هذا قليلاً لأن البابا

١٤٦١ وولاية سافوى ساعدا شارلوت . وفى أثناء تجهيز حملة أخرى مات السلطان . وفى آخر الأمر احتفظت الملكة بعرشها و بقيت الأحوال كما كانت من قبل تقريباً . وكانت علاقة اينال بالدول الاسلامية التى حوله حبية جداً وخاصة مع أمراء آسيا الصغرى وحدود أرمينيا . وقد وصل رسول من قبل «الوير الأبيض» ينبئ بنصره على «الوير الأسود» الذى كان رئيسه قد أساء الى مصر اذ أكرم حاكماً عاصياً لها . وكانت هذه هى الغزوة الوحيدة فى خلال هذا الحكم – عدا غزوة قبرس وعدا معاقبة

١٤٥٧ عصابات البدو الذين أغاروا على مصر السفلى – ضد رئيس كرمان الذى اعتدى على حدود سورية واستولى على أطنه وطرسوس ، وعلى هـذا أرسل جيش الى آسيا الصغرى فحاصر قونية وقيسارية وخرب أرضهما ، ولم يبق على مسجد أو مدرسة ، فسلمت كرمان من غير قتال وأعيد السلم الى نصابه فى العام التالى

(١) ذكر هذا أبو المحاسن هاجياً

(٢) فعلوا هذا لظنهم أن جيمس ابن شرعي للملك باعتباره ابن جاريته والدين الاسلامي يقر حق ابن الجارية

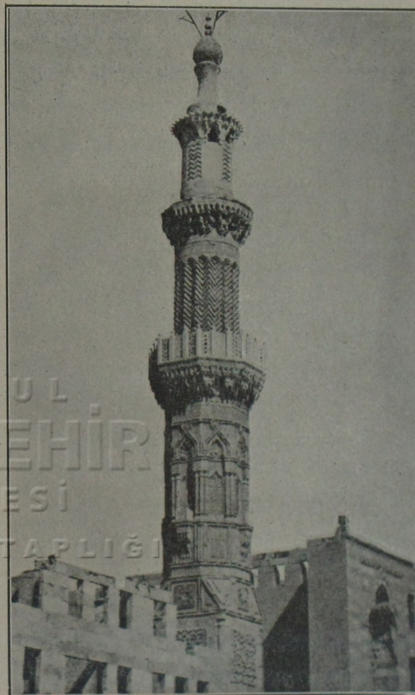


٢٩ مايو ١٤٥٣ وفى أثناء ذلك كانت قد سقطت القسطنطينية وصارت عاصمة الحكومة التركية ، فكان خبر سقوطها والنجاح الذى ناله العثمانيون عقب سقوطها فى الصرب باعثاً على الفرح الشديد فى القاهرة ، واحتفل له الناس عدة أيام حفلات فخمة ، ولم يدروا أن سيكون الأتراك فى القريب العاجل ألد أعدائهم . وقد سارت الوفود بين الدولتين تحمل الهدايا عدة مرات . ورفع إينال إلى محمد الثانى ، لقهره البوزنطيين ، التهانى فى قصيدة ملكية ، ومعها رسالة ممتعة

وكان حكم إينال يعد فشلاً محزناً فى داخل البلاد لكثرة عنف المماليك الذى لا جامح له . ومما لاشك فيه أن الظلم والتعذيب والقتل قد قل على يد السلطان وعما له عما كان عليهِ قبل ، ولكن لم يأمن أحـد على نفسه من المماليك . وكان اللصوص الحقيقيون والسارقون يتزيون بزيهم كى يمكنهم أن يسرقوا ما شاءوا وهم آمنون ، فنشأ عن ذلك لأول مرة أن بدأ الأغنياء والفقراء يحافظون على أمتعتهم وأموالهم بحفر الخنادق أو ببناء الأسوار حولها . وقد ذم شعراء العصر حكم إينال و بالغوا لأنه لم يكن شحيحاً فحسب بل كان أمياً جاهلاً . وقـد ترك أسرة من زوج واحدة ، (وهذا استثناء غريب فى هذا العهد، لم يكن لها أى منافس . ويجب أن يسدل القناع على حياة السلطان وغاشيته من الوجوه الأخرى لأنها مخزية لا تسطرها الأقلام

١٤٦١ وحين شعر إينال بدنو منيته استدعى الخليفة والعلماء ؛ ولما لم يستطع الكلام غمغم بالتركية مشيراً الى أن ولده أحمد الناضج السن يجب أن يكون خليفته . وعلى ذلك قدمت له الطاعة فى الحال فى قاعة الاجتماع . وهكذا قضى إينال نحبهُ وهو فى سن الثمانين بعد أن حكم ثمانى سنوات





( مئذنة مقبرة السلطان إينال )



# الفصل السابع عشر

## احمد بن اينال - الظاهر خشقدم

**( ١٤٦١ - ١٤٦٧ م )**

فبراير ١٤٦١

كان صعود أحمد، الملقب بالمؤيد، على العرش مقبولاً فى كل مكان، ومبشراً بمستقبل حسن. كانت سنه ثلاثين سنة؛ واذا قرناه بغيره من سلاطين مصر نجده مستقيما فاضلاً. ومع هذا كان حكمه قصيراً كثير الارتباك. وقد يستطيع الانسان أن يقول إن فضائله الحقة، فى عصر ساد فيهِ المنكر، لم تعمل شيئاً غير استعجال المصائب. ولما كان همهُ الاصلاح رفض، لدى توليته الحكم، طلبات الشطط التى طلبها مماليك قصره، فثار ثائرهم لهذا ونسوا عندها تنافس أحزابهم، وانضموا الى الأحزاب الأخرى فى الائتمار بخلع سلطانهم. وكان الأشرفيون يميلون كثيراً الى أن يكون «جانم» نائبُ سورية وحاكم دمشق السلطانَ الجديد؛ وقد فضل الظاهريون «خشقدم» نائب القصر. ولما كانت الأخبار لا تصل الى أحمد الا قليلاً، بقى لا يحرك ساكناً لما يجرى، وفقد تدريجاً مؤازرة غاشيتهِ له. ولما قلق أخيراً، استدعاهم اليه ولكنهم خافوا مايرمى اليهِ، و بدلاً من الحضور عنده اجتمعوا فى بيت «خشقدم»، ولما نضج مابيتوا هاجموا القلعة؛ وعند ذلك استقال أحمد بعد أن حكم أربعة أشهر؛ فأرسل الى الاسكندرية حيث بقى فيها مصفداً، ولكنهُ أطلق سراحه فى آخر الأمر، فعاش فى عزلة عدة سنوات عيشة فاضلة؛ و بينما كانت القلعة محاصرة أغرى «جانى بك» أحدُ الأمراء النابهين، حزبَ الأشرفيين من شيعة «جانم» أن يعلنوا تعيين «خشقدم» سلطاناً للمحافظة على النظام فى تلك الأثناء، وأخبرهم أنهُ لدى وصول «جانم» يسلم اليهِ العرش فى سلام.

يونيه

وبهذا انتخب « خشقدم » سلطاناً بلقب « الظاهر » . وأصله مملوك السلطان « شيخ » اشتراه من خمسين سنة خلت ، فجعله غلاماً له ؛ وارتقى تدريجاً حتى صار حاكم دمشق وقائد الحملة على « كرمان » . ولما كان أحمد يكرمه باعتباره رئيس بلاطه لم يشترك مطلقاً فى الائتمار بهِ ؛ ثم نال مركز سيده المنفى . وهو أول سلطان لا يتطرق الشك الى اغريقية أصله . وقد كان الجراكسة قد مضى عليهم وهم على العرش اكثر من ثمانين عاماً[1] . ولقد سبب هذا الخبر هياجاً كبيراً فى دمشق وانحازت الغالبية الى جانب السلطان الجديد ؛ غير أن « جانم » الذى وثق من استدعاء أصحابه الأشرفيين ، سافر الى القاهرة ، فذعر لذلك « خشقدم » ووقفه فى الطريق . ولما رأى جانم أن الوقت قد فات ، خضع للسلطان الجديد الذى ثبته فى ولاية دمشق ترضية للأشرفيين ، ولكنهُ منعهُ نيابة سورية . وبما أنهُ كان لايزال يخشى الأشارفة ضيق عليهم ، فكان هـذا العمل سبباً فى قيام ثورة لمصلحة أمير قوي هو « أتابك » ، وبمساعدة الظاهرية تغلب على الخطر ولكنهُ هاج السلطان لدرجة أنهُ خلع «جانم»، فخشى هذا من منازلتهِ مرة أخرى فالتجأ الى «أوزون حسن» صاحب الوبر الأبيض . ولما توسط هذا الأمير فى العفو عنهُ ولم يفلح ، انحاز الى جانبه، وأغار على حدود سورية . ولما كان السلطان يخشى عودة جانم جهز قوة لاقتفاء أثره ، ولكن فى تلك الأثناء كانت أخبار وفاته سبباً فى وقف الحملة التى لم تعد ضرورية[2] .

١٤٦٣

وقد رأينا أن خشقدم كان مديناً برقيه لمصاحبةِ جانى بك الذى تفوق بمهارة على أنصار جانم . ولما كان هذا الأمير قد شغل مركزاً سامياً فى «جدة» فإنهُ كان محترماً

(١) يقال أن « لاجين » كان أغريقيا . ولكن فريقاً يتشكك فى هذا . وقد رأينا أن عدة سلاطين كانوا من أمهات اغريقيات ؛ ولكن ليس غير السلطان الحالى أحد جيء به صغيراً مملوكاً من بلاد اليونان . أما اسمه ففارسى معناه « حسن الحظ »

(٢) حاول أبو المحاسن ، وقد رأينا أنه كان محببا الى البلاط ، أن يطمئن السلطان عند ما أفزعه خبر هذا الهجوم فأخبره بأنه اذا كان عرشه اقل ثبوتا مما هو عليه اذ ذاك فان جانم أو غيره لا يمكنه مهاجمته ، فهم بالاحرى لايمكنهم أن يقوموا بذلك الآن



عند أمراء بلاد العرب بل أمراء الهند أيضاً . ولعدله وكرمهِ وسماحته كان ذا مكانة عظيمة . ولما تفانى الناس فى محبته كانت كلمته قانوناً فى كل شئون القاهرة الداخلية .

وكان كلما خرج راكباً احتشد حوله جمع كبير من أصحابهِ الظاهريين وأتباعه المعجبين به ؛ غير أن هذا لم يفد إلا فى إسعار نار كراهية المماليك السلطانية له ، وغيرة سيدهم منه . وقد قلب الآن خشقدم ظهر المجن لصاحبه الذى كان مديناً له بالعرش : ففى ذات يوم عند دخوله القلعة انقض عليه مماليك السلطان وضربوه على رأسه ، وطعنوه فى ظهره ، ولما كانت لا تزال فيه بقية من الحياة سحبوه من رجليه الى القصر ( البلاط ) وهشمت دماغه بالحجارة الكبيرة ؛ ثم تبعوا رفيقه حاكم المدينة وذبحوه بنفس هذه الوحشية؛ وكان خشقدم جالساً فى البهو الأعلى وعالماً بما يجرى . ولما سأل عن الخبر كان الجواب : كل شيء على ما يرام ، فقال : لننزل الآن . وعند ما نزلوا أمر باحضار درجين فقط وأمر أن تغسَّل الجثتان وتدفنا ، فلم ينس الناس قساوته هذه ، لأن جانى بك على احسانه كان يقيم ولائم لا تقل فخامة عما كان يقيمهُ هرون الرشيد من الولائم ، مما حببهُ الى الناس فى أرجاء المدينة

اغسطس

ولم يتحسن مركز خشقدم بعد التخلص من صديقه فلم يلبث حتى رأى عاقبة أعماله السيئة فان الظاهريين غضبوا لموت زعيمهم، وعلى هذا قبض عليهم، وغربوا وسجنوا فى الاسكندرية . وقد حدث ما لم يكن يتوقعهُ السلطان ، ذلك أن الحزب الآخر من الأشرفيين والاينالييين الذين كان يظن أنهُ يرضيهم باضطهاد أعدائهم الظاهريين — ائتمروا بقتله ، ليعينوا واحداً منهم مكانه . فلما تبين له خرق خطته أرسل الى «قايتباى» زعيم الظاهريين ، فجاءه يحرسه عدد كبير من حزبه، فاستقبله السلطان بكل كرم واحتفاء وعانقهُ ورجاه أن يتناسى الماضى ، واعداً بالعفو عن جميع من أرسلوا الى السجون . فكان هذا العمل مسيئاً الى الأشرفيين الذين سرَّهم من قبل سقوط الظاهريين ، والذين لم ينسوا ما أصاب «جانم» . وكانت هذه فرصة مفيدة لخشقدم استخدمها فى ضرب حزب بآخر وصارت سياسته بعدُ ترمى الى تكثير أحزاب

المماليك والعطف على هذا الحزب مرة وعلى ذلك مرة أخرى ليوغر صدور بعضهم على بعض وليزيد فى منافساتهم ليضرب الواحد منهم بالآخر[1] كى تخضض شوكتهم ويبقى هو قويًا . وعلى الرغم من هذا كان خشقدم لا يزال ألعوبة فى أيدى مماليكه ومماليك السلاطين السابقين الذين هم حراسه ومعتمده ، فكان يترك حبلهم على غاربهم ، حتى فى مظالمهم وغلوهم . وكثيراً ما كانوا يأخذون أجمل الجياد المعرضة للبيع من غير أن يدفعوا فيها ديناراً واحداً . ولذا كانت الأسواق تهجر كثيراً[2] ولم تزد هذه الأعمال الحال الا حرجاً . وعلى ذلك أراد أن يجعل نفسهُ محبباً لدى القضاة والطبقات ذات النفوذ ، ليكسب مساعدتهم فى تهدئة الأهالى ، فجعل ينفذ القوانين الموضوعة ضد المسيحيين بكل صرامة ولكن لما تقوت حكومته ألغاها

١٤٦١ – ١٤٦٣

وقد أرسل السلطان عدة حملات الى قبرس ليساعد الملك « جيمس » من جانب ، وليتخلص من المماليك الذين كان يخافهم من جانب آخر ، بل أن الأخير كان أهم غرض لديهِ . وقد عاد بعض هؤلاء بدون اذن ، فأساء اليهم كثيراً ؛ ورجع الآخرون لأنهم غضبوا لما أصاب «جانى بك» فتغاضى عنهم ؛ وقد عامله أحد القواد المصريين باحتقار فأثار كراهيته وهاجمه وقتله وقتل معهُ جنوداً مصريين كثيرين ؛ وانتهزت الملكة «شارلوت» هذه الفرصة للتقرب من السلطان ولكن الملك بقى مسالمًا للنهاية فبقيت الحال بينهما كما بدأت

وقد بدأت العلائق تتوتر فى ذلك الحين بين مصر والباب العالى ؛ فإن رسول « محمد الثانى » الذى جاء حاملاً رسالة مفرغة فى أسلوب عده « خشقدم » شاذاً

---

(١) لم يكن هنالك حزب الاشرفيين الاقدمين فقط (حزب برسباى ) بل كان هناك أيضا الاشرفيون الجدد المنتسبون الى « اينال » . وكان هؤلاء ناقمين من العطف الذى يبديه السلطان نحو الظاهريين لينال ولاءهم ، مع أنه أساء اليهم قبلا ليرضى الاشرفيين . وكان الظاهريون اقوياء لانهم عماد الخيالة من الجند وكان الايناليون أشداء أيضا . أما حزب السلطان «المؤيدون» فكان عددهم قليلاً بالنسبة الى اولئك

(٢) عند ما أرسل الجنود الى الصعيد لاجلاء البدو الذين اغاروا عليه ، أخذوا معهم كل عربات المياه التى فى المدينة فجهد الناس كثيراً عدة أيام ولم يحصلوا على قطرة من الماء



رفض أن يقبّل الأرض بين يدي السلطان عند ما اقترب من حضرته معتذراً بأنه قد انفلت من صلاته الآن ولا يستطيع أن يسجد لمخلوق بعد أن سجد للخالق . وفى فرصة أخرى تلت هذه ، أدى الرسول المراسيم المتبعة ، فسر السلطان كثيراً ، وقدم له الهدايا للباب العالى ، فرفض الرسول قبولها بدعوى أن مقام السلطنة يتطلب أن ترسل هذه الهدايا مع بعث خاص . وأظهر السلطان عدم رضاه عن تعيين وال لكرمان قد كان وقع فى تعيينه خلاف ، وذلك لأن الباب العالى كان يعضد طلب ابن أميرة عثمانية لولاية « كرمان » ، و «خشقدم» يعضد ابناً آخر من مملوكة ، وكان هذا قد هزم أخاه بمساعدة « أوزون حسن » ، ولكن ابن الأميرة العثمانية طرد فى آخر الأمر منافسه المتطفل بمساعدة « محمد الثانى » الذى كانت قد امتدت فتوحاته فى هذا الوقت الى قلب « أرمينية » . ومن هنا لم يظهر أحد البلاطين محبة نحو الآخر ، مع أنهُ لم تنشب بينهما حرب فعلية

١٤٦٤

١٤٦٢

ولم يكن السلطان متبعًا سبيل الحكمة أو الأمانة فى معاملته ولايات آسيا الصغرى التابعة له . فبينما هو يغرى « أوزون حسن » بالاستيلاء على خربوط ، تراه ينهى سرًا أصلان زعيم « الأبلستين » عن تسليمها . وبعيد ذلك مات أصلان بخنجر من يد فدائى أرسله السلطان ؛ فنشأ الهياج عند هذا فى « الأبلستين » ، لأن إخوة الأمير المقتول شقوا عصا الطاعة . وكان الحزب الذى تعطف عليه مصر يقاومه «الشاه سيوار » صاحب « ذي الغادر » الذى يعضده الباب العالى فجهز جيشًا ضد الشاه ؛ ونتيجة عمله تخص حكم سلطان آخر

وإذا استثنينا غارات البدو المستمرة على مصر العليا والسفلى ، نرى السلام كان ناشراً لواءه فى جميع أرجاء السلطنة . وقد حافظ «خشقدم» على سيادته من الأول إلى الآخر ، بمهارته فى المحافظة على تكافؤ قوة الأحزاب المختلفة . غير أن المماليك ، وخصوصًا أتباعه منهم ، كما رأينا ، كانت أيديهم مطلقة فى الأموال والأنفس ، وأتوا فظائع وحشية لا مثيل لها . وقد عظم دخل الدولة ببيع المناصب . وقد بيعت نيابة « دمشق » بخمس واربعين ألف دينار

أما العدل فكانت حرمته منتهكة وكان المتهمون كثيراً ما يباعون ويسلمون الى المدعين . ولدينا مثال على ذلك أن وزيراً سلم لأعدائه ، فى مقابل دفع سبعين ألف دينار ، فعذبوه حتى مات . وليس لنا أن نعجب من أن إدارة أساسها حب جمع المال ، ومكروهة كهذه ، سببت التذمر العام وأدت الى ثورات كثيرة قام بها الناس عن طيب خاطر

سبتمبر ١٤٦٧

وحوالى ختام حكمه سببت جيوش البدو ذعراً وسوء نظام، ليس فى مصر فحسب بل فى سورية وبلاد العرب أيضاً، حيث نهبوا كل شىء حتى قوافل الحجاج . وقد ذهب الجيش لمقاومة «سيوار» فجمع جيش غيره فى الوقت الذى أصيب فيه السلطان بانزلاق البطن، وانحطت صحته الى حد أنه كان يفقد الرشد أحياناً

اكتوبر

ولما سمع بأن أخبار موته انتشرت فى الخارج ، كان على وشك معاقبة مماليكه الأشرفيين الذين اتهمهم بالعصيان ، فأدركه الموت فى اليوم التالى ، فشيعه الى القبر عدد قليل من حاشيته . ولم يكن محبباً الى أى طبقة من الناس وخاصة لظلم مماليكه الذين لا رادع لهم ، ولحكمه المشهور بالرشوة وغصب المال والفساد. ولم يكن يتردد مطلقاً على الحصول على أغراضه فى التعذيب بالخنجر أو السم . وقد ظلت ذكرى « جانى بك » باقية الى النهاية . وقد ترك خشقدم ولدين لا نسمع عنهما شيئاً



# الفصل الثامن عشر

## بلباى – تمربغا – الأشرف قايتباى

١٤٦٧ – ١٤٩٦ م[١]

اكتوبر ١٤٦٧

ظلت القاهرة فى خلال الشهرين التاليين لموت السلطان مسرحاً للدسائس الدائمة بين الأحزاب المتنازعة . وقد جلس على العرش أولاً « بلباى » الچركسى ثم « تمربغا » الأغريقى، وكلاهما نشأ بالطريقة العادية، ثم ارتقيا الى مقام السلطنة بنفوذ حزب الظاهريين . وخلع الأول بعد شهرين ، وأرسل أسيراً الى القلعة . والثانى الذى أعقبه كان من بيئة أرقى ؛ ولو ملك الوسائل التى يرضى بها الأحزاب السيئة الكثيرة التى حوله لاحتفظ بمركزه ؛ لكن الخزانة كانت خاوية ؛ واذا لم يُرْشَ المماليك كان قيام المؤامرات محتوماً . وقد نادى المؤيدون بواحد منهم سلطاناً وهو السلطان «خير بك» ، ولكن الظاهريين ظهروا عليهم ، وأجلسوا على كرسى السلطنة « قايتباى » . وقد أرسل « خير بك » فى الأصفاد الى الاسكندرية ؛ فى حين أن « تمربغا » الذى حكم شهرين اكرم ومنح مسكناً لائقاً به فى دمياط

ديسمبر ١٤٦٧

يناير ١٤٦٨

كان « قايتباى » الذى افتتح دولة طويلة ، من أصل چركسى ؛ وهو مولى السلطان جقمق اشتراه غلاماً بخمسين ديناراً . ولما كان فارساً ممتازاً قرب فى البلاط وقد ارتقى الى عرش السلطنة من وظيفة أتابك . و بصفته حاكماً شجاعاً قادراً حافظ على حياته بغاشية كبيرة جداً من المماليك المخلصين له ، وبهم استطاع أن يعامل أحزاب المماليك كيف أراد . وكانت تنتاب البلاد من حين الى آخر الثورات المعتادة؛ ولكن الأحزاب كانت متكافئة فنجت الحكومة ؛ وكان الداء العضال مسألة المالية .

(١) فى حكم قايتباى مات المؤرخ أبو المحاسن سنة ١٤٧٠ وبموته تقل عندنا مصادر المعلومات قلة تذكر ، وتقل التفاصيل ويعتورها النقص . ومن ذلك الحين يصير ابن اياس مصدرنا المصرى ، وقد عاش حتى شهد سقوط أسرة المماليك وبقى بعد سقوطها نحو ثمانى او تسع سنوات

ومع أن قايتباى منع اعطاء الهبات المعتادة التى كانت توزع عند التتويج كانت الحكومة فى حاجة ماسة الى المال من بادئ الأمر لصد غارات البدو، ولمقابلة الأخطار المهددة لآسيا الصغرى . وكانت طريقة جمعه مقدمة لما كان سيقع بعد؛ فرئيس الحكومة المعتبر مسئولاً، اغتصب منه كل ما يملك، ثم فرض عليه مبلغ، فلما أظهر عجزه عن دفعه جُلِدَ فى حضرة السلطان . ولما لم يجدِ هذا نفعاً، أخذ السلطان بنفسه العصا فى يده، وما زال يضرب الأمير التعس حتى تطاير دمه على الواقفين . ولما رضى الوزير المبرح به الضرب بدفع مائتى ألف دينار، أطلق سراحه، وخلع عليه خلعة الشرف . وهكذا كانت وحشية رجال « قايتباى » المتقلبة

كانت مصر حينذاك فى حرب مع « سيوار » صاحب « ابلستين » وخليفة « أصلان » الذى قتل – كما رأينا – بيد السلطان السابق . وبمساعدة الباب العالى له استطاع أن يطرد الجيوش المصرية، وغزا أراضى الحدود حتى بلغ « أنطاكية » و « طرسوس » ثم رغب « سيوار » بعد ذلك فى الصلح؛ فأرسل الى القاهرة جميع الأسارى المصريين مع بعث حى؛ ولكن السلطان، الذى غضب لهزيمة جنده، بدلاً من أن يجدد الصلح، أرسل جيشاً آخر الى « عينتاب » فاستدرج الى ممر ضيق، ثم هزم هزيمة مخزية، وارتد الى حلب . ولما استولى الذعر على قايتباى لجأ الى طرق قاسية منكرة فى جمع الأموال لاعداد حملة أخرى [1] . وبعد جهد جهيد ومدة طويلة أرسل جيشاً ثالثاً فلم يك حظه بأحسن من سابقيه؛ وقد بدأ سيوار يظهر بمظهر الملوك، وسمى نفسه سيد سورية . فلما أحس قايتباى حرج مركزه لجأ الى الباب العالى الذى قطع معونته عن سيوار بناء على رجاء السلطان . فلما رأى سيوار تخلى خلفائه عنه تراجع الى معقله فى «ابلستين»، وهناك عرض أن يسلم كتابع للسلطان . وحين وعد الأمان ذهب الى المعسكر المصرى فقوبل باحترام؛ ولكن بينما كان ينتظر أن يخلع عليه خلعة الشرف، طوق عنقه بالسلاسل بدلاً من الخلعة . أما

١٤٦٧

(١) مثال ذلك انه جلد قاضى القضاة بنفسه وعذب الوزير حتى حصل على المال المطلوب



أتباعه ففريق قتل، وفريق سيق معه أسارى الى مصر . وعند دخولهم القاهرة تبعهم، فى موكب فخم، المغنون والمغنيات وأصوات السخرية، وأُخِذَ هذا الأمير الذى تظهر عليه سمة العز، فألبس سخرية منه لباساً ملكياً وأركب جواداً، إلى حضرة قايتباى، فقابله بترحيب ممزوج بالسخرية، وأمر بتمزيق ما عليه من الملابس الملكية، ثم عُرى رأسه هو وأقاربه، ووضعت السلاسل فى أعناقهم، ثم حملوا على الجمال الى باب المدينة حيث شنقوا وبقيت جثثهم معروضة للجمهور يومين . وقد انتحل السلطان، لخيانته الفظيعة علة واهية، وهى أن « سيوار » عامل زعيماً سورياً هذه المعاملة . وهكذا كان خُلُق هذا العصر الوحشى

وكانت مصر لا تزال تخشى الشر من هذه الجهة، وذلك للنجاح العظيم الذى أحرزه «أوزون حسن» فى كل الشرق، وأرسل الوفود تلو الوفود، تظاهراً بالخضوع لمصر، ومع أحدها رأس زعيم « قره قيون » وكان قد انتصر عليه نصراً مبيناً . ولما مدَّ فتوحه فى بلاد الفرس حتى أواسط آسيا، أرسل الى القاهرة رأس ملك سمرقند، التى عند ما رآها قايتباى، أمر أن تغسل وتدفن بكل احترام، بدلاً من أن يعلقها كباقى الرءوس على أبواب المدينة . ولما عاد أوزون حسن فى ذلك الوقت الى آسيا الصغرى، غامر مع الجيوش العثمانية فاستولى على « توقات » وغزا « كرمان » التى فرَّ زعيمها الى الباب العالى، فقام «محمد الثانى» عندذلك على رأس جيش قوى وأمكنه، بوساطة مدفعيته، وكانت معروفة قليلا فى الشرق الى ذلك العهد، أن يوقع الهزيمة الفادحة بأوزون؛ ففرح السلطان لهذا لأن جيوش «أوزون» المشتتة، والتى كانت فى حرب مع الجنود المصرية، ما انفكت تنزل التخريب بالحدود السورية . مات أوزون بعد ذلك بقليل، غير أن ابنهُ وقف موقف المعادى، وضرب الجيش المصرى عند محاولته الاستيلاء على « الرها » وشهر برأس قائده فى كل ولايات الحدود اشارة الى ظفره؛ فجهز « قايتباى »، لهلعه ورعبه، جيشاً آخر لحماية حلب، ولكن لم يمض وقت طويل حتى رجع السلم الى نصابه .

١٤٦٧ — ١٤٦٩

١٤٧١ — ١٤٧٣

١٤٧٥ — ١٤٧٦

١٤٨٢

١٤٨٣

فرح السلطان بهذا لأن الحرب بينهُ و بين الباب العالى لاح وميضها فى الشمال، (١٤٨١) وكانت أسباب توتر العلائق بين الدولتين متوافرة، وقد نشأت من نزاع دويلات آسيا العدة بعضها مع بعض واستصراخ الواحدة منها مصر والأخرى تركيا. وفى هذه اللحظة وقع ما أسعر نار الخلاف بين الدولتين، فانهُ عند جلوس « بايزيد الثانى » على العرش نازعهُ فيهِ أخوه الأمير « جم »، ولما هزم فرَّ ووجد لدى قايتباى كرمًا يليق بالأمراء وسيَّره حاجًا الى مكة بعد أن ترك أسرتهُ فى رعاية السلطان

وقد سعى، بمساعدة كرمان له، مرة أخرى فى الاستيلاء على العرش العثمانى. ولما هزم ثانية نزل ضيفًا على رئيس فرسان رودس (المولى الأعظم) الذى اضطره بايزيد والبابا وقايتباى، كل لغرض فى نفسه، الى تسليمهِ اليهِ؛ وأخيراً رجع الى « روما » حيث استقبله البابا استقبالاً فخمًا لأنه كان يتوقع حربًا صليبية جديدة. وقد أراد قايتباى ثانية أن يكون هو ردء الأمير جم، ورغب أن يسترده الى مصر فأظهر استعداده للتنازل عن كثير للبابا حتى - كما يقال - عرض تسليم بيت المقدس. ولكن (١٤٩٠) البابا الذى رشاه الباب العالى، والذى يئس من قيام حرب صليبية احتفظ « بجم » فى روما وأبقاه فيها حتى مات مسمومًا

وكان احتفاء مصر بالأمير « جم » سببًا فى زيادة شعور بايزيد بالكراهية لها، يضاف الى ذلك أسباب أخرى مثل تعطيل قايتباى اصلاح مجارى الماء فى دروب مكة، ومثل نهب بعث هندى كان يحمل خنجراً من الماس النفيس هدية الى بايزيد. وقد أعاد قايتباى الخنجر وأرسل كذلك هدايا ورسالة ود؛ ولكن رسوله أسئ (١٤٨٥ — ١٤٨٦) استقباله فبدأت الحروب، أغار العثمانيون على الحدود السورية بدون انذار سابق، واستولوا على « طرسوس » و « أطنه » وغيرهما من المدن، وتلت هذه حرب سجال. وفى آخر الأمر أحرزت مصر النصر فى موقعة دموية قريبًا من « اطنه » وحمل المصريون عدداً كبيراً من الأسرى، ودخلوا القاهرة ظافرين يحملون رءوس القتلى. وبعد ذلك بقليل بدأت الحرب ثانية، وعند ذلك وقع الخلاف فى ولاية



« ذى الغادر » بين زعيمها وأخيه، فعاضد قايتباى الزعيم وعاضد الباب العالى أخاه، وعند هذا دخل جيش مصرى قوى آسيا الصغرى وأنزل بالأتراك ثانية هزيمة (١٤٩٠) ساحقة لدى « قيسارية »، ثم عاد بعدها الى القاهرة، ودخلها بالفرح والسرور، حاملاً أعلام الأعداء منكسة، ووراءه صف (طابور) طويل من الأسرى فى السلاسل، ومع هذا كان قايتباى لا يزال خائفًا جدَّ الخوف لئلاَّ ينتقم منهُ بايزيد. ولما كانت خزائنهُ خاوية جداً، والمماليك يطلبون مطالب باهظة، هددهم ذات مرة بأنهُ يستقيل وقد انتشر كذلك القحط، الذى زاده شدة عسف الباب العالى فى فرضهِ الضرائب (١٤٩١) على مرور الحاصلات والمنسوجات، وكذلك المماليك، من الحدود السورية. وفى أثناء ذلك بدأت المخابرات بين السلاطين، وخف غضب بايزيد لوصول وفد إليهِ ومعهُ أسارى الحرب والهدايا الملكية، فعجل بالصلح، لأنهُ كان فى ذلك الوقت يتطلع الى فتح بلغراد؛ و بهذا تأخرت الحرب القاضية قليلاً

كان « قايتباي » مثل بيبرس، مولعًا بالسفر، وكان يصرف كثيراً من وقته فى أنحاء مصر المختلفة؛ وسافر الى حلب والى نهر الفرات، وأقام مدة فى دمشق ولكنه لم يقد جنده مطلقًا، وقد كان على وشك القيام بذلك مرة. وعلى أنه كان شحيحًا فى الداخل قد بدد موارد الدولة على الأمكنة المقدسة فى الخارج، وعلى مدارسه فى أمهات مدن الأقاليم. وقد بكى عند سماعه بتدمير مسجد المدينة بالبرق وصرف على عمارته من جديد مائة ألف دينـار. وكان يعطف كثيراً على عرب اسبانيا؛ وقد أراد أن ينجيهم مما هم فيه من خطر، فأرسل رهبان « كنيسة القيامة» كوفد الى فرديناند يهدده بأنه اذا لم يبقِ على غرناطة، فان كنائس الشرق تهدم، والحجيج الى الأرض المقدسة يعطل. وفى نحو هذا الوقت خرج « قايتباي» حاجًا الى مكة فى موكب فخم، واستقبل لدى عودته بالأفراح الملكية، ثم زار بعد ذلك بقليل الاماكن المقدسة فى « حبرون » وبيت المقدس حيث فتح مدرسة. وقد استقبل استقبالاً ملكيًا عند عودته الى القاهرة حين افتتاح قلعته المسماة « قلعة

قايتباي » فى الإسكندرية ، ففرشت الطرقات بالبسط واستقبلت السلطانة زوجها الآئب بفرش الطريق من باب القلعة الى عتبة القصر بالحرير الموشى بالذهب - وفى هذا تناقض محزن لما فيه الناس من تعس شامل.

أما الأيام الأخيرة لقايتباي فمع أنهـا كانت سلماً فى الخارج كانت أيام بؤس فى الداخل ؛ فالطاعون ، شجا مصر ، نزل بالقاهرة بشكل مروع ، حتى مات بسببه فى يوم وليلة اثنا عشر الفًا ، وفقد السلطان المسكين زوجه الوحيدة وابنته أيضاً فى يوم واحد ، وقد قضى على ثلث المماليك وارتجت المدينة لهوله ، و بعد عامين من هذا أهلك الطاعون قطعان الإبل التى هى قوام الإمبراطورية . وكان أشد المصائب التى نزلت فى السنوات الأخيرة من حكم « قايتباي » النزاع الشديد الذى نشأ بين المماليك بقيادة قائدين متعادين هما قانصوه «خمسمائة» واكبردي . وكانت القلعة مشهداً دائماً للقتال والهياج واستولى اكبردي على أزمة الحكم ، ولكنه لما غلب على أمره أخيراً، فرّ بحياته الى غزة ، فأخذ مكانه قانصوه ولما رأى قايتباي ظلام المستقبل ، وكان قد بلغ السادسة والثمانين من عمره لزم فراشه، ورغب فى أن يكون ولده محمد، وهو شاب فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، سلطاناً. ثم مات عقب ذلك بعد أن حكم تسعة وعشرين سنة ، وهى أطول مدة بعد أيام الناصر.

١٤٩٤ — ١٤٩٥

يوليه ١٤٩٦

اغسطس

وهو مدين بسلطنته الطويلة الأمد لسرعة جوابه ، ولمهارته فى الإكثار من المماليك المخلصين حوله؛ وقد قيدتهم بسماحته مصالحهم الخاصة . ولقد ارتكب قساوة وحشية فى معاملاته : مثال ذلك أنه جلد بنفسه قائد قواته وسجنه فى سجن ضيق بالقلعة حتى مات . ولم يجرد اليهود والنصارى من أموالهم فحسب، بل تناول الأغنياء من أهل دولته بذلك . وكان أيضاً يأخذ من مال الأوقاف لسد حاجة الدولة ؛ وقد حاول اصلاح ذلك بفعل الخيرات فى جهات أخرى . و بالاختصار كان سلطاناً عظيماً ومع أنه كان يقسو و يظلم أحياناً، فهو على العموم مثال للمسلم الورع . وكانت له زوج واحدة وكثيرات من الجوارى . وقد كانت أم ولده الذى خلفه على العرش جارية جركسية



# الفصل التاسع عشر

## الناصر محمد الثانى — قانصوه الأشرفى — قانصوه جنبلاط — العادل طومان باى

## ١٤٩٦ - ١٥٠١ م

اغسطس ١٤٩٦

نذكر الآن صحيفة كثيرة الاضطراب ، لأنه فى مدى خمسة الأعوام التالية توالى على العرش خمسة سلاطين ، حكم منها محمد الثانى ابن السلطان المتوفى عامين ، وكان قاسياً خليعاً ؛ وقانصوه خمسمائة[1] ( اشترى بخمسمائة دينار ) بعد أن ألجأ خصمه « أكبردى » على الفرار كما رأينا كان ، باعتباره أتابكا ، هو الحاكم الحقيقى . ولكى يتخلص من مقاوميه أعلن العفو فصدقه الناس ودخلوا إليه ؛ فأمر بالقبض على الزعماء وأغرقهم فى النيل.

ولما تخلص بمثل هذه الوسيلة وغيرها من حزب « اكبردى » كله ، تطلع بعد أشهر قليلة الى العرش وجعل نفسه سلطاناً ؛ ولكنه لما حاول الاستيلاء على القلعة ردته عنها المقذوفات من فوق أسوارها وجرح ؛ ولما فشل كذلك فى هجوم آخر فر هو وأتباعه الى فلسطين فقابله « اكبردى » عند غزة ، وكان قد استدعى إذ ذاك الى القاهرة ؛ و بعد قتال شديد بينهما كان النصر أولاً فى جانب « قانصوه » ولكن ما لبث « أكبردى » بعد مساعدة السوريين له حتى تغلب عليه ، ففر ولم يعد يُرى فظُن أنه قتل . ولكن لمـا لم يعثر على جثته ظلت القاهرة بضع سنين قلقة لورود أخبار بظهور هذا الطاغى المنتظر . ولما أصبح أكبردى ثابت المركز ، دخل الى القاهرة فى وسط الأفراح العظيمة ؛ ولكنها أفراح لم تدم طويلاً ، لأن

فبراير

(١) عدد الأمراء الذين يسمون بهذا الاسم يدعو الى شىء من الارتباك . فهذا الذى نحن بصدده يسمى الخمسمئوى ثم يليه قانصوه الاشرفى و بعده بقليل يرد اسم السلطان قانصوه الغورى. وهناك آخر اسمه قانصوه الالفى الذى ساعد الخمسمئوى فى مهاجمة القلعة . وهناك عدة غيرهم، لأن الاسم كان محبوبا فى ذلك الوقت .

أسباب العداء بين الحزبين انتعشت واتخذ كل منهما علماً ملكياً لنفسه ، ونشب القتال بينهما بفظاعة ، واستمر عدة أسابيع كان النهب فيها عاما ، والقتل كثيراً . ولما استفحلت الثورة هرب أكبردى فاقتفى أثره الى سورية حيث كان يهاجم دمشق ، ولما عومل أخيراً معاملة الثائر لجأ الى أحد أبناء « سيوار » فى الشمال

١٤٩٧

أما السلطان فانه عند ما صار شاباً بدأ حياة الخلاعة المتهتكة ؛ وكان المغنون والمغنيات هم رفاقه وصحبه فى حفلات ليلية على النيل ؛ وكان هو ورفاقه ومماليكه يطوفون فى الشوارع ، ويهاجمون الرجال فى مرورهم ، ويدخلون البيوت تحت جنح الظلام ، حتى اضطر الناس الى إنارة أبواب دورهم . ولم تكن المخدرات بمأمن من شرهم ؛ وبهذا فقد كل احترام واعتبار . وكان يغتصب المال من الناس بالسياط والتعذيب والكى ، كى يوفى به طلبات جموع رعاع المماليك الذين حوله . وفى آخر الأمر ، حين سئم محمد إفراطه هذا فكر فى الهرب واللحاق بأكبردى ، ولكنه نُمّ عليه ، وأخذت الهجين التى كانت تنتظره عند باب داره ووضعت عليه الرقابة كسجين ؛ فى حين أن المماليك استمروا فى طغيانهم وعسفهم بدرجة مفزعة حتى لم يأمن رجل على حياته . ولما كان ذلك السلطان الفتى مستهتراً بالنظام عاكفاً على دعارته الليلية انقض عليه « طومان باى » رئيس المالية فى احدى الليالى ، وقطعه إرباً ؛ وتركت جثته وجثث أتباعه فى الطريق . وكان قد أقصى كل الطبقات من حوله ، فمات غير مأسوف عليه من أحد[1]

اكتوبر ١٤٩٨

خلف محمداً عمه قانصوه الأشرفى وهو مملوك چركسى كان اشتراه السلطان قايتباى ، ومن عجيب أمره أنه وجد بعد شرائه أنه أخ لزوج السلطان المسماة ( أصيلباى ) أم محمد . كانت سنه فى هذا الوقت خمساً وعشرين سنة . ولما كان فوق طبقة المماليك العادية ، تمتعت القاهرة أكثر من المعتاد بالسكينة فى حكمه القصير ، ولكنه أعوزته القوة التى يكافح بها الأمراء الغلاظ المتحزبين الذين حوله ؛

(١) من المفيد أن نلاحظ فى مقدمة (ويل) الجزء الخامس ص ٢٢ ان احد الكتاب المعاصرين يمتدح هذا الشاب لكرمه ولفضائل اخرى . ولعل هذا لأن الكاتب ناله فضل كرمه . أما التفاصيل التى اوردها ابن اياس وغيره فانها لا تترك مجالا للشك فى حياة التهتك التى عاشها . وانه اذا امتدحه أى كاتب معاصر فانما يكون ذلك برهانا على الهوة العظيمة التى سقطت فيها الاخلاق فى ذلك العصر .



يونيه ١٥٠٠

فقضى عليه بسرعة . ولقد عاضده حيناً صديقه «طومان باى» ، ولكن هوجمت القلعة فى آخر الأمر فهرب فى زى امرأة ، ثم قبض عليه فى النهاية وأرسل الى الاسكندرية سجيناً

أما السلطانان التاليان فكانا من أصل چركسى كسابقيهما ؛ وقد حكم كل منهما أشهراً قلائل . كان «جنبلاط» فى سن الخامسة والأربعين ، وقد ناله شرف التزوج من أصيلباي[1] ، وقد حكم نصف سنة الى أن زحف طومان باى قائد سورية على العاصمة ، واستولى على القلعة بعد قتال كبير وحيى بتحية السلطنة ؛ وعندها أرسل جنبلاط أسيراً الى الاسكندرية ، وهناك جاء أمر طومان باى بجزر رأسه

ابريل ١٥٠١

انقلبت المحبة والاحترام اللتان كانتا لطومان باى فى قلوب الناس من قبل الى كراهية وذعر من جراء قسوته التى ارتكبها عند اعتلائه العرش . ومن الأمثلة على ذلك أنه خلع قاضى القضاة السابق الذى أقرّ ارتقاء السلطان المتقدم من عمله وشهر فى الشوارع عارياً نصفه ، ثم غرم غرامة فادحة[2] . وكذلك شتت الكثيرون وأغرق آخرون . وقد تزوج طومان باى من أرملة أخرى لقايتباى فى احتفال فخم ، ولكن الفرح كان قصير الأمد ، ذلك لأن الأمراء انقلبوا عليه تدريجاً ، وهاجموه فى القلعة ؛ ففرّ وعثر عليه مستخفياً فى بيت أحد أصدقائه

فى هذه السنوات القليلة لا نجد ما نقوله سوى قصص القساوة واغتصاب الأموال والمظالم الدائمة والثورة فى القاهرة وتكرر العصيان فى سورية . وقد جاء أهم خطر من ناحية الغارات الدائمة التى قام بها البدو المغيرون الذين جعلوا مصر وسورية فى ذعر دائم . وفى احدى الفرص ، عندما نالوا ظفراً هددوا حتى القاهرة ، ولكن طومان باى ، قبل اعتلائه العرش ، اقتفى أثرهم فى مصر العليا ، وقبض على قائدهم بطريق الخيانة وقطع رأسه . وبعد ذلك بقليل أجبر الجيش على الفرار وعاد ومعه ثلثمائة أسير شنقوا جميعاً وبيعت نساؤهم بيع الرقيق

(١) كانت اصيلباى جارية فى حريم قايتباى ؛ ولما ولدت له ابنا صارت أم ولد أو عتيقة والذى يذكر عنها اكثر من المعتاد ذكره عن نساء المماليك انها كانت مثرية بدرجة ان استخدم فى نقل متاعها الى مسكنها الجديد ، مئات من البغال . وبعد موت جنبلاط سرقت أموالها وسيئت معاملتها على يد طومان باى

(٢) استحلف جنبلاط عند ما سمع بعصيان طومان باى من جديد الامراء والمماليك امام الخليفة والقضاة على مصحف عثمان . وهذا اول ذكر صادفته لهذه النسخة المخطوطة بيد عثمان والتى وضعت بأمره فى القاهرة كتلك التى فقدت اخيرا فى المسجد الاعظم بدمشق

# الفصل العشرون

## قانصوه الغورى

### ١٥٠١ — ١٥١٦ م [1]

ابريل ١٥٠١

ذعرت المدينة عند اختفاء العادل طومان باي حين شاع ذكر ظهور قانصوه (ذي الخمسمائة دينار) ذلك السر الغامض . ولم تمض بضعة أيام حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى ، وهو مملوك جركسى ، خدم « قايتباي » كغلام وتابع له . وقبل أن يصير ( رئيساً لعشرة ) كانت سنه تزيد على الأربعين ؛ و بعد ذلك رقى بسرعة الى قيادة «طرسوس» و «حلب» و « ملطية » ؛ ثم صار أميراً لألف ثم كبير الأمناء ، ثم رئيس الوزراء . وقد رفض العرش فى أول الأمر ، ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله بعد أن أقسموا له على الإخلاص فى خدمته ، فقبله أخيراً . وكانت سنه اذ ذاك ستين عاماً ؛ غير أنه كان لايزال ثبتاً شديداً ، ولم يلبث أن أظهر للأمراء أنهُ ليس بالشخص الذى يخضع لأي واحد منهم

بدأ حكمه كالمعتاد بطرد شيعة « طومان باي » . ولما كانوا خطراً يهدد العرش قبض عليهم وسجنوا أو نفوا ، وصودرت أملاكهم . ثم وهب الحرية والقوة للحزب المعادي لهم ، وعينهم فى الوظائف . وقد وُجد « طومان باي » فى مخبئه يدبر المكائد للسلطان الجديد . و بعد بضعة أسابيع خانه أصدقاؤه وأمكنوا منه مماليك أمير كان قد قتله ، فقتلوه ؛ و بهذا نجا «قانصوه» من الخطر من غير أن يثير كراهية

(١) عند ما نقترب من نهاية تاريخ هذا العصر تعوزنا تفاصيل المقريزي وابى المحاسن الممتعة ونحن مدينون على كل حال لابن اياس الذى يقص أخباراً واضحة ولكنها ليست مسهبة مفصلة مثل أخبار سابقيه . وتوجد ايضاً مخطوطات عربية وتركية تكمل تاريخ هذا العصر ولكنها ليست مجزوما بثقة مصدرها



شيعة سلفه ؛ وأحضرت أيضاً من الاسكندرية رفاة « جنبلاط » الذى قتله « طومان باي » ، ودفنت بالقاهرة باحتفال ملكى

ولما زال الخطر الذى كان يهدد «قانصوه» وقتئذ ، التفت الى تدبير موارد الدولة وأراد أن يملأ الخزانة الخاوية ، ففرض ضرائب اجبارية على كل أنواع الممتلكات كانت نسبتها تبلغ ما يساوى دخل مدة تتراوح بين سبعة أشهر وعشرة ؛ ولم يستثن أملاك الوقف أو الخيرات . ولم يعرف هوادة ولا رفقاً فى سبيل جباية هذه الضريبة ، ليس من اليهود والنصارى فحسب ، بل من كل الطبقات ؛ فولد ذلك الثورات فى المدينة ، وصار جامع الضرائب فى القاهرة يرشق بالحجارة ؛ وقد ذُبح حاكم دمشق فى إحدى المشاجرات . وعلى ما كان يجبى من ضرائب التجارة المرهقة والبضائع ، نقصت قيمة العملة الفعلية . وفرضت رسوم ثقيلة على الموتى حتى كان الذى يتبقى لقرابة الميت قليلاً . وقد ارتأى أحد المستشارين قصيرى النظر فرض ضريبة على المماليك ، فوافقه السلطان عليها أولاً ، ولكنه أسقطها عنهم عندما ثار ثائرهم وأزعجوه ؛ ولم يكتف باسقاطها بل سمح بقطع لسان مبتدعها الذى جرد من ملابسه ووضع على جمل وشهر ، ثم جلد ورجم حتى أشرف على الهلاك . وفى هذا دليل واضح على الوحشية السائدة وعلى غلاظة كبد السلطان ، وعلى نظر المماليك بعضهم الى بعض ، ومكانة الواحد منهم عند الآخر

أما الأموال التى جمعت من الناس على الوجه المتقدم فكانت تصرف بسخاء ، فى أول الأمر على المماليك الذين ساعدوا فى جمعها ، ثم بعد ذلك على شراء عدد كبير من المماليك الذين كان يثق بهم السلطان كثيراً ، لأنهم حديثو عهد بالبلاد . ثم صرف كثيراً من المال على الإصلاحات العامة ، وتحصين الإسكندرية ورشيد وغيرهما ، وعلى مجاري الماء فى مصر ، و بناء مسجد فخم ومعهد فى القاهرة ، واقامة مبانى جديدة فى القلعة كانت وقتذاك تحاط بالأشجار الكثيرة والأزهار الواردة من سورية . وكذلك كان يصرف من ايراد الدولة الشيء الكثير على تجميل « مكة » وزيادة المياه فى طريق الحاج ، وعند القبور المقدسة . ولكن كل هذه النفقات لم

تكن شيئاً مذكوراً بجانب فخامة « بلاط » ذلك المملوك الذى اشترى بالأمس من النخاس ، وبذخه وبهائه

وقد ظل هذا البلاط على أحسن ما يكون فخامة وأُبهة فى الأثاث والرياش والخيل وكل مايحيط به . وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس فى مائدة السلطان فحسب بل فى كل أرجاء القصر – وكما يقال – حتى المطبخ . أما لباس السلطان وأداة زينته فقد جملت بكل ما غلا ثمنه وجمل ؛ هذا الى الشعراء والمغنين والموسيقارين والقصاصين الذين احتشدوا فى البلاط ونعموا على حساب اليتامى والفقراء (١)

وليس هناك شىء كثير جدير بالذكر عن السنوات الأولى من حكمه ؛ ولا بد أن تكون مظالم مماليك السلطان قد أصبحت لا تحتمل ، لأنه حدث مرتين أنه عند

١٠٥٢ — ١٥٠٥

ما حلف له أمراؤه يمين الطاعة ، أقسم قانصوه نفسه على مصحف عثمان بأنه لا يسمح لمماليكه بايذائهم . وكذلك نقرأ عن خيانة ظن أنها وقعت ، فكان العقاب عليها يفوق وحشية وقسوة كل ما سبق من أنواع الجزاء (٢) . ولم يحدث شىء كثير من القتال الى آخر عهد المماليك ؛ وغاية ما يقال أن البدو قاموا بغاراتهم المعتادة ، فهاجموا « الكرك » و « بيت المقدس » ؛ ولكن أمراء « سورية » ردوهم على أعقابهم . وقد

١٥٠٣

دعت الثورات فى مكة « وينبع » وتنافس الأحزاب فيهما ، الى أخذ الأهبة لمعاقبة الحكام واعادة النظام . وقد بذل السلطان اهتماماً كبيراً فى اعداد أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتقاليين

وكان ذلك هو الوقت الذى عبر « فاسكو دا جاما » ، بعد أن كشف فى عام ١٤٩٧ الطريق حول « رأس الرجاء الصالح » وحصل على ملاحين من ساحل

(١) هكذا يقول ابن إياس الذى شاهده بنفسه ؛ وعلى هذا يمكن الاعتماد عليها مع ما عساه يكون فيها من بعض المبالغة

(٢) قد مات أحد الضحايا تحت التعذيب الأليم الذى أوقع به كى يعترف بأشياء اكثر مما اعترف بها . وقد لف أصبع مغمور فى الدهن حول أصابعه وأحرق ؛ وقد عصبت جبهته بشدة حتى جحظت عيناه ، وهلم جرا



« زنجبار » ، المحيط الهندى الى شواطىء « ملبار » و « قاليقوط » وهاجم الاساطيل التى كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند الى البحر الأحمر ، وأوقع الرعب فى قلوب حكام تلك الجهات . وهنالك طلب أمراء « جوزيرات » واليمن المساعدة من مصر ، فجهز السلطان أسطولاً عدد وحداته خمسون ، بقيادة أمير البحر « حسين الكردى » . وقد سخر الناس فى تحصين « جدّة » لتكون ملجأ من البرتقاليين ، وحمى بلاد العرب السعيدة والبحر الأحمر . ولكن بقيت الأساطيل التى كانت فى

١٥٠٣ — ١٥٠٤

المحيط تحت رحمة العدو . وقد وقعت معارك مختلفة ، أخذ فى إحداها البرتقاليون سفينة مصرية تخص قانصوه ، كما أخذوا فى العام التالى أسطولاً مكوناً من سبع عشرة سفينة بعد معركة هائلة ، واستولوا على حمولتها ، وذبحوا التجار والحجاج ، وأحرقوا السفن . وقد استاء السلطان وغضب لمهاجمتهم البحر الأحمر ، وضياع المتاجر والضرائب ، ولتعرض مكة وميناها للمهانة ، وفوق كل هذا لما أصاب سفينته ، ونذر أن ينتقم من البرتغال شرَّ انتقام . ولكنه فى بداءة الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يقف « فرديناند » ومانويل عن اعتدائهم على البحار

١٥٠٨

الهندية فإنه يدمر كل أماكنه المقدسة ، ويعامل المسيحيين كما يعاملون هم المسلمين . ولما فشل فى طلبه هذا قام بالاستعداد بمشروع بحري بكل همة ونشاط ، فنجح بعض

١٥٠٩

النجاح اذ أنه فى احدى المعارك غلب « لورنزو الألميدي » وقتل ؛ ولكن فى العام

١٥١٣

التالى انتقم البرتقاليون لهزيمتهم من أسطول المصريين انتقاماً مروعاً . وبعد بضع سنين أخذ « الفونسو البوكرك » « عدن » وحاقت المصائب بالجيوش المصرية فى اليمن ؛ وعند ذلك أعد « قانصوه » أسطولاً جديداً لمعاقبة الأعداء ولحماية التجارة الهندية ؛ ولكن قبل أن تعلم نتيجة هـذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها وصارت « مكة » والبحر الأحمر وجميع مصالح البلاد العربية الى أيدي العثمانيين

وكان نجم السلطان حينذاك آذناً سراعاً بأفول . ولم يكن هناك ما يجدر ذكره عن الباب العالى . ومع هذا كانت الضربة القاضية قريبة جداً

انتهت الحرب الأخيرة (١٤٩٠) كما رأينا بهزيمة الجيوش العثمانية؛ ثم رجع السلم بين الدولتين، واستؤنف ارسال الوفود بالهدايا الغالية، ومع هذا كانت أسباب النفور منذرة، إن قريباً وإن بعيداً، بخطر محدق بسبب مساعدة هذه الحكومة أو تلك للأمراء المتنافسين فى آسيا الصغرى وعلى حدود سورية. وبينما كان «بايزيد الثانى» لا يزال مشتغلاً فى أوربا، إذ ظهر سبب جديد لمعاداة مصر – نشأ هذا السبب من علاقات الدولتين بالأسرة «الصفوية» فى الشرق – ويجب علينا أن نعرج عليها الآن :

كان السبب المباشر فى قطع العلائق هو «الشاه اسماعيل الصفوى» وهو من سلالة صفى الدين، وإليهِ ينسب، ومنهُ أخذ الاسم، وهو صوفى بلدة «اردبيل» المشهور. وقد انتشرت تعاليمهُ الصوفية خاصة فى القرن الرابع عشر فى اذربيجان. وقد نال بيتهُ بسرعة نفوذاً كبيراً. ولما طاردهم أهل قبائل «الوبر الأسود– قره قيون» التركمانيون أعانهم أهل «الوبر الأبيض – آق قيون» أى الشاة البيضاء التركمانيون أيضاً الذين ارتبطوا معهم برابطة الزواج حتى ان اسماعيل الشاه كان سبط «أوزون حسن» زعيم «آق قيون». ولما بدت العداوة قتل والد اسماعيل فى معركة مع «الوبر الأبيض» (١٥٠٨) وكان اسماعيل اذ ذاك لا يزال طفلاً فحمل مع الأسرى الى «اصطخر» ومنها هرب الى «لحيجان» حيث بقى مستخفياً بين قرابتهِ، وأشرب قلبهُ مذهب أجداده فاعتنقهُ بغيرة حماسية حتى صار رئيساً لطائفة الصوفيين، ثم جمع شيعتهُ حولهُ وصمم على الانتقام من قتلة أبيه، فقاتل زعيم «الوبر الأبيض[١]» وهزمه، ثم استمر فى فتوحهِ وصار ذا سطوة عظيمة فى فارس وخراسان، وكذلك فى بلاد ما وراء النهرين. ولما عاد الى أذربيجان صار خطراً يهدد الدولة العلية، ليس بفتوحهِ على حدودها بل بتغالى شيعته فى معتقدهم. وكان «بايزيد» قد قبض على كثير من الصوفيين فى

(١) يمكن أن يستخلص التعصب الشديد فى مذهب اسماعيل من قصة مؤداها أن جثة أحد أعدائه حمرت (شويت) وأكلها أتباعه. ويقال أيضاً أنه أمر بتربية خنزير سماه «بايزيد» وهو اكبر احتقار عند المسلمين



بلاده وسجنهم أو نفاهم لأنهم كانوا خطراً على حكمهِ. وقد التمس الشاه اسماعيل من بايزيد أن يسمح لشعبه بالعبور من البسفور الى أوربا بدل قتلهم ونفيهم، فرفض بايزيد هذا الملتمس رفضاً باتاً؛ فأرسل «اسماعيل» بعثاً الى البنادقة يدعوهم الى مشاركة جيوشه فى استرداد الأقاليم التى أخذتها منهم الدولة العلية

وقد غضب بايزيد من السلطان واظهر مر الشكوى من أنهُ سمح لذلك البعث بالمرور من سورية، فأراد «قانصوه» أن يترضاه فسجن البنادقة الذين كانوا إذ ذاك فى مصر وسورية. ومع أنهُ أطلق سراحهم بعد سنة لخوفه من انتقام البندقية، بقيت العلائق بين مصر والدولة العلية سامية حيناً ما

ولما جلس سليم (العثمانى) على العرش تغيرت الحالة، وأخذت مجرى آخر، إذ كان موقف اسماعيل مهدداً جداً، وكان سليم نفسه فارساً معلماً محباً للحرب اكثر من أبيه، يضاف الى ذلك ان قام «اسماعيل» الذى حاول عبثاً أن يستميل «قانصوه» لمؤازرته، يعضد «أحمد» الذى ادعى العرش بعد أن ائتمر بسليم أخيه. وزيادة على ذلك خاف «سليم» رعاياه الشيعيين الذين كانوا يميلون الى متعصبى الصوفيين، وعدَّهم خطراً على العرش فقبض عليهم وقتلهم. وقد رأى اسماعيل أن (١٥١٣) فى قتل شيعته معرة له فأخذ ينتقم لهم، وصار لا مناص من الحرب؛ فخرج اليهِ سليم ونازله فى معركة «قرب تبريز»؛ وقد أبدى الشيعيون المتعصبون بأساً شديداً وشاركهم نساؤهم فى الحرب؛ ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً أمام فرسان الأتراك ومدافعهم، وشدة بطشهم، فهزم رئيسهم اسماعيل هزيمة مخزية وهرب. أما سليم (١٥١٤) فقد أعوزتهُ الميرة فقفل راجعاً نحو الغرب وأشتى فى «أماسية». وفى الربيع عاد الى (١٥١٥) الميدان وهاجم صاحب «ذى الغادر» الذى وقف على الحياد لأنهُ تابع لمصر، فقتله وأرسل رأسه مع أخبار انتصاره الى قانصوه. ثم انصرف «سليم» عن الشاه الذى كان قد عاد أدراجه الى «تبريز» وحاول عبثاً أن يعقد الصلح، واكتسح «ديار بكر» و «الجزيرة» وأخذ «الرَّها» و «نصيبين» و «الموصل» وغيرها من المدن

ولما كان سليم الآن بمأمن من « اسماعيل شاه » فكر فى الاقدام على مشروع عظيم هو فتح مصر ، ورأى وجوب البدء بغزو سورية . وبما أنهُ لم يكن هناك ما يشغله من جهة الشمال ، رأى أنهُ من المستطاع أن يتقدم آمنًا ؛ ولذلك جهز لهذا الغرض جيشًا عظيمًا منظمًا فى ربيع عام ١٥١٦ م . وأراد أن يخدع مصر فتظاهر بأن ما يقوم به من الاستعداد انما هو لاتمام القضاء على « اسماعيل » . وكان الواجب على « قانصوه » أن يتيقظ للخطر من قبل ، لأن أسباب توتر العلائق بين تركيا ومصر زادت كثيرًا ، ذلك لأن أخًا آخر لسليم خرج عليه ثم التجأ الى مصر فقبلته ، ولأنه بعد وفاة أحمد أمدَّ السوريون ابنه الصغير ومعه حاشيته الخارجون بما يلزمهم ، ولأن الأمراء التابعين لمصر كانوا قد أخروا ورود المدد للجيوش العثمانية فى حربهم مع الفرس ؛ وفوق هذا قد تم الاتفاق سرًا بين سلطان مصر وبين اسماعيل وإن لم يكن فى معاهدة علنية . لم ينتبه قانصوه بل أضاع على نفسه الفرصة ، لأنهُ لو ساعد الأمير الصوفى بسيفه من أول الأمر لكان خيرًا له ولجاءت النتيجة على عكس ما وقع بعد ؛ ولكنهُ من غير شك لم يكن يرد بذلك الاتفاق الذى عقده مع اسماعيل أن يشجع المذهب الذى يكرهه كل العالم الاسلامى . وقد كان قانصوه قد أسَنَّ واعتمد على الأحزاب المحيطة به فلم يكن بأى حال قادرًا على الحرب

وأخيرًا انتبه قانصوه الى الخطر الذى يتهدده ، فقضى شتاء عام ١٥١٥ وربيع عام ١٥١٦ فى اعداد جيش قصد أن يسير به الى أطراف آسيا الصغرى الثائرة ؛ وبذا أصبح متأهبًا لكل الطوارئ . ولما كان على وشك الخروج بجيشه جاءه وفد من لَدُنْ « سليم » يعده بشكل ودى ، أنهُ يسمح له أن يعين حاكمًا مصريًا لولاية « ذى الغادر » ، وأن يستأنف فتح الحدود كما كانت لمرور التجارة والمماليك

١٨ مايو ١٥١٦

وقد خرج « قانصوه » من القاهرة بجيشه الكبير المجهز بجميع المعدات عدا المدافع فى حمارَّة الصيف — بعد أن ترك « طومان باى » حاكمًا على المدينة — فى أبهة ، تتقدمه الموسيقى والأغانى والأفراح ، وتبعه خمسة عشر أميرًا لألف ، عدا كثير



من الأمراء الذين هم أقل مقامًا من هؤلاء ، وخمسة آلاف من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم الى هذا كله أثناء المسير فرق كثيرة من البدو والسوريين ، وعلى هذا لم يكن الجيش فى حاجة الى المزيد من الجند[1] ، وكذلك خرج فى موكبه وزراء الدولة والخليفة والمشايخ ورجال الحاشية ومعهم المؤذنون والأطباء والموسيقارون .

وقد ضم اليه فى الطريق ابن « أحمد » العثمانى المطالب بالعرش المتوفى واحتفل به ، على أمل أن يستميل المحبين له من الجيوش العثمانية . وتقدم على مَهَلٍ ودخل دمشق فى أبهة ، وقد فرشت فى طريقه البسط فى حين أن التجار الأوربيين نثروا الذهب على المحتشدين حوله . وبعد أن أقام أيامًا تقدم نحو حلب متباطئًا ؛ واستقبل فى « حمص » و « حماه » بمظاهر السرور . وجاءه فى تلك الأثناء رسول آخر من معسكر العثمانيين ، وقدم له ، على سبيل التغرير به ، هبات غالية له وللخليفة أيضًا ولكبير الوزراء . ثم عرض أن « سليمًا » يطلب شيئًا من السكر المصرى والحلوى . ثم أشار من طرف خفي الى أن الذى ألجأ « سليمًا » الى الاستعداد للحرب ثانية والنزول الى ميدان القتال هو صدور فتاوى شرعية ضد « اسماعيل » المرتد ، فأرسل قانصوه وزيره « مغله بك » فى وفد بهدايا فى مقابل تلك ؛ ولكن فى اللحظة التى وصل فيها الى المعسكر العثمانى كان « سليم » قد خلع رداء السلم وأعلن غرضه الحقيقى ؛ ولما أراد أن يظهر احتقاره للمصريين عامل الوفد معاملة مشينة ، ورد الوزير مقصوص الشعر ، محلوق اللحية ، راكبًا حيوانًا أعرج بشعًا ، والباقين سائرين على الأقدام.

وقابله فى « حلب » « خير بك » الحاكم مقابلة فخمة جدًا لأنهُ أراد أن يخفى خيانته وهى انضمامه سرًا الى الباب العالى ؛ ومع أن السلطان وصله نبأ هذا من حاكم « دمشق » لم يصدقه . أما الأهلون فقد غضبوا كثيرًا من المماليك لما أتوه فى

(١) وتقدر قوة الجيش المصرى العادى بنحو ٢٦ أميرًا لألف عدا مماليك أمراء المائة وأمراء العشرة . ويقال أن قانصوه اشترى ثلاثة عشر الفًا من المماليك ، ترك منهم فى القاهرة الفين لحماية القلعة

فى مدينتهم من المظالم . عاد « مغلة بك » فى حالة مشعثة وأخبر السلطان بموقف « سليم » العدائى ، و باقتراب الجيوش التركية سريعًا ؛ فزال عندئذ كل شك فى موقف العثمانيين . واستحلف قانصوه الأمراء وكبار القضاة والمماليك السلطانية على الطاعة من جديد ، ووزع عليهم الهدايا أيضًا فاستاء جد الاستياء المماليك الآخرون الذين لم يُعطَوا شيئًا . ثم حَذِرَ السلطان ثانية من خروج « خير بك » عليه وأراد أن يقتله بعد أن وافقه أتباعه ، ولكن صرفه عن هذا العزم « جان بردى » قائلاً له إن هذا العمل فى هذا الوقت خطر جداً ، فلم ينفـذ عزمه[١] . تقدم عند ذلك الجيش وعسكر فى اليوم العشرين من شهر أغسطس فى سهل « مرج دابق » على مسيرة يوم شمالى « حلب » وانتظر قدوم العدو . وفى ذلك السهل كان سيتقرر مصير الأمبراطورية المصرية . وقد قاتل المصريون قتال الأبطال ، عدا المماليك السلطانية الذين أراد السلطان أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى . وقد تحرج كثيراً فى وقت ما موقف الترك حتى إن « سليماً » فكر فى التقهقر ، ولكن لتفوق العثمانيين فى العدد والمدافع نالوا النصر فى آخر الأمر ؛ وقد عجل بهذا النصر تقهقر « خير بك » بجيشه فولى المصريون الأدبار نحو دمشق لأن أبواب « حلب » قد أوصدت فى وجوهم . أما الخليفة وبعض كبار الأمراء فقد انحازوا للعدو . وقد قتل « قانصوه » فى هذه المعركة وحمل رأسه الى الفاتح[٢]

١٩ اغسطس

٢٤ اغسطس

وقد دخل « سليم » الى « حلب » ظافراً ، فرحَّب به الناسُ باعتباره منقذاً لهم من مظالم المماليك وعسفهم . وقد أكرم مثوى الخليفة ؛ ولكنهُ وبخ القضاة — الحنفية وحدهم هم الذين فروا — لعـدم امكانهم وقف فوضى المماليك . ثم أخذ

(١) مع انه قتل بعض الامراء الذين خدموا « سليماً » على كره منهم ثم فروا من جيشه عند ما امكنتهم الفرصة . وقد كان موقف « خير بك » خطراً جداً

(٢) تختلف الروايات فى هذا : فقد اذاع « خير بك » خبر موته ليزيد فى فرار المصريين وقيل ان السلطان وجد حياً فى الميدان فقطع رأسه ودفن منعاً لوقوعه فى يد العدو . ورواية العثمانيين ان الذى قطع رأسه تركى فأراد سليم ان يقتله ولكنه عاد فعفا عنه

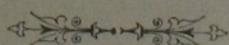


معه « خير بك » وضباطاً مصريين آخرين وتقدم نحو القلعة التى قد هرب منها قائدها واللاجئون اليها ؛ وهنا أراد أن يظهر احتقاره لرجال حاميتها فأرسل أمامه جنديًا أعرج ومعه عصا ففتحت له الأبواب فى الحال

وقد وجد فى القلعة نفائس كثيرة كان قد وضعها السلطان والأمراء خوفًا عليها، فأصبحت لا حارس لها[١] ، ثم سار « سليم » وسط أفراح واحتفال الى المسجد الكبير فدعى له فيه فى الصلاة . ثم سار مظفرا من حلب الى دمشق حيث انتشرت أشد حالات الذعر بين الناس الذين لم يحاولوا عمل شىء لمقاومة العدو ولحماية المدينة أكثر من إرسال الماء فى السهل الذى حولها . وقد شَلَّ سَيرَ أعمالهم تنازع الأمراء فيما بينهم ، كما هو دأب أمراء المماليك ، وقد فكر بعضهم فى تولية « جان بردى » عرش السلطنة ، وفكر آخرون فى إجلاس « ابن قانصوه » . ولكن عند اقتراب العثمانيين ذهب فريق اليهم وفر فريق الى مصر ، ودخل « سليم » المدينة حوالى منتصف اكتوبر ؛ وقد اغتبط به السكان من عظيمهم لحقيرهم اغتباطاً لا يحيط به الوصف ، وخضعوا بسرعة للفاتح العثمانى تخلصاً من عسف المماليك

اكتوبر

حكم قانصوه ما يزيد قليلاً على خمس عشرة سنة . ولسنا نعرف الكثير عن حياته الخصوصية وإدارته الداخلية ، لأننا عندما نصل الى الأيام الأخيرة للسلطنة المصرية تقل لدينا التفاصيل بدرجة لا يصح الحكم بموجبها . وما يقال فى غير مصلحته أقل جداً مما يقال عن أكثر السلاطين السالفين ، وذلك رغم قسوته واغتصابه الأموال كما رأينا



(١) المبلغ العظيم الذى يذكرونه هو مائة مليون قطعة من الذهب

# الفصل الحادى والعشرون

## الأشرف طومان باى

### ١٥١٦ — ١٥١٧ م

سبتمبر واكتوبر ١٥١٦

وصلت أخبار الهزيمة وموت « قانصوه » الى القاهرة فى أوائل سبتمبر ؛ غير أن النتيجة المخزية التى كانت قريبة لم يدركها الحكام أو الأهلون الا بعد وقوعها ، وعندما وقعت لم يفلح «طومان باى» الأمير الحاكم بعد صعوبة كبيرة فى ايقاظ المماليك وتنبيههم الى الخطر المحدق بالأمبراطورية، حتى بإرشائهم كى يقوموا بواجب الدفاع عنها . وهذا يدل على فقدان الوطنية فى هؤلاء المماليك . وقد انسلخ شهر قبل أن تتخذ الاجراءات لانتخاب خلف لقانصوه ، وذلك لانتظار عودة أمراء سورية ؛ وأخيراً وقعت الخيرة على « طومان باى » فرفض هـذا المنصب مدة طويلة ، ثم أقنعهُ بوجوب قبوله شيخ شريف كان مقيماً بقرب المدينة . بعد أن جعل كل الأمراء يقسمون له على الطاعة ويقرون له بالخضوع . وطومان باى ، مثل أسلافه ، كان فى ميعة شبابه مملوكاً فى القصر[1] وارتقى تدريجاً الى أمير مائة ثم الى رياسة الوزراء وبقى فيها الى حين خروج قانصوه للحرب فعهد إليه بالقاهرة وحكم مصر؛ واذ كان الخليفة تخلف مع سليم أقرَّ ابنه على السلطنة « طومان باى » ولكن بدون احتفال أو أى مظهر من مظاهر الأبهة ، لأن الخاتم الملكى قد فقد فى المعركة . وقد كان منصباً مظلماً لا يستحق الشكر هذا الذى ناله طومان باى وهو فى سن الأربعين ؛ لأن سورية قد ضاعت ، ولأن الجيوش تفرقت ، والأمراء شتتوا ، والمماليك كانوا فئة طاغية ؛ ومع هذا حكم حكماً حسناً فى المدة التى قبض فيها على صولجان الملك ، وكان محبوباً فى البلاد جميعها

١٧ اكتوبر

(١) وبما انه كان مملوك السلطان المتوفى فقد سمى بابن قانصوه



نوفمبر وديسمبر

وعلى توالى الأيام وصل الى القاهرة من « دمشق » الأمراء الهاربون ومعهم «جان بردي»؛ ومضى شهر آخر قبل أن يلتئم شمل الجيش المشتت ؛ وفى تلك الأثناء سقطت فى أيدى الأعداء « طرابلس » و «صفد» وغيرهما من المعاقل السورية ؛ وقد حل أول ديسمبر ولم تخرج للقاء العدو القوةُ التى جمعت فى القاهرة بقيادة «جان بردى » كى تنقذ « غزة» وكان قد أخَّر مسير هذه القوة ، ونقص عددها الطلبات الجشعة التى طلبها المماليك . وقبل أن تصل هذه الحملة الى حيث قصدت كانت « غزة » قد سقطت وورد الجيش على أعقابه مهزوماً . وفى خلال غياب « جان بردي » وصل وفد من قبل « سليم » يطلب الى السلطان أن يعترف بأن تكون السكة المضروبة باسمه و بالدعاء له فى الصلاة – وقد فعل ذلك معتزاً بتعلق الخليفة به، و بانضمام القضاة والقواد الذين انحازوا اليه – وقد قال على لسان وفده : « افعل هذا تسلم مصر ، وان لم تفعل فسآتى لأزيلك أنت ومماليكك معك من وجه الدنيا» . ومع أن هذا الوفد لقى سخرية وأذى فى المدينة ، كان السلطان يميل الى اجابة طلب الدولة العلية ؛ ولكن غلبه على حكمته أمراؤه المفتونون ، فقتل رجال الوفد

١٧ ديسمبر

وعند ذلك تعاقبت أخبار المصائب الواحدة بعد الأخرى ، وشمل المدينة الفزع والرعب واليأس ؛ وقد كانت خيانة « خير بك » وكثير من الأمراء الآخرين سبباً فى جعل الموقف حرجاً مظلماً ؛ وقد جاء سكان « غزة » نبأ كاذب بانتصار المصريين ، فهاجموا الحامية التركية فأمر سليم بذبح كثير منهم . وقد زاد الظلام حلوكة خبر الخيانة التى ارتكبها « جان بردي » ؛ وأسوأ من هذا كله أنه ، بعيد ظهوره ، عزا الهزيمة الى كثرة الأعداء وإلى جبن رجاله المدربين فى حين بدأت فى هذه اللحظة تتجلى الشكوك المحيطة بأمره . وعند ذلك عقد السلطان العزم على أن يخرج بنفسه الى « الصالحية» ليقابل الأتراك الذين أنهكهم سيرهم فى الصحراء . وفى آخر الأمر خضع لرأي أمرائه الذين رأوا أن يخندقوا عند « الريدانية » التى تبعد عن المدينة قليلاً

وفى هـذا الوقت وصل العثمانيون الى العريش وتقدموا عن طريق الصالحية وبُلبيس الى «الخانقاه» من غير أن يلقوا مقاومة . وفى اليوم العشرين من شهر يناير وصلوا الى « بركة الحج » وهى على مسافة ساعات قليلة من العاصمة . وبعد يومين من ذلك اعترضت صلبَ الجيش الخنادقُ المصرية ، فى حين إن فرقة من العثمانيين جاوزت تلال المقطم واكتنفت المصريين فنشبت معركة قاتل فيها طومان باى قتال الأبطال ، وقد قذف بنفسه هو وبعض المخلصين من رجاله وسط صفوف الأتراك ، وبلغوا خيمة السلطان ؛ ولكن فى آخر الأمر بوغت المصريون ، وزحزحوا من مواقفهم ففروا مسافة ميلين نحو الجنوب ازاء النهر ؛ فدخل العثمانيون المدينة من غير أن يلقوا مقاومة ، واستولوا على القلعة وذبحوا رجال الحامية الجركس جميعاً ؛ فى حين إن كل الشوارع كانت مسرحاً للهياج المفزع . وقد احتل « سليم » بنفسه جزيرة قرب بولاق . وفى اليوم التالى دخل وزيره المدينة ، وحاول أن يقف فظائع الجند . أما الخليفة الذى جاء فى بطانة سليم فقد أقام الصلاة العامة ودعا لسليم[1]

٢٢ يناير

وقد استمر النهب والهياج . ووضع الأتراك أيديهم على كل ما وصلوا اليه ، وهددوا الناس بالموت اذا لم يدفعوا لهم فداء كبيراً . وقد اضطهد الجراكسة فى كل ناحية ، وذبحوا بدون رحمة ، وعلقت رؤوسهم حول ميدان القتال . وبعد أيام دخل « سليم » المدينة ومعه الخليفة الذى بدأ حينئذ تأثيره يظهر اذ وُقفت بمساعيه الفظائع الوحشية ، وبدأ السكان يشعرون بعض الطمأنينة

٢٦ يناير

وفى الليلة التالية ظهر « طومان باى » واستولى هو وحلفاؤه من العرب على المدينة التى لم تكن محصنة تحصيناً تاماً ، وطردوا العثمانيين فى رابعة النهار بعد أن كبدوهم خسائر عظيمة . وقد كانت الخنادق محفورة عند الطرق المؤدية الى المدينة .

٢٧ منه

(١) قد اورد ابن إياس دعاء الخليفة ومؤداه ما يلى : يا الله احفظ السلطان ملك البرين والبحرين وهازم الجيشين وملك العراقين وحامى حمى الحرمين « الشريفين » المولى الاعظم « سليم شاه » وآته اللهم معونتك ونصرك يا اله الدنيا والآخرة يا من له ملكوت السماء والأرض



وفى يوم الجمعة دعي فى الخطبة باسم سلطان مصر ثانية . ولما جن الليل وكاد ينتصف عاد العدو فى جموع كثيرة وشتت شمل المماليك حتى انزووا فى مخابئهم ؛ فهرب السلطان عبْر النهر الى الجيزة ووجد له ملجأ فى صعيد مصر

ولما قنع سليم بهذا الظفر عاد الى جزيرته ، ورفع فوق خيمته راية حمراء بيضاء ، اشارة الى العفو عن الناس جميعاً الا المماليك ؛ وقد أمر باقتفاء أثرهم ، وأصدر اعلاناً ينذر فيه بقتل كل من يؤويهم اليه ، فكشف بهذه الوسيلة عن ثمانمائة حزت رؤوسهم . وقد عُفى عن كثير من أهل المدينة لشفاعة الخليفة لهم ، وكان مركزه الآن أهم من مركز كل خليفة فى عهد السلطنة المصرية . وقد استقبل « سليمُ » ابنَ قانصوه استقبالاً ممتازاً ، ومنحه المدرسة التى بناها أبوه لتكون له مسكناً . وبعد ذلك بقليل وسع عفوه الأمراء المستخفين ؛ فلما ظهروا وبخهم ثم وزعهم على غرف سجن القلعة ؛ ولم يستقبل من المماليك أحداً بإكرام كما استقبل « جان بردى » الذى قاتل باستبسال فى معركة « الريدانية » والذى ارتمى الآن على اقدام سليم ، ثم جعل له القيادة فى مقاتلة البدو[1] . ثم حصن سليم القلعة واتخذها مسكناً له بعد أن جعل على مدخل بابها الكبير فصيلة من الجند لحمايتها

وقد وقف ثانية « طومان باى » موقف المهاجم ، وأصبح موقفه مهدداً خطراً بفضل مؤازرة المماليك والبدوِ له ؛ وقطع ورود المدد والذخائر من الوجه القبلى الى العثمانيين . وفى آخر الأمر حين ملّ طول النزاع عرض على « سليم » رغبته فى الاعتراف بسيادة الباب العالى اذا جلا الغزاة عن الديار المصرية ؛ وعلى ذلك أوفد اليه « سليم » الخليفة وأربعة من القضاة مع مندوب تركى ، للاتفاق معه على شروط ؛ ولكن الخليفة كره القيام بهذا الأمر ، وأرسل نائبه بدلاً عنه . ولما سمع « طومان باى » الشروط المعروضة عليه أظهر سروره ورغبته فى قبولها ، ولكن

(١) يوجد خلاف كبير بين المؤرخين : هل انضم « جان بردى » الى العثمانيين علانية أو أنه انضم اليهم لاصطدامه معهم . والمفهوم انه ظل مخلصاً حتى معركة الريدانية ؛ ولما رأى ان الفشل واقع بالمصريين حتماً ، انحاز الى جانب الترك حوالى ختام شهر يناير

أمراءه الذين لم يثقوا بوعود سليم غلبوه على رأيه ، وذبحوا أعضاء الوفد الأتراك وواحداً من القضاة[١] ، ووقفوا ، بخرقهم ، المفاوضات . وعند ذلك انتقم سليم لنفسه بارتكاب عمل وحشى كهذا وهو قتل الأمراء المسجونين فى القلعة البالغ عددهم سبعة وخمسين

مارس

عاد السلطان بعد ذلك الى الجيزة ومعه كثير من الأتباع ؛ فأراد سليم الذهاب اليه ، ولكنه وجد صعوبة كبرى فى عبور جنوده النهر الى الجيزة فاضطر لبناء قنطرة من السفن فى عرض النيل[٢] ، وجمع « طومان باى » جموعه عند الأهرام فالتقى الجيشان هنالك حوالى ختام شهر مارس ، ونشبت معركة استبسل فيها الفريقان سحابة يومين ، غلب فى نهايتهما طومان باى ، على الرغم من امداد قائده «شادى بك» اياه امداداً حسناً ؛ وفر «طومان باى» الى أحد مشايخ البدو ، وكان قد أحسن اليه قبلاً بتخليصه من الموت ؛ ولكن البدوى نسى ذلك الجميل وخفر ذمة اللاجئ إليه بتسليمه الى الأتراك[٣] فحملوه الى سليم فى الأصفاد فوبخه على إصراره على معاداته ، وعلى قتله رسله . فوقف السلطان الأسير موقفاً مشرفاً وانكر ذلك القتل الشنيع ، وتكلم فى غير وجل عن عدالة حقه فى القتال لأن الواجب يحتمه عليه بحكم منصبه ، احتفاظاً بشرف أهل البلاد واستقلالهم ؛ فمال سليم الى عدم قتله وأراد أن يأخذه معه الى القسطنطينية ، غير أن الخائن « خير بك » بل أيضاً « چان بردى » ألحا على سليم فى قتله بقولهما إن حكم العثمانيين فى هذه البلاد سيظل محفوفاً بالمخاطر ما عاش طومان باى ؛ فكانت حجتهما قائمة . وعلى ذلك زج السلطان السئ الحظ فى السجن ،

(١) كان هذا القاضى اتهم احد المماليك بتهمة لدى سليم فقضى عليه بالموت

(٢) يقال ان « سليما » سئم النزاع فأرسل ثانية احد الامراء علّه يوفق الى شروط حسنة ، ولكن مقابلة ذلك الامير مع القائد « شادى بك » كانت سيئة العاقبة ، اذ نشبت بينهما معركة بدلا من الاتفاق ؛ وفى هذه المعركة جرح الامير وفر هو واتباعه . وعلى كل حال فابن اياس لم يذكر هذه الحادثة غير المحتمل وقوعها

(٣) وقد كوفئ البدوى ( حسن بن مرعى ) على خيانته ؛ ولكنه بعد ذلك قتل فشرب الجراكسة من دمه ؛ وعند ما علق رأسه فى المدينة اقام اصحاب السلطان السابق معالم الزينة



١٥ ابريل

ثم شنق بعد قليل عند باب المدينة[١] باعتباره مسيئاً . وبقيت جثته معلقة ثلاثة أيام ، ثم دفنت . وقد أصاب شر الخيانة « شادى بك » أيضاً فقتل فى الوقت نفسه . وقد ولّد موت طومان باى المحزن ، شعوراً غريباً جداً حتى حاول أحد الأمراء وطائفة من أتباعه المخاصين ذبح « سليم » غيلة فى الليل ؛ غير أن حرّاس القصر كانوا حذرين ، ولولا ذلك لتم هذا المشروع الخطير

وقد بلغ طومان باى من العمر أربعين حجة ، لم يحكم منها غير ثلاثة أشهر ونصف شهر ، ولم يخلف وراءه أسرة . وقد عذبت زوجه ، ابنة «اكبردى» ، من أجل أموالها . وقد برهن طومان باى فى كل من عهدَى نيابته عن قانصوه وسلطنته ، أنه شجاع كريم عادل . وقد شمل الحزن لموته كل البلاد المصرية . وهو أحسن رجال هذه الأسرة مع أنه آخرها — وهكذا انتهت أسرة المماليك انتهاء محزناً بموت طومان باى



(١) هو باب زويلة . وقد بكاه الناس بكاء مراً

## الفصل الثانى والعشرون (١)

## سليم والخليفة المتوكل

١٥١٧

مكث السلطان سليم فى القاهرة بعد موت «طومان باى» مدة لم يفعل فى خلالها شيئاً غير زيارته للاهرام وذهابه الى مدينة الاسكندرية ؛ وقد حل فصل الخريف قبل أن يرجع الى القسطنطينية ؛ وقد منح «خير بك» حكومة مصر جزاء ما قدمه من صالح الخدمات ، ومنح « جان بردى » ولاية سورية ، غير أن القلعة التى هى مفتاح القاهرة اسندت قيادتها إلى الباشا التركى ( الوالى ) وكان شديد الحذر

سبتمبر

ولما أزمع السلطان سليم الخروج من الديار المصرية استصحب معهُ الخليفة وجماً غفيراً من الناس كان من جملتهم كثير من أبناء السلاطين والعلماء والفقهاء والأمراء ورجال الحكومة ورؤساء الصناعات الماهرين والقضاة السابقين ؛ ولم يقتصر على ذلك بل عمد الى تجريد المدينة من نفائسها فانتزع أنواع الرخام الذى كان بالقصر وكذلك أخذ كثيراً من اللوحات الفضية وأدوات الزخرف والسلع النفيسة فكان كل ذلك حمولة الف بعير ؛ هذا إلى ما سلبه رجاله الكثيرون من باشوات وضباط وجنود من البلاد فقد حرموها خيراتها و بركاتها اذ لم يبقوا على شئ من جيادها و بغالها وحميرها ، ولم يذروا نفيسة من نفائسها .

انحطت القاهرة الى درجة مدينة عادية تابعة ، بعد أن كانت مدينة ملكية سائدة ، وقد شعر الناس بعد خروج «سليم» من البلاد بتكشف غمة عنهم ، لأنهُ فى غضون ثمانية الأشهر التى أقامها فى مصر أصاب الناس الجهد . وقد ترك

(١) ابتداء من هذا الفصل الى آخر الكتاب تصرفنا فى الترجمة تصرفاً ليس بالكثير



مقاليد الأمور فى أيدى وزرائه وموظفيه ، وصرف وقته فى سن الأنظمة الادارية . وقد أقام بجزيرة الروضة ، و بُنِى له بها بجانب المقياس فى طرف الجزيرة الجنوبى جوسق من الخشب ، أقام به بقية مدته الا زمناً يسيراً أقامهُ ببيت الأشرف « قايتباى » المطل على بركة الفيل

أما ابن « احمد » المطالب بالعرش البوزنطى فقد كان مختفياً فى القاهرة منذ هزيمة « قانصوه » ؛ ولما ارتحل سليم ، نمَّ عليهِ مماليكه ، فقبض عليه « خير بك » لكنهُ خشى قتله مخافة هياج محبيه ، فقيده بالأصفاد ، وأدخله إلى القلعة متنكراً ، فشنق فيها . وقد كان « خير بك » فى أول الأمر غير محبب الى الأمراء والمماليك ، ولكنهُ مع توالى الأيام صادقهم ، فاستطاع بمعونتهم أن يكبح جماح الأتراك الانكشارية الذين عاثوا فى الأرض فساداً . وقد استدعاه الباب العالى مرة أو مرتين لمحاسبته على ما يفعل ، مع أنهُ لم يكن يستحق هذه المعاملة ؛ ثم أخذ ابنه إلى القسطنطينية رهينة . وقد كانت إدارة خير بك حسنة عادلة ناجحة تستوجب الاطراء . وقد تواطأ « جان بردى » ، وكان لا يزال حاكماً فى الشام ، وخلف « خير بك » وثار على الباب العالى ثورة باءت بالخيبة والفشل فجنى على نفسه بنفسهِ .

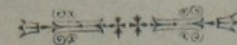
وقد بقيت سورية ، كما كانت ، مقسمة إلى حكومات منفصلة . أما مصر التى ظلت ولاية واحدة فكان الوالى فيها يستبدل بهِ غيره من قبل القسطنطينية سنة بعد سنة . وكان المستولى على القلعة هو قائد الجيوش ؛ ولم يتدخل فى شئون البلاد الا وقت الأزمات بعد مشاورة « ديوان » مؤلف من القضاة وغيرهم من العلماء . ولم يكن فى تغيير الحكام نجاة للناس من الارهاق والظلم اللذين ذاق الناس مرارتهما من قبل . والحق أن البلاد ساءت حالها عما كانت عليه فى الماضى لأن خيرات الأرض وثمرات جهود الفلاح صارت يؤخذ منها الشئ الكثير الى الشواطئ الشمالية بعد أن كانت تستهلك داخل البلاد

* * *

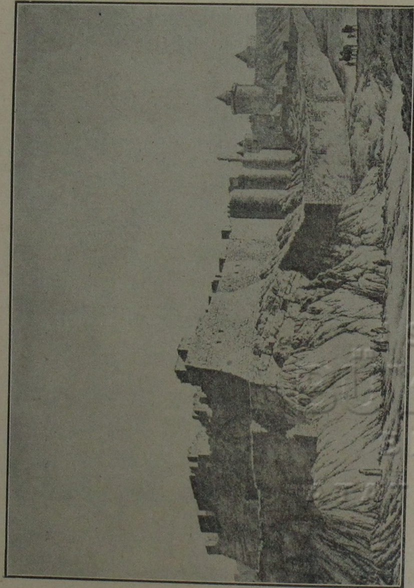
ذكرنا أن الخليفة « المتوكل » آخر الخلفاء ذهب الى القسطنطينية فى حاشية سليم وقد عامله فى أول الأمر باحترام كثير ولكن هذا الاحترام لم يلبث أن تغير وانقلب الى امتهان ؛ ذلك لأن سليمًا اتهمه بأنه لم يحرص كل الحرص على أموال اليتامى والأرامل التى عهد بها اليه اثناء الهجوم على القاهرة ، وسجنه فى حصن « القلاع السبع » ظاهر القسطنطينية ، فبقى فيه حتى مات سليم . ولما ولي السلطنة « سليمان » اذن له فى العودة الى القسطنطينية ، حيث بقى مدة عائشًا على وظيفة يومية مقدارها ستون درهمًا . ولما تنازل فى آخر الأمر عن لقبه ووظيفته الى العثمانيين سمح له بالعودة الى القاهرة ؛ ولم نعد نسمع عنه شيئًا سوى اشتراكه فى ثورة قامت فى مصر . وقد قضى نحبه عام ١٥٣٨ (١)

٭٭٭

منذ تنازل الخليفة « المتوكل » عن الخلافة صار سلاطين العثمانيين هم الخلفاء ، واتخذوا لأنفسهم جميع حقوق الخلافة الاسلامية ، ولا تزال فيهم الى اليوم



(١) لم يذكر ابن اياس فى تاريخه عودة الخليفة الى مصر مع أنه بقى فيها حتى رأى بعينيه كثيرين يعودون من القسطنطينية ، وعلى ذلك لابد من أن عودة الخليفة كانت بعد عام ١٥٢٢ م وهو العام الذى ينتهى فيه تاريخ « ابن اياس »



( منظر القلعة من المقطم )

## الفصل الثالث والعشرون

# طائفة المماليك

أوردُ هنا ملاحظات ختامية لا بد من ذكرها بياناً لمركز المماليك الاستثنائى وحكمهم مصر زماناً طويلاً : لا نجد فى تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك — فطالما سمعنا بأن العبيد والأرقاء فى ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لا تلبث أن تنقشع سحبها ؛ ولكننا لم نسمع مطلقاً، ولا نكاد نصدق لأول وهلة، أن طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤويهم أرقاء مثلهم ثم يحكمون قطراً غنياً كمصر، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر، ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد. ولكن مماليك مصر يعطوننا هذا المثال فى غضون القرنين الرابع عشر والخامس عشر

قد بينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن نهوض هذه الطائفة لم يكن إلاّ لما سار عليهِ الخلفاء العباسيون من استدعائهم قبائل همجية من التركمان إلى بغداد لتساعدهم، فسنوا بذلك سنة سيئة نحا نحوهم فيها الفاطميون فى مصر، وقفّى على أثر هؤلاء صلاح الدين وأتباعه فكانت نتيجة ذلك كله أن ثل المماليك عرش الدولة الأيوبية. على أن القياس على حالة بغداد قياس لا أساس له، لأن القبائل الهمجية التى نزلت هناك اختلطت بالناس وأصبحت جزءاً منهم. أما الحالة فى مصر فكانت على نقيض ذلك، وهذا هو موضع العجب ؛ فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم، فكانت حكومتهم « أوليغرقية » على رأسها الأمير أو السلطان، فى حين أن باقى المماليك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد ؛ واذا التمسنا لهم عذراً فى ابتعادهم عن الأقباط لمخالفتهم إياهم فى الدين فانا



لا نجد سبباً يبرر ابتعادهم عن المسلمين فى جميع أنحاء الامبراطورية سواء فى مصر أو سورية أو حدود أرمينية وآسيا الصغرى. وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى كانا يعدان ميزة لهم وفارقاً بينهم وبين غيرهم ؛ ولعلهما كانا من الأسباب التى دعت الى طول مدة حكمهم

وليس لدينا ما نستدل منهُ على عادات المماليك وحياتهم المنزلية غير مصادر تافهة سقيمة ؛ ولم يعرف عن ذلك شئ أكثر من اسم ملكة من زوجاتهم أو جارية من جواريهم. ومما لا شك فيهِ أن الجوارى كن يؤتى بهن من آسيا أو بلاد اليونان — وذكر هذا قليل كذلك — وكان النساء اللائى يسبين فى الحروب يؤتى بهن الى مصر فيحتفظ بهن المماليك أو يبيعونهن. ولم يكن هؤلاء السبايا مع بناتهن كافيات لأن يكن زوجات للمماليك لكثرة عددهم. والمماليك على كل حال لم يتزوجوا من نساء مصر إلاّ قليلاً جداً فتزوج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة ولم يتزوجوا من المسيحيات مع أن الاسلام يبيح التزوج منهن. ولكن زواجهم هذا لم يغير من عادة العزلة فيهم ولم يدعُهم إلى الاختلاط بغيرهم. وقد يستطيع المرء أن يذكر الصعوبة دون شرحها أو تفسيرها. ومع ما كان من ابتعاد المماليك عن الناس ومع ما اشتهر عنهم من الانقسام فى داخليتهم كان يخافهم كل من عداهم

ومن أشهر ما انفرد بهِ المماليك — على رغم ابتعادهم وترفعهم عن الناس — انقسامهم الى أحزاب وشيع لكل حزب منها زعيم ؛ وكان المملوك شديد التمسك بالسلطان أو الأمير الذى ابتاعه فكان عظيم التقيد بحزبهِ وبأسرتهِ حتى بعد وفاته، بل بعد أجيال عدة ؛ والدليل على ذلك الأشرفيون والظاهريون والمؤيدون وغيرهم ممن تسموا بأسماء سلاطينهم وقوادهم

وقد كان النزاع والخلاف الذى يقع بين الأحزاب المختلفة سبباً فى تعكير صفو ادارة الحكومة ؛ ولكنهُ فى الوقت نفسه ولد فى المماليك روحاً مستقلاً أظهروا بهِ الشجاعة وشدة البأس فخافهم الناس

ومما يجب ذكره أن المماليك كانوا ينالون فى الغالب قسطاً كبيراً من التعليم ، فكانوا يربون فى مدارس الحرب ومعاهد السلم ، فكانوا فى حداثة سنهم ينبغون أحياناً فى الفلسفة والفقه والعلوم وفى الفروسية واستعمال الأسلحة فيصيرون جديرين بالوظائف السامية وولاية الأمور . على أن الحال لم تك دائماً كما ذكرنا فقد ظهر من بين السلاطين من لم يستطع كتابة اسمه ؛ ومن بين هؤلاء من استمسك باستعمال لغته التركية أو الجركسية

وهناك صفة أخرى اختص بها المماليك وهى عدم عنايتهم بالوراثة فكان المملوك المحبوب يخلف سيده على العرش وأحياناً يسمى نفسهُ « ابن سيده » . وفى أغلب الأحوال كان يرث التاجَ ابنُ السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فلا يلبث أن يخلعهُ «اتابكه» أو أمير آخر يكون قد تآمر عليه . ولم نر واحداً فيمن مرَّ بنا ذكرهم قد استمرَّ التاج فى بيتهِ سوى « الناصر » ، إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده سنين عدة . وكان التاج فى الغالب يؤول الى أقوى الأمراء نفوذاً وأسوئهم مكراً وأعظمهم احتمالاً ، بل أحياناً الى أقساهم واكثرهم شذوذاً عن النظام . واعتبر المماليك التاج وقفاً عليهم ، وملكاً لهم يتوارثونه ؛ فأدى استئثارهم به ، بدون شك ، الى دوام الحكومة الأوليغرقية . ومن اكبر أسباب تعلقهم بمواليهم الثروة الكثيرة التى استحوذ عليها الأمراء انتزاعاً من أيدى الناس ، والأقطاعيات العظيمة التى وهبتها لهم الحكومة ، والقصور الباذخة التى أقاموها لأنفسهم ، وان بقيت هذه الأشياء كلها فى أيديهم مدة فهو بقاء ليس له ثبوت إذ ربما عصفت عليها عواصف ثورات تلك الأيام فأخرجتها من أيدى مالكيها

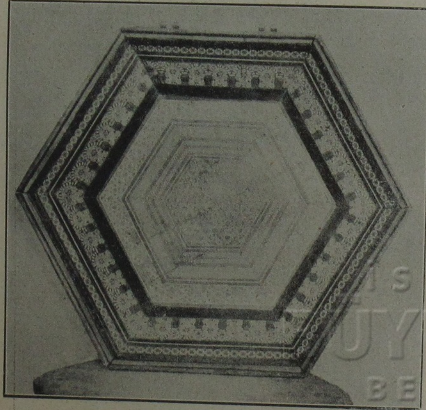
وباعتبار طائفة المماليك أمة نجد أن ما كمن فى نفوسها من الخيانة لا يحتاج الى استدلال ، وان ظهر من بينها حكام معتدلون صالحون محسنون ، يقدرون الشرف ويتحلون به ، ويعظمون الدين ويعملون على تثبيته ، اذ نجد منهم من حبس الأموال على الخيرات ، وترقية الآداب ؛ وبنى المدارس والكليات يتعلم الناس فيها علوم



الطب والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية ؛ وبنى ملاجىء للأيتام ، ومنهم من خلف وراءه آثاراً من عصرهم فى المبانى الجميلة التى لا تزال تزدان بها هذه العاصمة ، وإن كانت قد امتدت اليها أيدى العثمانيين عند فتحهم البلاد كما امتدت اليها بالسوء أيدى بعض المماليك الذين كان من دأبهم مناوأة اليهود والنصارى . ولكن الغالبية الكبرى من المماليك ، وخاصة فى أيامهم الأخيرة ، كانت عسوفة كثيرة الخيانة كثيرة المظالم لا ترقب فى إهراق دماء الناس الاًّ ولاذمة ، ويعذبونهم بالجلد والكى ، ويدسون لهم السم ، كل هذا رغبة فى التخلص من شرورهم أو للحصول على أموالهم بدون جرم أتوه

وخلاصة القول اننا نعجب أشد العجب من أن نيراً أجنبياً يثقل كاهل الناس ويخوفهم طويلاً ثم هم لا يحاولون القضاء عليه قبل اشتداد وطأته . والحق انى لم استطع تفهم السبب فى استمرار هذا الحكم ، اللهم الا اذا كانت حالة الاقباط السيئة إذ ذاك هى التى ساعدت عليه ، لأن الاقباط وحدهم كانوا هم الفئة القادرة على مناهضة المماليك ووقف تيار سيادتهم ، إذ أن الخليفة كان العوبة فى أيديهم ، وكان رؤساء المسلمين مع انهم القابضون على المناصب العامية شرعية كانت أو غير شرعية — خاضعين ، وكان عددهم بالنسبة الى عدد الاقباط قليلاً لا يتسنى لهم به تنظيم مناوأة المماليك ومعاداتهم . ولا يستطيع أحد تعليل فشل الفاطميين من قبل فى تكوين هيئة اسلامية قوية فى الاسكندرية أو القاهرة أو فلسطين

وكذلك من العسير أن نجد سبباً لخضوع سورية خضوعاً تاماً ولكن لكونها « ميدان حروب العالم » لم تكن تستطيع أن تسير على خطة سياسية مستقلة متحدة ؛ اذ كانت حاميات المماليك مستحوذة على القلاع ، وكان حكام من المماليك يحكمون البلاد ، ولم يفكر أحد مطلقاً فى جعل هذا الحكم فى أيدى وطنيين . ومما لا شك فيه أن البدو كانوا أمة مستقلة ولكن عاداتهم البدوية ، عادات الظعن والترحال ، لم تجعلهم يتخذون لهم مستقراً ومقاماً فى أى صقع من الأرض ، ولا أن يشتركوا

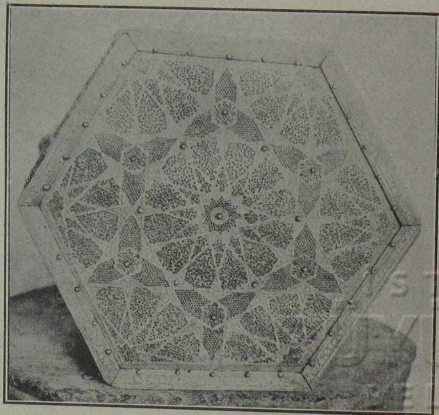


سطح كرسى مرصع بالفضة وجد فى مسجد شعبان بن الناصر
ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة



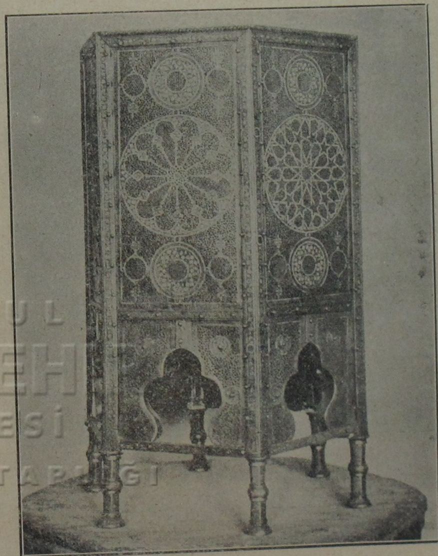
طويلاً اشتراكاً فعلياً فى أمر واحد ، بعكس ما كان عليه المماليك فانهم – على رغم كراهية بعض أحزابهم لبعض ، ومع حروبهم وأحقادهم الداخلية – كانوا متحدين اتحاداً تاماً بالنسبة الى من عداهم ، الخارجين عن بلادهم . ومع أنهم لم يكن أصلهم ثابتاً فى البلاد كما لو كانوا فى بلادهم الأصلية . ملكوا على مر الأيام كل شىء نفيس فيها ، ولم يترددوا مرة فى إشباع خزائنهم على حساب معاشريهم من أهل البلاد . ولذا كان غناهم وقوتهم وحزمهم مساعداً لهم على استعباد الناس استعباداً لا نزاع فيه

وكل هذه الاعتبارات المتقدمة تساعدنا الى حدٍ ما فى تفهم السبب الذى جعل سيادة المماليك على مصر طويلة ؛ على أن هذه السيادة لن تزال ظاهرة من الظواهر الغريبة التى تجل عن الاستقراء فى هذه البلاد الكثيرة العجائب



كرسى من البرونز مرصع وموشى بالفضة وجد فى مسجد الناصر بن قلاوون
ويظهر أنه صنع فى زمنه وهو محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة





ظهر الكرسى الذى فى الصورة السابقة

### الملحق الأول

# نظرة مختصرة فى المماليك

## تحت حكم العثمانيين

١٥١٧ - ١٨١١ م

ظل المماليك واضعين أيديهم على مصر طوال الحكم العثماني إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالى من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاتهِ فى مصر فيزيد نفوذ البيكوات المماليك تبعاً لذلك . بقى المماليك على عهد العثمانيين - كما كانوا من أجيال عدة - طائفة منفصلة لا تختلط مع من يساكنونهم الديار . ولم يزالوا يكثِرون من عددهم بشراء مماليك جدُد كانوا يفدون على مصر من سيبريا و بلاد الجركس وما جاورها من البلدان ، وصار رؤساء المماليك يسمَّوْن باسم « شيخ البلد » ، وكانوا كثيراً ما يتنازعون و يتقاتلون للحصول على هذا اللقب . فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها ، وكان «الشيخ» اذا عاضده الأمراء يستفحل أمره فينزل الباب العالى وواليه فى مصر على إرادتهِ ، فكأنهُ هو الحاكم الفعلى للبلاد

ولما كان الباب العالى مشتغلاً بحروبه مع الروسيا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، نبه ذكر شيخ البلد «على بك الكبير»، واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك فى مصر؛ وأخذ يزيد فى عدد المماليك فى بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف . وعندئذ اتخذ موقف المستقل وطرد الوالى العثمانى الى القسطنطينية ، ثم توجه بجيشه الى سورية فأخضعها وأخضع البدو كذلك ، فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ، ومنحه لقب سلطان . و بعد أن حكم حكماً زاهراً ائتمر بهِ جماعة وذبحوه غيلة فى سورية



١٧٩٨ - ١٨٠٠

كان ابراهيم بك « شيخ البلد » عند ما استولى نابليون على مصر لحماية مصالح فرنسا . ولما اضطر نابليون إلى الخروج منها باتحاد الباب العالى مع انجلترة عليه ، عاد « ابراهيم بك » إلى حكم البلاد بعد فراره منها إلى الوجه القبلى . ولا ضرورة هنا إلى تتبع مجرى الحوادث إلى الوقت الذى أحرز فيه محمد علي السيادة العليا على مصر

خشى محمد على شر المماليك فاتخذ لنفسه الحيطة وصمم على التخلص منهم فأوقع بزعمائهم بعد ست سنوات من تصميمه ، بأن دعا البيكوات والأمراء الى وليمة فى القلعة . ولما أرادوا الانصراف غلقت الأبواب الخارجة وسدت عليهم مسالك الفرار ، وأطلقت عليهم البنادق فماتوا جميعاً . ويقال إن عددهم بلغ «٤٧٠» . وبعد ذلك عملت تدابير أخرى كانت نتيجتها القضاء على بقية المماليك بالقتل أو الطرد . وقد هرب منهم عدد إلى بلاد النوبة . ويقال إنهم لاقوا حتفهم هنالك ، والعدد القليل الذى بقى منهم فى القاهرة اندمجوا فى أهل البلاد وصاروا منهم

هكذا انتهى حكم المماليك الذين سادوا مصر أجيالاً عدة فاستراحت منهم القاهرة راحة لم تعرفها من قبل



## الملحق الثانى

مذكرة حررها سعادة يعقوب أرتين باشا عن علاقة المماليك بأهل مصر

( وهى اجابات عن أسئلة سأله اياها المؤلف )

---

تسألنى فى خطابك عدة أسئلة ؛ وانى لمورد هنا الاجابة عنها جهد الاستطاعة

(١) « **دخل المماليك فى طاعة الباب العالى عام ١٥١٧ م . وانى لأظنهم أنهم ظلوا الى ذلك العهد أمة ذات شخصية ممتازة لا اختلاط لها بالسكان . فماذا ترون ؟** »

نعم ، كان الأمر كذلك ؛ ويجب على المتتبع لتاريخهم ألاّ ينسى أنهم لم يدّعوا مطلقاً أنهم يكوّنون بالزواج والمصاهرة أمة مختلطة منهم ومن أهل البلاد ؛ وكذلك لم يريدوا أن ينشئوا أسراً ظاهرة متميزة أو طبقة اريستقراطية بزواجهم من جوار من بنات جنسهم . ومن أظهر خواصهم الخلقية والاجتماعية أن الطفل منهم كان لا ينبغى له أن يخلف والده ؛ بل كان المملوك يخلف سيده المملوك فيصبح ولىّ أسرته ووصيها . ولدينا أمثلة كثيرة على أنهُ كان يضم أزواج سيده الى حريمه واذا لم يقتل الأطفال عاملهم معاملة تودى بحياتهم . وفى آخر عهد دولتهم كانوا أمة جندية ديمقراطية

(٢) « **وبعد ذلك أظلوا بمعزل عن الناس كما كانوا من قبل ، أم أنهم اختلطوا بالناس من عرب وغيرهم من سكان البلاد ، أو بالذين جاءوا من سورية أو آسيا الصغرى وغيرها ؟** »

كلا ! انهم ظلوا فى عزلة لأنهم ، لما كانوا يحرصون جد الحرص على بقائهم أمة جندية حاكمة للبلاد ، تمسكوا بمبدئهم وهو عدم الاستيطان الدائم . وكانت رغبتهم فى الاحتفاظ بمركزهم السياسى تحتم عليهم دائماً عدم الاتحاد والاختلاط ؛ وكان أهم



ما تصبو اليهِ نفوسهم فى الحياة الحروب يشنونها ولو على أنفسهم ، أو على أهل البلاد ليكسروا من شوكتهم ويخضعوهم لطاعتهم . ولما كانت هذه هى حياتهم كان تكوينهم لأسرات قريباً من المستحيل . وقليل من هؤلاء الفرسان من مات حتف أنفه وهو على فراشه فى سن التسعين أو نحوها ؛ وكثير منهم مات ميتات شنيعة وهم لم يجاوزوا من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة . وعند موتهم كانت تؤول بيوتهم وأمتعتهم وأموالهم وجواريهم ومماليكهم وأطفالهم بل كل شىء يملكونهُ ، الى سادتهم ، أو الى قاتليهم ، أو الى الحكومة التى كانت فى الغالب أقوى هيئة . وفى الحالة التى كانت فيها الحكومة أقوى هيئة كان كل ما يخص الميت ، بما فى ذلك أبناؤه ، يباع لمصلحة « بيت المال » . وفيما عدا ذلك كان أقوى زعيم فى المماليك هو الذى يستولى على كل ذلك . أما المماليك الذين عاشوا فى عزلة عيشة مدنية وتزوجوا وصار لهم ذرية فقد اندمجوا ، بعد جيل أو جيلين ، فى المصريين ؛ وكان أولادهم يسمون « المولدين » وكانوا فى عرفهم لا يليقون بأى حال للجندية أو الادارة . وانك لتجد فى كتاب « تاريخ الجبرتى » أمثلة عدة لهذا التوليد . ولعل أشهر هؤلاء « عبد الرحمن الكخيا » مولى « على بك » « النصف الثانى من القرن الثامن عشر » . والمثال الثانى أسرة رجل يعرفه أهل هذا الجيل وأعنى بهِ « محمود باشا سامى البارودى » وهو الآن فى جزيرة سرنديب « سيلان » مع عرابى باشا ؛ وهو يقول إنهُ من سلالة السلطان الغورى . ولكن المعروف عن نسبه انهُ حفيد مملوك لعلى بك عهد إليهِ بالترسانة التى أنشأها فى « بولاق » . وقد بقى هذا المملوك فى منصبه حتى بعد موت « على بك » لخبرتهِ ودرايته بصناعة البارود وصهر البرونز اللازم لعمل المدافع وغير ذلك ، ومن هنا سمى « البارودى » وقد تمسك ابنه بهذه الجنسية وتزوج جارية جركسية رزق منها ابنة تزوجت مملوكاً جركسياً ولد له منها « محمود سامى باشا » ( رب السيف والقلم ) وقد تزوج من حفيدة ابنة أخت « محمد على باشا الكبير » ، ولا يزال له منها ذرية باقية . انا قد أوردنا هذا المثال لأنه يرينا أسرة يرجع أصلها الى مملوك عمرت فى البلاد نحو مائة وخمسين عاماً ، وبقيت بمعزل عن بقية السكان فى المصاهرة ؛ ولم يخالف أحد من هذه الأسرة عادة الزواج بجارية أسيوية سوى محمود باشا سامى اذ تزوج من غير

جارية، كما ذكرنا، وان لم تكن مصرية. والأمثلة التى تشبه هذا المثال قليل علمها عندى. أما أمثلة الأسرات التى يقل تاريخها عن مائة عام أى بعد فتح محمد على الكبير للبلاد فكثيرة. وعلى الجملة نجد أن كل الأجانب الذين هم من دم أجنبى صرف يفضلون أن يكونوا ممتازين عن المصريين السمر اللون. على أن هناك كثيراً من الأمثلة على اختلاط دم المصريين بهؤلاء الأجانب ولكنه اختلاط على غير قاعدة، بل ينشأ فى الغالب من الصعوبة فى العثور على زوج من جنس المتزوج أو المتزوجة أو فى درجتها الاجتماعية؛ أو ينشأ عن الرغبة فى الاختلاط بحكم طول المعاشرة أو تنازع البقاء. وعلاوة على ما تقدم قد غير الخديو «اسماعيل باشا» منذ ثلاثين عاماً اللغة الرسمية التركية باللغة العربية فكان لذلك تأثير عظيم فى ميول الأتراك والچركس، أو على العموم ميول المسلمين الأجانب، فجعلهم يتقربون من المصريين، فخففوا من غلوائهم وعاملوهم معاملة النظير لا معاملة السيد للعبد، بل ودوا لو قبلهم المصريون كمصريين. وقد بولغ فى اظهار هذه العاطفة إبان الثورة العرابية عام ١٨٨٢م اذ رأيت بعينى رأسى أناساً ليس فى دمهم قطرة عربية يدعون أنهم من سلالة النبى (محمد صلى الله عليه وسلم). وهذا الروح آخذ فى الانتشار؛ وفى يقينى أنهُ لن يمضى ثلاثون عاماً حتى لا يكون فى البلاد تركى قح أو چركسى صميم، فان جميع الأسر الموجودة الآن ستصير مندمجة فى المصريين، بل ان الدم المصرى، من غير شك، سيتغلب على غيره كما تغلب فى كثير من الظروف من قبل. وانا لنجد أن الاغريق والسوريين والأرمن والمسيحيين الأجانب الذين يتزوجون من أقباط يتلاشون فى الجنس المصرى بعد جيل أو جيلين (زيجة أو اثنتين متتاليتين)

يظن بعض الناس أن الأجانب فى مصر لا يمكن أن يكون لهم ذرية أو أسرة خاصة بهم محتفظة بجنسيتهم بعد مرور الجيل الثالث على أصل هذه الأسرة، ولكن هذا خطأ فان لدينا أمثلة تاريخية تدل على ان البطالسة الذين جاءوا من مقدونيا وأقاموا بهذه الديار، ظلوا أقوياء عدة قرون رغم تزوجهم من أخواتهم. و بياناً للصعوبة



التى نشأت فى تكوين أسرات فى مصر من وقت أن آلت مقاليد الحكومة الى المماليك الترك يجب أن ننظر أولاً لنظامهم الحربى، ثم الى حياتهم الكثيرة الهياج والاضطراب، وما كانوا يلقونهُ من أشنع الميتات، والى زواجهم — اذا اتفق أن طال عمرهم — من زوجات مصريات كنّ يصبغن أولادهن من هؤلاء بالصبغة المصرية. وانى على يقين من أن جو هذه البلاد له تأثير فى الأجانب أحسن من تأثير أجواء البلاد الجنوبية كلها فيهم

وقد قيل لى إن أسرة «قايتباى» و بعضاً من سلالة العباسيين لايزالون باقين فى هذا البلد، ولكن بمجرد النظر الى هؤلاء يرى أنهم مصريون، للون بشرتهم وملامح وجوههم. ويجب على كل انسان أن يصغى بحذر الى أى شخص يدّعى أنهُ من ذرية السلاطين السابقين أو من نسل أى مملوك من مشاهير المماليك بحجة أن لهُ نصيباً فى أوقاف حبسها هذا السلطان أو ذلك المملوك، إذ أن هذه الحجة لا تقوم دليلاً كافياً على نسبتهِ الى ذلك الواقف فان عيون الوقف كانت تحبس على العموم على الأبناء، والوالدين، والمماليك، والعبيد من ذكور واناث وكذلك على الخادمين والخادمات وذرياتهم بل على ذرية الذرية دواليك. ومن هذا ترى الصعوبة الكبرى فى تتبع نسب أى انسان من أهل هذا العصر ولا فى الحكم بصحته بمثل هذه المعلومات القليلة، وخاصة اذا راعيت أن تاريخ مصر قد توالى عليه، فى غضون القرون الستة التى خلت، عصورٌ كلها ثورات وانقلابات

(٣) **«فى عام ١٨١١ ذبح فى القلعة بأمر «محمد على الكبير» عدد كبير من المماليك. فهل هرب من المماليك عدد كبير غير من قتلوا؟ ومن ذلك العهد هل بقى أى أثر يدل على أن المماليك ظلوا ممتازين عن غيرهم؟»**

لم يقتل فى مذبحة القلعة غير زعماء المماليك واتباعهم. ولكنى لا أستطيع تحديد عدد القتلى منهم، وكل ما لدى من المعلومات التى حصلت عليها أنهم لم يجاوزوا المائتين؛ وهؤلاء الرؤساء جميعهم چراكسة. أما أتباعهم الذين كانوا يتولون خدمتهم

فمن المصريين . أما من سكن الاقاليم من المماليك فلم يحلّ بهم ما حل باخوانهم وكثير من المماليك الذين كانوا فى القاهرة كانوا أعواناً لمحمد على ، ولذا نجوا من العاصفة . ويحتمل أن بضعة الوف منهم هربوا من البلاد فخرج بعضهم الى سورية وبعضهم الى الوجه القبلى ، وذهبوا الى دنقلة ، ومنها الى شندى حيث هلك بعضهم . وخدم آخرون فى جيوش محمد على التى ذهبت الى السودان عام ١٨٢٤م . وقد أخذ « محمد على » الفين من المماليك الذين لم تبلغ سنهم الثامنة عشرة ، وكانوا تابعين للمماليك الذين هلكوا ، بموجب قانون كان نافذ المفعول حينذاك ، ومؤداه : أن كل ما للعدو يصبح ملكاً لقاهره . وهذا القانون له نظير فى التوراة (داود وابنه) . وهؤلاء الأحداث انتظموا فى أول الأمر فى حرس « محمد على » الخاص ، والتحقوا بمدرسه القلعة ثم صاروا ضباطاً فى الجيش النظامى الذى انشأه محمد على عام ١٨١٥م فى قلعة القاهرة ، ثم نقل بعد ذلك فى عام ١٨١٨م . الى اسوان عند ما ثار الجيش الألبانى على الجيش النظامى . وكان هؤلاء الأحداث أساس الفرق الأربع التى تم تكوينها الى عام ١٨٢٤ م . ويقال إن عدد جنود المماليك بلغ عشرين الفاً فى أول حكم محمد على ؛ وكان عددهم أربعين الفاً قبل حملة « بونابرت » على القاهرة وقبل أن ينفوا أو يقتلوا . ولا يغيب عن الذهن أنهُ قد قلّ ورود المماليك من الشمال لكثرة الحروب والثورات فى مصر بين عامي ١٧٩٨ و ١٨١١ م . وكذلك يجب ألاّ ننسى أن النخاسين لم يجدوا فائدة لهم من توريد مماليك جُدد لافلاس زعماء المماليك، ولهذا لم يكن فى مقدور هؤلاء الزعماء لعدة سنين ان يكوّنوا جنداً من المماليك قبل أن يقضي محمد على رابطتهم فى عام ١٨١١م . قضاء مبرماً . ومن عام ١٨٢٤م . الى هذا الوقت كان قواد الجيش من الأجانب ، وكان نصفهم على الأقل من المماليك الجراكسة التابعين لأسرة الوالى . وانك لتجد آخر ذكر لهم سنة ١٨٨١م عند ما أراد « عرابى » أن يطاردهم جملة من الجيش . ومعظم هؤلاء الجراكسة اشتراهم الخديو اسماعيل باشا بعيد قبض الروس على « شامل » عظيم الجراكسة وآخر زعيم لهم ، اذ انهُ بعد موت هذا الزعيم هاجر عدد كبير من الجراكسة الى



تركيا ومصر وباعوا ابناءهم، فاشترى منهم «اسماعيل باشا» عدداً كبيراً، كما ذكرنا، وأرسلهم الى مدارسه، ورباهم تربية حربية حسنة حتى صاروا ضباطاً مدربين

ولا تجد من عهد أن أبطلت تجارة الرقيق مماليك يباعون فى مصر . ولا يزال عدد كبير منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز فى الأعمال العامة . وهم على العموم من سلالة آرية من الأغريق والجركس والأرمن وأهل جورجيا وغيرهم . وهم ينعمون بالحرية التى يتمتع بها الأحرار من الناس

إنك لا تجد فى أى جهة من جهات مصر أن الدم الأجنبى هو الغالب فى السكان ، وأول قادم الى مصر عند ما ينزل الى الدلتا يلاحظ لاول وهلة أن لون البشرة فى أهل السواحل أنقى منه فى الداخل ، ثم يأخذ يضرب الى السمرة فى الجنوب حتى القاهرة التى فيها خليط كبير من مختلف الألوان . والذى أراه أن الدم المصرى قد امتزج بالدم السامى اكثر من امتزاجه بغيره قديماً وحديثاً . والى الجنوب من القاهرة يزيد لون البشرة سمرة حتى اذا بلغنا اسوان وجدناه أشبه شىء بلون الزنوج . وشمالى القاهرة يصفو اللون لامتزاجه بالدم السورى والاغريقى والتركي . وليس الآن فى مصر جنس مصرى خالص فى مصريته ولذلك كان عسيراً على أى إنسان أن يحدد ماهية اللون المصرى . وعلى قدر مبلغ علمى أقول إن هناك مكانين جديرين بالاعتبار هما : ( أولاً ) شواطئ بحيرة المنزلة حيث يجد الإنسان جنس الهكسوس إذ - كما يتبين من الآثار - نجد لهم خدوداً نائئة وعيوناً صغيرة وجباهاً عريضة وأنوفاً كبيرة ولحية غير كثة ، و ( ثانياً ) الجزء الشمالى الشرقى من مديرية الدقهلية فيما يلى الصحراء السورية حيث يجد الإنسان الجنس السامى الصميم والقريب من الصميم وخاصة فى النساء . وفيما يختص بالجنس المصرى - كما هو ظاهر فى الآثار - فان الانسان يجد له أثراً من جنوبى بنى سويف الى الشلالات

وانى لأعتقد انى أديت ما يجب علي نحو أسئلتك ، وانى أخشى أن اكون قد أطلت ولكنى أرجو منك المعذرة اذ أنك تعلم الصعوبة التى يلقاها من يتناول مثل هذه الموضوعات بايجاز

**يعقوب أرتين باشا**

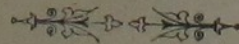
القاهرة فى ١١ سبتمبر ١٨٩٥

## فهرس مواد الكتاب









## فهرس الصور